الكتاب الثاني

في مكة

الفصل الأول

مكة

(١) موقع مكة

مكة أهم مدن الحجاز، وهي تقع في منتصف الطريق بين الشام واليمن، وتقوم في بطن واد شقته الطبيعة في جبال السراة، ذلك الحاجز الطبيعي الذي يفصل بين نجد في الشرق وتهامة في الغرب. وتأخذ مكة في هذا الوادي شكل هلال، طوله ضعف عرضه[١]، ويتخلل هذا الهلال مرتفعات كثيرة تنتهي شرقاً بجبل أبى قُبيس وغرباً بجبل قُعيقِعان. ويسمى قاع هذا الهلال باسم البِطاح، وفيه بئر زمزم والكعبة المقدسة. وما وراء البطاح إلى الجبال يسمى باسم الظواهر[٢].

والشقة بين مكة والبحر الأحمر تبلغ نحو سبعين كيلومتراً، ومرفؤها عليه في الإسلام جدة، وكان في الجاهلية الشُّعبية[٣]. وبرغم ارتفاع سطحها عن البحر بنحو ٢٨٠ متراً جوها حار في الصيف حرارة شديدة[٤] حتى ليقول ابن بطوطة إن حصباءها تشبه صفحات محماة[٥]. وشتاؤها أيضاً قاس في برودته. ومن هنا يقول شاعر قديم فيها[٦]:

وليس بها مشْتًى ولا متصيفٌ ولا كجواثى ماؤها يتفجر

---

[1] انظر مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت ١٨٧/١

[2] معجم البكري (طبعة أوربا) ١٥٥/١.

[3] أخبار مكة للأرزقي (طبع أوربا) ص ١٠٧.

[4] أحسن التقاسيم (طبع ليدن) ص ٩٥.

[5] رحلة ابن بطوطة (طبع أوربا) ٢٨٠/١.

[6] رسائل الجاحظ (طبع فان فلوتن) ص ٦١.

وجواثى: بلدة بالبحرين. وواضح أن الشاعر يعيبها أيضاً بقلة مائها. ومعروف أنه ليس بها آبار مهمة سوى زمزم[١]، فهي أطيب آبارها. ويقول ياقوت إنه لا يمكن الإدمان على شربها[٢]، ولعل ذلك ما جعل الخلفاء يعنون بتوفير المياه للحجاج. وليس من ريب في أن مكة في أثناء العصر الجاهلي عانت كثيراً في هذا الجانب، ولذلك كان من الوظائف المقدسة فيها حينئذ سقاية الحجيج.

وندرة المياه بمكة تدل بوضوح على أن المملكة النباتية ليس لها هناك مكان سوى بعض أشجار البادية من مثل الثمام والسلم والإذخر[٣]. وفى القرآن الكريم على لسان إبراهيم (ربنَا إِنِّي أسكَنْتُ مِن ذُريتِي بِواد غَير ذِي زرعٍ عِنْد بيتِك المحرم). وفي السيرة النبوية أن قريشاً قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: إنه ليس من الناس أحدا أضيق بلداً، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشتاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا، وليبسط لنا بلدنا، وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق[٤]. وفى سورة الإسراء (وقَالُوا لَن نُؤْمِن لَك حتَّى تَفْجر لَنَا مِن الأَرضِ ينْبوعاً أو تَكُون لَك جنَّةٌ مِن نَخِيلٍ وعِنَبٍ فتُفَجر الأَنْهار خِلاَلَها تَفْجِيراً).

مكة إذن بلد قاحل تحيط به الجبال من كل جانب إلا نوافذ أربعة تصل بينها وبين ما حوالها. وقد قامت– على ما يظهر– في الزمن الأقدم حول بئر زمزم، لتكون محطة للقوافل التجارية المصعدة إلى الشام والمنحدرة إلى اليمن. وسميت في العصر الجاهلي أسماء مختلفة، سميت مكة وبكة وأم القرى وناسئة، كما سميت باسم صلاح. وسماها القرآن الكريم " البلد الأمين ".

(٢) مكة في العصر الجاهلي

تاريخ مكة في العصر الجاهلي غامض، ولذلك كانت تحف به الأسطورة. ويزعم مؤرخو العرب أنه كان يسكنها في قديم الدهر قبائل من جرهم وبقايا من الأمم البائدة[١]، ثم نزلتها

---

[1] انظر في حفائر مكة وآبارها فتوح البلدان للبلاذري (طبع دى جويه) ص ٤٨ والأزرقي ص ٤٣٦

[2] معجم ياقوت (طبع مطبعة السعادة) ١٤٢/٨.

[3] البيان والتبيين للجاحظ (طبع لجنة التأليف والنشر)١٥٦/٢.

[4] السيرة النبوية لابن هشام (طبع الحلبي) ٣١٦/١.

[1] ابن هشام ١١٦/١ وانظر الحيوان طبع الحلبي ٢١٤/٧.

خزاعة حين نزحت مع من نزح من قبائل اليمن إلى الشمال. ويمكن أن نؤرخ لهذا النزوح بأواخر القرن الثالث للميلاد، أو أوائل القرن الرابع حين أخذت آخر الدول اليمنية، وهي الدولة الحميرية، في الاضمحلال[٢] فنزحت هذه القبيلة من هناك لتسيطر على هذه المحطة التجارية التي كانت تمر بها القوافل اليمنية إلى الشام محملة ببضائع اليمن والهند[٣].

وما زالت خُزاعة قائمة على هذه المحطة التجارية حتى انفجر سد مأرب حوالي سنة ٤٥٠ للميلاد[٤]، فضعفت الدولة الحميرية في اليمن ضعفاً تاما. وحول هذا التاريخ يظهر قصي مع قبيلة قريش في مكة.، فيستولي عليها، ويطرد خزاعة منها[٥]: وازدهرت التجارة في مكة في أثناء هذا العهد القرشي، إذ أصبحت تحتكر التجارة في بلاد العرب، وأصبحت محطة كبيرة للتجارة الآتية من الجنوب، تجارة اليمن وما يأتيها من الهند ومن الحبشة. وكانت أيضاً تأتيها من الشرق قوافل محملة بتوابل الهند التي تهبط على الخليج الفارسي. وكانت الحقبة الأخيرة من العصر الجاهلي حقبة ذهبية لتجارة مكة بسبب ما كان بين الروم والفرس من تصادم، فكانت مكة مركز كل القوافل والتجارة الذاهبة إلي الشمال والمنحدرة إلى الجنوب أو الشرق، وكانت قوافلها تذهب إلى غزة[٦]، ومنها إلى مصر[٧]، كما تذهب إلى بصري في سوريا[١].

ومن يقرأ أخبار هذه القوافل يخيل إليه أن مكة نفسها كانت قافلة كبيرة مقيمة، تخرج منها هذه القوافل المتتابعة إلى الشمال والجنوب. وفى القرآن الكريم (لإِيلافِ قُرَيشٍ إِيلافِهِم رِحلَةَ الشِّتَاءِ والصيفِ). أما رحلة الشتاء فكانت إلى اليمن، وأما رحلة الصيف فكانت إلى الشام. والإيلاف: المعاهدة مع الملوك[٢]. وطبيعي أن يعقد زعماء قريش مع الملوك الذين يتاجرون

---

[2] O Leary, Arbia Before Muhammad للمسعودى (طبع باريس)١١٩p.١٧(London ١٩٢٧)

[3] المصدر نفسه ص ١٨١ وما بعدها.

[4] المصدر نفسه ص ٨٩ وانظر تاريخ العرب المطول لفيليب حتى (الترجمة العربية) ص ٨٤.

[5] الطبري ١٠٩٢/١ انظر مروج الذهب

[6] المغازي للواقدي ص ١٩٨.

[7] الولاة والقضاة للكندي ص٧.

[1] ابن سعد المجلد الأول القسم الأول من الطبقات (طبعة أوربا) ص ٤٣.

[2] المسعودى ١٢١/٣.

وينزلون في بلادهم معاهدات، ويقال إن هاشماً جد الرسول عقد مع قيصر معاهدة[٣]، وعقد عبد شمس أخرى مع النجاشي، في حين عقد نوفل معاهدة مع الأكاسرة[٤].

وفى هذا ما يشير إلى حركة هذه القوافل الدائبة. وطبيعي أن هؤلاء الزعماء

كما تعاقدوا مع ذوى الشأن في البلاد الأجنبية حتى ينظموا قواعد هذه التجارة، كذلك تعاقدوا مع أشراف العرب وقبائلهم التي يمرون بها في طرقهم حتى لا يقربوا قوافلهم نظير إتاوات وهدايا خصصوها لهم[٥].

ونحن لا نستطيع أن نقف على مدى ما كانت تضطلع به مكة في هذا العمل الشاق إلا إذا تصورنا الطرق الوعثة الطويلة التي كانت تمر بها هذه القوافل، ويقال إن إحداها بلغت ٢٥٠٠ بعير[٦]. وتدل الأخبار المختلفة أنه كان يتقدم القافلة رواد مستطلعون يتعرفون على أخبار الطريق كما حدث في غزوة بدر، فإن هؤلاء الرواد عرفوا أن الرسول سيهجم على القافلة التي وراء هم، فذهبوا إلى مكة واستنفروا أهلها لإنقاذ القافلة[٧]. وكان يوجد مع القافلة أيضاً أدلاَّء يرشدونها في طريق سيرها حتى لا تضلَّ في شعاب الصحراء[٨]، وأيضاً كانت توجد معها حامية لحراستها، وكانت أخلاطاً من قريش وعبيدها، ثم شذاذ العرب وصعاليكها[٩].

وهكذا كانت قوافل قريش تجوب بلاد العرب شمالاً وجنوباً وشرقا، تنقل تجارة المحيط الهندي والبحر الأحمر إلى سواحل البحر المتوسط. فمن إفريقية عن طريق اليمن كانت تنقل التبر والرقيق والصمغ والعاج، ومن اليمن نفسها كانت تنقل الجلود والعطور والبخور وثياب عدن النفيسة. ومن العراق كانت تنقل توابل الهند. وأيضاً كانت تنقل الزبيب من الطائف والذهب من مناجم بنى سليم. كل ذلك تنقله إلى الشام ومصر، ثم تعود محملة بالأسلحة والغلال والزيوت والخمر والأقمشة القطنية والكتانية والحريرية[١].

---

[3] اليعقوبي[(طبع أوربا) ٢٨٠/١ والطبرى ١٠٨٩/١.

[4] اليعقوبي ٢٨٢/١ الطبري ١٧٨٩/١

[5] اليعقوبي ٢٨٠/١

[6] الطبري ١٢٧١/١.

[7] ابن هشام ٢٦٠/٢.

[8] الأغاني طبع بولاق ٧٤/١٩ وانظر ابن هشام ١٢٩/٢.

[9] الأزرقي ص ٤٦٢ ورسائل الجاحظ السابقة ٦٥- ٦٦ وأغاني طبع بولاق ٢٨/١٠، ٣٢/١٠، ٤٩/١٢، ٧٥/١٩.

[1] الازرقي ص ٥٥ ومكة في دار المعارف الإسلامية.

ولعل في هذا كله ما يرينا أهمية مكة في العصر الجاهلي، وقد جعلت هذه الأهمية أبرهة والى الحبشة على اليمن يغزوها سنة ٦٧٠ أو ٦٧١ للميلاد ابتغاء الاستيلاء على ما فيها من ثروة، والمصادر الإسلامية تجعل حملته دينية وأنه كان يريد هدم الكعبة. وباءت حملته بالفشل الذريع ففشت الأوبئة في جيشه ولم ينج أبرهة نفسه من المرض والموت[٢].

لم ينجح غزو أبرهة لمكة، بل زاد في تقديسها وإعظامها لما شاع من أخبار هذا الجيش المنهزم عنها، وقد جمعت هذه الهزيمة قلوب العرب حولها، وجعلتهم يحسون شيئاً من القومية والاعتداد بأنفسهم وأمتهم. ولم يحاول ولاة الحبشة على اليمن بعد ذلك غزو مكة، ولا حاولته أمة أخرى. فكانت مكة خالصة للعرب، وكانت بكعبتها المقدسة رمزاً لاستقلالها وقوتهم ومن هنا سميت أم القرى. وفى القرآن الكريم: (وإِذْ جعلْنَا الْبيتَ مثَابةً لِلنَّاسِ وأَمنًا) فكان البيت آمنا، وكانت مكة آمنة، لا تدخلها أمة، ولا تدين لأمة.

ويقول الجاحظ: " لم تزل مكة أَمناً ولَقاحاً[٣]، لا تؤدى إتاوة، ولا تدلن للملوك..." وقال حرب بن أمية في ذلك:

أبا مطرٍ[٤] هلُم إلى صلاحِ ... فتكفيك النَّدامى من قريشِ

فتأمن وسطهم وتعيش فيهم ... أبا مطرٍ هديتَ لخير عيشِ

وتنزل بلدةً عزتْ قديماً ... وتأمن أن يزورك رب جيشِ[١]

ويقول ابن الفقيه: " إن أهل مكة لم يؤدوا في الجاهلية إتاوة قط، ودانت لهم خزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة، وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحل إذا دخلوا الحرم... وهم بعد أعز العرب، يتأمرون على العرب قاطبة[٢]. ويقول ابن دريد: إنهم كانوا يأخذون من العرب إتاوة تسمى الحريم، كان يدفعها كل من نزل مكة في الجاهلية[٣].

---

[2] ابن هشام ٥٤/١ وما بعدها.

[3] اللقاح: البلد الذى ليس في سلطان أحد.

[4] أبو مطر هو أبو الحضرمي يدعوه حرب لحلفه وصلاح: اسم مكة كما تقدم.

[1] الحيوان للجاحظ ١٤١/٣.

[2] كتاب البلدان لابن الفقيه طبع أوربا ص ١٨.

[3] الاشتقاق لابن دريد ص ١٧٢ وانظر الأزرقي ص ١٧٥ (جامعة القاهرة) سنة ١٩٣٣.

ولم تكن مكة تأخذ إتاوة من العرب فحسب، بل كانت تأخذها أيضاً من التجار الأجانب الذين ينزلون بها، وكانت تسمى ذلك العشور. ويذهب أوليرى إلى أنه كان بها وكلاء بيزنطيون، وكانت مهمتهم تجارية أكثر منها سياسية[٤]، ولعل صهيباً الرومي الذي أسلم فيما بعد كان واحداً منهم. وأيضاً كان ينزلها بعض، الفرس[٥]، وكان بها جالية[٦] حبشية كبيرة.

وفي كل ما قدمنا ما يدل على عِظم شأن مكة في الجاهلية، وقد ذهب لامنس في كتابه عنها إلى أنها كانت جمهورية وأنه يمكن مقارنتها بالبندقية[٧]، وذهب أوليرى إلى أنها لم تَعد اتحاد قبائل ارتبط بعضها ببعض في حلف، هدفه نقل التجارة[٨]. ولعل من الطريف أنه كان بها ملأ، وهو مجلس شيوخ مصغر، وكان لا يدخله إلا من بلغ أربعين سنة[٩]. ولم يكن هناك انتخاب لاختيار شيوخ مكة في الملأ، إنما كانوا يختارون، على ما يظهر، حسب غناهم وخدماتهم التي يؤدونها. كل ما في الأمر أنهم كانوا يختارون من بطون قريش البطاح، وهم: هاشم وأمية ومخزوم وجمح وسهم وتَيم وعدي وأسد ونوفل وزهرة[١٠]. وكان هؤلاء الشيوخ ينظرون في شؤون مكه الدينية والتجارية، ولم يكن لأحد منهم امتيازات على نظرائه وأقرانه، وإنما كانوا جميعاً متساوين بتراض منهم.

ومن غير شك كان ينمو في هذه الجمهورية أو في هذا الاتحاد للقبائل القرشية نظام تجارى معقد، فكانت هناك المكاييل والموازين[١]، وكان هناك البيع الحاضر وبيع النسيئة أو البيع المؤجل[٢]، كما كانت هناك المضاربة، وهي أن يأخذ الشخص مالاً من غيره فيتجر فيه، ويكون له حظ معلوم من الربح على نحو ما صنعت السيدة خديجة مع الرسول صلى الله عليه وسلم قبل زواجه منها[٣]، وكانوا يتعاملون على أساس دنانير الروم ودراهم الساسانيين[٤].

---

[4] كتاب أوليرى ص ١٨٣.

[5] المسعودى٢/١٤٨ إذ يزعم أن الفرس كانت تقصد البيت الحرام وتطوف به.

[6] كتاب أوليرى ص ١٨٤ وانظر مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) سنة ١٩٣٣.

[7] Lammens La Mecque P.175 (eyrouthB ١٩٢٤)

[8] كتاب أوليرى ص ١٨٣.

[9] الاشتقاق ص ٩٧ وابن. هشام ٢/٢٩٨.

[10] المحبر لابن حبيب طبع الهند ص ١٦٧ والمسعودى تقصد البيت الحرام وتطوف به ٣/١١٩.

[1] كتاب مكة للامنس ص ٢٢٤ وفتوح البلدان ص ٤٦٦.

[2] مسند ابن حنبل ١/٣٩٨.

[3] الطبري ١/١١٢٧ والأزرقى ص ٤٧١.

ويقول لامنس إن مكة كانت تشبه مصر كبيراً، وكان الربح في المصرف عظيما[٥]، ومن هنا كان الربا فيه فاحشاً، حتى لقد يخرج أهله الدينار بدينارين. وفى القرآن الكريم: (يا أَيها الَّذِين آمنُوا لا تَأْكُلُوا الربا أَضعافًا مضاعفَةً).

وكان يساهم في هذه التجارة كل فرد من أفراد قريش قى مكة حتى النساء كان لهن سهم فيها، واشتهر الرسول صلى الله عليه وسلم بتجارته في أموال السيدة خديجة، ويروى الرواة أن هنداً زوجة أبى سفيان وأم معاوية كانت تتجر في قبيلة كلب بالشام.

واشتهر في مكة قبل الإسلام بيتان بالثراء: بيت الأمويين وبيت المخزوميين ويقال إن أكثر قافلة بدر كان للأمويين[٦] ولعل ذلك ما جعل أبا سفيان يرأس هذه القافلة. وفى الاشتقاق لابن دريد معلومات طريفة عن ثروات المخزوميين، حتى كان منهم من يسمى رب مكه[٧]. ويظهر أن الثراء لم يكن خاصا بهذين البيتين، فنحن نجد من قبيلة أبى بكر الصديق عبد الله بن جدعان وكان يتجر في الرقيق، وقد شبهه بعض الشعراء بقيصر إذ يقول[٨]:

يوم ابن جدعان بِجنْبِ الحزوره كأنه قَيصر أو ذو الدسكره

وفى اليعقوبي أن سادات قريش فوق آل جفْنة[١]. وفى الحيوان للجاحظ أنه.م فوق كِسرى[٢].

وهذه البلدة التاجرة استلزمت تجارتها كما استلزمت الحياة فنيها أن توجد بعض الصناعات بها، وفى أخبارها أن منها من كان حداداً أو نجاراً أوخياطاً أو جزاراً أو صانع برم[٣]. ومعنى ذلك أن في الجاهلية كانت أشبه بمدينة، ففيها الملأ أو مجلس الشيوخ، وفيها البطون الممتازة بطون النبلاء التي تنزل في البطاح. ووراءهم قريش الظواهر و معهم الحلفاء والنازلة[٤]

---

[4] كتاب مكة ص ٢٢٦ وانظر مكة في دائرة المعارف الإسلامية.

[5] كتاب مكة ص ٣٠٥ وانظر الطبرى ١٤٦٠/١ والواقدى ص ١٩٨.

[6] انظر مكة في دائرة المعارف الإسلامية.

[7] الاشتقاق ص ٦٠ وكذلك ٩٢.

[8] معجم البكري ٤/١. والحزورة: موضع يلى المعارف الإسلامية البيت الحرام كانت به سوق مكة.

[1] اليعقوبي ٢٨١/١.

[2] الحيوان. ١٦٥/١، وفى الحيوان ٢٤٦/٢: الواسيد قريش فقد قالوا سيد العرب.

[3] الأعلاق النفيسة لابن رستة طبع ليدن ٢١٥، والمحاسن والأضداد للجاحظ طبع فان فلوتن ص ١٦٥.

[4] الطبري ١٢٠٣/١ والحيوان ٢١٤/٧.

والموالى والرقيق. ويروى الرواة عن بعض المخزوميين أنه كان له رقيق أو عبيد من الحبشة يحترفون جميع المهن، وكان عددهم كثيراً[٥].

وتكوين مجتمع مكة على هذا النمط من أحرار وعبيد أو أشراف ورقيق، كثير الشبه بمجتمع أثينا القديمة. ويقال إن هنداً بنت عبد المطلب عمة الرسول أعتقت في يوم واحد أربعين رجلا من عبيدها[٦]. وهذا معناه أن العبيد كانوا كثيرين جداً في مكة قبل الإسلام

وليس عندنا نصوص كثيرة تصور مدى ترف أشراف مكة، ولكن لابد أنهم بلغوا من ذلك حدا واسعاً بحكم ما تمتعوا به من ثراء حتى ليقال إنهم كانوا يصيفون في الطائف ويشتون في جدة. ويقال إنه كان لأبى سفيان ضيعة في سوريا ينزل فيها في أثناء تجارته. ونجد في سورة الزخرف استهزاء بمن ينشأ في الحلية والزينة[٧]، ويقال إن عبد المطلب دفن في حليتن قيمتهما ألف مثقال من الذهب[٨] وكان بينهم من يلبس الثوب بخمسين[٩] ديناراً أو نحو ثلاثين جنيهة. وكما تأنقوا في ملابسهم تأنقوا شيئاً في طعامهم فعرفوا أنواعاً من طعام الأمم الأجنبية من مثل الفالوذج[١].

وكانت مكة في الجاهلية وثنية، بل كانت حارسة الوثنية في الجزيرة العربية، فقد كان بها الكعبة بيت الأوثان والأصنام. ويستطيع من يتتبع أخبارها في هذا الجانب ويقف عند الآلهة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وما جاء فيه من وصف عبادتها أن يعرف أنها كانت تقدس بعض الأجرام السماوية. وفى القران: (أَفَرأَيتُم اللاتَ والْعزى ومنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرى).
ويذهب أوليرى إلى أن الغرى تطابق كوكب الزهرة، في حين تمثل اللات الشمس[٢]، ونجد في أسمائهم كثيراً عبد شمس. أما مناة فكانت صخرة لهذيل وخزاعة، وفيها مما يشير إلى أنهم قدسوا بعض الأحجار. وفى القرآن الكريم: (يا أَيها الَّذِين آمنُوا إِنَّما الْخَمر والْميسِر والأَنْصاب

---

[5] أغاني طبع دار الكتب ٦٥/١ وفى الأجزاء التسعة الأولى دائماً نرجع إلى طبعة دار الكتب.

[6] المحاسن والأضداد ص ٧٧.

[7] سورة الزخرف آية ١٨.

[8] اليعقوبي ١٣/٢.

[9] مسند ابن حنبل ٤٠٣/٣.

[1] أغاني ٣٢٩/٨.

[2] انظر كتاب أوليرى ص ١٩٤.

والأَزلام[٣] رِجس مِن عملِ الشَّيطَانِ فَاجتَنِبوه لَعلَّكُم تُفْلِحون). والأنصاب: حجارة تنصب وتصب عليها دماء الذبائح وتعتد باعتبارها مقرا للروح. وكما قدسوا الحجر قدسوا الشجر مثل ذات أنواط التي كان يحج إليها المكيون سنويا.

ويذكر القرآن الكريم بجانب مناة وا للات والعزى آلهة أخرى، إذ يقول جل وعز في سورة نوح: (ولاَ تَذَرن آلِهتَكُم ولا تَذَرن ودا ولا سواعا ولا يغُوثَ ويعوقَ ونَسرا) وربما كانت كلمة نسر تشير إلى الطائر المعروف، وقد يكون في هذا ما يدل على أنهم قدسوا بعض الحيوان والطير، وربما أشارت كلمة ود إلى الصداقة ومعنى يغوث يعين، ومعنى يعوق يحافظ، وهي صفات قد تشير إلى أرواح حافظة.

وكان العرب في الجاهلية يحجون إلى الكعبة بيت هذه الآهة وأصنامها وأوثانها، وتزعم الرواية العربية أن عمرو بن لحى الخزاعى هو الذي أدخل الأصنام مكة[٤]، ويقال إنه كان في الكعبة عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة ثلثمائة صنم وستون[٥] أشهرها اللات والعزى وقناة، ثم هبل، وهو كبير آهتهم، ويظهر أنهم كانوا يرمزون به لربهم. وفى القرآن الكريم ما يدل على أنهم كانوا يؤمنون بالله، قال تعالى على لسانهم (ما نَعبدهم إِلا لِيقَربونَا إِلَى اللَّهِ زلْفَى) ولكنهم على كل حال كانوا وثنيين يعبدون، ويقدسون اشياء كثيرة من نجوم وأحجار وأشجار.

على أن هذه الوثنية في مكة لم تمنعها من الاتصال بالمسيحية واليهودية عن طريق الرقيق الحبشي وغير الحبشي الكثير فيها، وأيضاً عن طريق يثرب وغيرها من القرى التي كان ينزل فيها اليهود والتي كانت منبثة في الحجاز، ثم ما كان من اختلاط أهلها أنفسهم في أثناء تجارتهم في الشام وغير الشام بالمسيحيين، حتى ليقال إن بعضاً من أهلها تنصروا قبل الإسلام، فاليعقوبى يقول: " أما من تنصر من أحياء العرب فقوم من قريش[١]" ويقال إن منهم ورقة بن نوفل، وأيضاً عتبة بن أبى لهب وعثمان بن الحويرث الأسدي[٢]. وفى السيرة النبوية

---

[3] الأزلام: القداح.

[4] ابن هشام ٧٨/١ والمسعودى ١١٤/٣ والأزرقى ص١٣٣.

[5] الأؤرقي ص ٧٦.

[1] اليعقوبي ٢٩٨/١.

[2] المحبرص ١٧١ وابن هشام ٢٣٩/١.

أن حليمة السعدية حين رجعت بالرسول من البادية بعد فطامه لقيها نفر من الحبشة نصارى[٣]، وفى ابن سعد أنهم كانوا يهوداً[٤]. ونجد في أسد الغابة شخصاً يسمى شمعون[٥]، وفى السيرة النبوية شخصاً يسمى جبراً كان عبداً لبنى الحضرمي، وكان مسيحياً[٦]. ويذكر الواحدي عبدين نصرانيين نزلا في مكة وأصلهما من عين التمر[٧]. ولابد أن بعض مسيحيي الجزيرة في نجران وفى الحيرة وبعض يهودها المنبثين في الحجاز كانوا يفدون على سوق عكاظ على سوق ذى المجاز اللتين كانتا تقومان بجوار مكة، وقد وفد قس بن ساعدة على سوق عكاظ وخطب فيها قبيل الإسلام[٨].

ويقال إن شماساً زار مكة في الجاهلية[٩] وكان يعيش في مر الظَّهران راهب مسيحي[١]. ومن طريف ما يذكره ابن الأثير في أسد الغابة أنه كان بمكة جوار روميات[٢].

ومع ذلك فإن هذا كله لم يكن له قيمة بالنسبة لوثنيي مكة، فقد كانوا محافظين على دين آبائهم، وكانوا حراساً على الوثنية الجاهلية، فهم سدنة الكعبة وأصنامها، وحقا أن جماعة منهم تشككت في دينها وتحنَّفت[٣]، ولكن هؤلاء كانوا شذوذاً في قومهم، وكانوا يعدونهم مارقين من دينهم.

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على ارتفاع شأن مكة في الجاهلية، فقد كانت تعد عاصمة الجزيرة العربية، وقد اتخذت من عكاظ سوقاً يلتقي فيه الخطباء والشعراء، وبذلك كانت قطب الدائرة الأدبية في الجزيرة، فضلاً عن ثرائها ومكانتها التجارية والدينية.

---

[3] ابن هشام ١٧٧/١.

[4] القسم الأول من المجلد الأول ص ٧١

[5] أسد الغابة ٤/٣.

[6] ابن هشام ٣٣/٢.

[7] أسباب النز ول ص ٢١٢.

[8] البيان والتبين ٣٠٨/١.

[9] ابن هشام ١/٣٤٩ وأسد الغابة ٣٧٥/٣

[1] السيرة الحلبية ٧٥/١.

[2] أسد الغابة ٣٨٧/١ وانظر ٢٣٢/٤، ١٩٤/٥، ٤٦٢/٥.

[3] ابن هشام ٢٣٧/١ وانظر المحبرص ١٧١.

(٣) في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

مازالت مكة قائمة بوظيفتها التجارية والدينية حتى بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم حين استكمل أر بعين عاماً يدعو الناس إلى هدى الإسلام. وأسرع إلى تلبية دعوته زوجه السيدة خديجة، ومولاه زيد بن حارثة، وابن عمه على بن أبى طالب، وأبو بكر الصديق، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة[٤]. وعلى يد أبى بكر أسلم عثمان والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص، ثم أسلم أبو عبيدة وأبو سلمة والأرقم وعثمان بن مظعون وسعيد بن زيد وزوجة[٥] أخت عمر بن الخطاب.

وأقام رسول الله بمكة ثلاث سنين يدعو سرا إلى الإسلام[١]، ثم أمره ربه أن يصدع بما أرسله، فأخذ يدعو قومه جهراً بالحكمة والموعظة، ويجادلهم بالتي هي أحسن في آلهتهم وعبادتهم. وفزعت قريش إذ كانت تعد نفسها حارسة للوثنية في الجزيرة، وغضبت غضباً شديداً حين رأت الرسول الكريم يسفّه آلهتها وأحلامها، فناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته، وراجعوا عمه أبا طالب، وقالوا له: اعرض عليه أن يترك دعوته وآن يحتكم في أموالنا بما يشاء[٢]، فأجابه: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته[٣].

ومضى الرسول يجهر بدعوته ومضت قريش تحاده وتعانده، بل لقد ذهبت تعذب من أسلموا وتحاول أن تفتنهم عن دينهم الجديد، فلم يكن ذلك يردهم، بل كان يزيدهم إيماناً[٤]. وقد أخذ سفهاء قريش يتعرضون للرسول بالإيذاء. ويرمونه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ومن أهم من آذوه ونصبوا له العداوة أبو جهل[٥]. وعدد ابن حبيب المؤذين من قريش للنبي

---

[4] ابن هشام ٢٦٩/١.

[5] المصدر نفسه السابق وانظر اليعقوبي ٢٢/٢.

[1] اليعقوبي ٢٣/٢.

[2] نفس المصدر ٢٣/٢.

[3] انظر ابن هشام٢٨٠/١- ٢٨٥.

[4] ابن هشام ٢٧٨/١.

[5] ابن هشام ٣١١/١.

وأصحابه، فذكر منهم أبا لهب و الحكم بن أبى العاص وعقبة بن أبى معيط وعدى بن حمراء الثقفى وعمرو ابن الطُّلاطِلة الخزاعي[٦]. وبجانب هؤلاء الذين آذوه كانت طائفة تتعمد الاستهزاء به وبدعوته وعلى رأسها العاص بن وائل السهمى والحارث بن قيس الكَعبي، وهو صاحب الأوثان، وكان إذا مر بحجر أحسن من الذي عنده أخذه وألقى الذي عنده، وفيه نزلت الآية: (أَرأَيتَ منِ اتَّخذَ إلَهه هواه) ومنهم أيضاً الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة المخزومي والأسود بن عبد يغوث ابن وهب بن عبد مناف بن زهرة[٧].

ووثبت كل قبيلة تعذب من أسلم منها، وخاصة الموالى، بالضرب والجوع والعطش وبِرمضاء[٨] مكة إذا اشتد الحر. وكان أبو جهل إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنَّبه، وقال: تركت دين أبيك، وهو خير منك، لنسفهن حلمك ولنضعن شرفك، وإن كان تاجراً قال والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به[١].

ولما رأى رسول الله ما يصيب أصحابه من العذاب والجهد الشديد أضار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، وكان ذلك في السنة الخامسة للبعثة، حتى يجعل الله لهم مخرجاً مما هم فيه، فخرج أولا اثنا عشر رجلاً ثم خرج سبعون[٢] سوى أبنائهم ونسائهم، فاكرم النجاشي وفادتهم، وتبعتهم قريش هناك إذ نراها توجه بعمرو بن العاص وعمارة بن الوليد المخزومي إلى النجاشي ومعهما الهدايا، يطلبان منه أن يخرج هذه الجماعة المسلمة من بلاده، وأن يكف عنهم حمايته[٣]، ولكن النجاشي لم يصغ إلى قريش ورد رسوليها ردا قبيحاً[٤]. وفي هذه الأثناء أسلم حمزة وعمر بن الخطاب، فقويت شوكة المسلمين بهما. غير أن ذلك لم يفت في عضد قريش، فنرى ملأها أو مجلس شيوخها يجتمع ويقرر كتابة صحيفة ظالمة، تتعاقد فيها قبائل قريش

---

(6) المحبرص ١٥٧ وانظر اليعقوبي ٢٣/٢.

(7) المحبرص ١٥٨.

(8) ابن هشام ٣٣٩/١ وما بعدها.

(1) ابن هشام ٣٤٢/١.

(2) اليعقوبي ٢٨/٢ وانظر ابن هشام ٣٥٣/١.

(3) اليعقوبي ٢٨/٢ وابن هشام ٣٥٦/١.

(4) انظرالقصة في ابن هشام ٣٥٦/١ وما بعدها

ضد بنى هاشم وبنى المطلب على ألا يصهروا إليهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم. فكتبوا ذلك وعلقوا صحيفته في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم[٥].

ثم حصرت قريش رسول الله وأهل بيته من بنى هاشم وبنى المطلب في شِعبٍ يسمى شعب بنى هاشم، وكان ذلك في السنة السادسة من البعثة، واستمر الحصار ثلاث سنين[٦]. ولما سمع هاجروا إلى الحبشة بإسلام حمزة وعمر وأخرين معهما ظنوا أن مركز المسلمين قوى في مكة فعادت كثرتهم[٧] وتصادف أن الصحيفة التي علقتها قريش في الكعبة أكلتها الأرضة، ولعل قريشاً نفسها رأت أن تعود فيما أبرمته ضد آل المطلب وهاشم، فمزقت الصحيفة[٨]، وعادت بذلك للمحصورين حريتهم أو على الأقل عاد شيء من حريتهم.

وأخذت أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته قريشاً تُنقل من مكة إلى القبائل المجاورة وغير المجاورة، فإن مكة كانت مركزاً تجاريا يلتقي العرب إما فيها وإما في أسواقها، فطبيعي أن تسمع القبائل بهذه الدعوة الجديدة، وكان الرسول يسعى إلى رؤساء العرب الذين يتجمعون هناك يعرض عليهم الإسلام. ويقال إن قريشاً رصدت له سبعة عشر نفراً اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عنه[١]. وروى اليعقوبي أن رسول الله قام بسوق عكاظ عليه جبة حمراء، فقال: أيها الناس قولوا لأ إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا، وإذا رجل يتبعه له غديرتان كأن وجهه الذهب، وهو يقول: يا أيها الناس إن هذا ابن أخي وهو كذاب فاحذروه. ولم يكن هذا الرجل سوى أبى لهب عم الرسول[٢]، وكان يكثر من إيذائه هو وزوجه، وفيهما نزلت السورة الكريمة (تَبتْ يدا أَبى لَهبٍ وتَب ما أَغْنَي عنْه مالُه وما كَسب سيصلَى نَارا ذَاتَ لَهبٍ وامرأَتُه حمالَةَ الحطَبِ فِي جِيدِها حبلٌ من مسد).

ولم تلبث السيدة خديجة أن توفيت في السنة العاشرة من البعثة[٣] وتوفى على أثرها أبو طالب، فاثر ذلك في نفس الرسول واجترأت عليه قريش، إذ كان أبو طالب يحميه، وهموا به

---

(5) ابن هشام ٣٧٥/١.

(6) اليعقوبي ٣٠/٢.

(7) ابن هشام ٣/٢.

(8) ابن هشام ١٤/٢ وما بعدها إنظر اليعقوبي ٣١/٢.

(1) المحبرص ١٦٠.

(2) اليعقوبي ٢٣/٢ وما بعدها.

(3) اليعقوبي ٣٤/٢.

غير مرة، فرأى رسول الله أن يولّي وجهه نحو الطائف وأن يدعو أشرافها إلى الإسلام، لعلهم يأوونه وينصرونه، غير أنهم هزئوا به، ورماه سفهاؤهم بالحجارة، فعاد محزوناً إلى بلده[٤].

وفي أثناء ذلك لقي الرسول صلى الله عليه وسلم جماعة من أهل المدينة، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا[٥]. ولما دار العام أقبل عليه وفد يضم عشرة من الخزرج واثنين من الأوس فبايعوه بيعة العقبة الأولى، وبعث معهم مصعب بن عمير يعلمهم فروض الإسلام ويفقّههم في الدين[٦]، حتى إذا استدار العام أتاه وفد ثان يضم سبعين رجلاً وامرأتين، فسألوه الخروج إليهم وبايعوه بيعة العقبة الكبرى[١]. وعاهدوه أن ينصروه على القريب والبعيد والأسود والأحمر وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم وأولادهم.

وكانت هذه البيعة إيذاناً بانتقال النبي وأصحابه إلى المدينة فأمرهم أن يسبقوه إليها، فلم تمض بضعة أشهر حتى نزلوها جميعاً. ثم هاجر الرسول في إثرهم، فدقت البشائر عند هجرته في المدينة وخرج أهلها فاستقبلوه استقبالاً كريماً، كل ود لو ينزل في داره، فنزل في دار أبى أيوب الأنصاري، حتى بنى له داراً وبنى بجوار الدار مسجداً[٢].

ولم تقف هجرة الرسول واصحابه الصراع بينه وبين قريش، فإنها خشيت من وجوده في المدينة، وهي في طريقها إلى الشام، تلك الطريق التجارية التي هي عماد ثروتها وحياتها. ولم تلبث الفرصة من قريش أن تعرضت للرسول فإن أبا سفيان قدم من الشام بعير لقريش تحمل أقواتاً وأموالاً، فخرج رسول الله يطلبه، وعرف أبو سفيان، فأرسل إلى مكة بضمضم بن عمرو الغفارى يستصرخ أهلها[٣]، فخرجوا لقتال رسول الله وصحبه، وكانوا ألف رجل أو يزيدون، وخرج رسول الله في ثلثمائة فالتقى الجمعان في بدر، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة، ودارت الدائرة على المشركين، وقُتل كثير من رؤساء قريش وسادتها، ولم يبق إلا القليل الأقل من ملئها أو مجلس شيوخها، فقد قُتل أبو جهل وعتْبة وشيبة ابنا ربيعة والعاص بن هشام بن المغيرة وزمعة بن الأسود والحارث ابنه والنَّضر ابن الحارث وعقبة بن أبى

---

(4) ابن هشام ٢/ ٦١ واليعقوبى ٢/ ٣٦.

(5) ابن هشام ٢/٧٠

(6) ابن هشام ٢/٧٥ وما بعدها

(1) ابن هشام ٢/٨٤ وكذلك ٢/٩٧ وانظر اليعقوبي ٢/٣٨.

(2) اليعقوبي ٢/٤٥.

(3) اليعقوبي ٢/٤٦.

معيط. وبلغ من قُتل من سادات قريش سبعين رجلا[٤]، وتوفى أبو لهب بعد وقعة بدر بأيام كمداً وغيظاً. ويقول اليعقوبي إن العرب حين رأت من قتل من قريش في وقعة بدر أوفدت وفودها إلى الرسول[٥]، فقد أخذت كلمة الحق تعلو كلمة الباطل علوا عظما.

على أن قريشاً لم تقبل الاستكانة لهذه الهزيمة المنكرة، فجمعت جموعها في العام التالي مستعينة بكل ما قدم به أبو سفيان في قافلته من مال[١]، وخرجت من مكة في ثلاثة آلاف. والتقى الفريقان في احد شمالي المدينة، وكادت الدائرة أن تكون على المشركين لولا مخالفة النبالة لأوامر الرسول، فإنهم تركوا أماكنهم حين ولّى المشركون الأدبار، غير أنم لم يلبثوا أن أتوهم من خلفهم وأعملوا السلاح في ظهورهم، وقتل حمزة بن عبد المطلب، وهزم المسلمون[٢].

ورجعت قريش إلى مكة وقد غَرها ما أصابت من النبي وأصحابه، فأخذت تجمع الأحزاب والقبائل ضده، حتى إذا تم لها ما أرادت خرجت في العام الخامس للهجرة يناصرها في ذلك بنو النَّضير الذين أجلاهم الرسول عن المدينة[٣]، كما يناصرها غطفان وقبائل كثيرة. ولما رأى الرسول أن لا قبل له بأعدائه حفر الخندق حول المدينة، وبذلك سميت الغزوة غزوة الخندق، وسمى غزوة الأحزاب. ولما طالت محاصرة المدينة ولم نستطع هذه الأحزاب أن تصل إليها دب الشقاق بينها، وأرسل الله عليها ريحاً صرصراً عاتية، عجلت برحيلهم دون أن يصيبوا من المدينة شيئا[٤].

وفى السنة السادسة للهجرة خرج الرسول صلى الله عليه وسلم يريد العمرة، وساق من الهدى سبعين بدنة وساق أصحابه أيضاً وكان معهم السلاح، أو كانوا مسلحين، وقد بايعوا النبي بيعة الرضوان على القتال. ولما علمت قريش بذلك رأت أن تدخل مع الرسول في معاهدة على ألا يعتمر هذا العام، ويؤجل ذلك إلى العام القابل فيخلُّوها له ثلاثة أيام وعلى أن الهدنة بينهم عشر سنيين، لا يؤذون فيها أحداً من أصحاب رسول الله، ولا يمنعونه من دخول

---

(4) ابن هشام ١٤١/٢.

(5) المصدر نفسه ٤٧/٢.

(1) اليعقوبي ٤٧/٢ وابن هشام ٦٤/٣.

(2) اليعقوبي ٤٨/٢.

(3) ابن هشام ١٩٩/٣.

(4) اليعقوبي ٥٠/٢.

مكة، وأيضاً لا يؤذى أحد من أصحاب رسول الله أحداً منهم. ورجع رسول الله إلى المدينة ثم خرج في العام القابل فأدى العمرة، وهي عمرة القضاء[٥].

وكانت خُزاعة قد دخلت في عقْد رسول الله في حين دخلت كنانة في عقد قريش، فشجر الخلاف بينهما، وأعانت قريش كنانة، إذ أرسلوا مواليهم إليهم، فقتلوا في خزاعة. حينئذ استنجدت خزاعة بالرسول وبما بينها وبينه من عقد، فصمم على غزو مكة، وجمع لها كثيراً من القبائل التي دخلت في الإسلام. وأقبل بهذا الجيش الضخم إلى مكة، ورأت مكة أن لا طاقة لها به وبمن معه، فأرسلت أبا سفيان وحكم بن حزام وبديل بن ورقاء ليأخذوا لها الأمان. وفتح الله على نبيه وكفاه القتال، ودخل الجيش مكة من أربع جهات، ودخل رسول الله الكعبة وأزيلت الأصنام، ومحيت الصور، وخطب في القوم، فقال: " ألا كل دم ومال ومأثرة في الجاهلية فإنه موضوع تحت قدمي هاتين إلا سِدانةَ الكعبة وسقاية الحاج فإنهما مردودان إلى أهليهما، ألا وإن مكة محرمة بحرمة الله لم تحل لأحد من قبلي ولا تحل لأحد من بعدى... فهي محرمة إلى يوم القيامة، لا يخْتَلي[١] خَلاها ولا يعضد[٢] شجرها ولا ينفر صيدها ولا تحلّ لُقْطتها إلا لمنشد[٣]". واستسلمت كنانة كما استسلمت قريش.

وبذلك انتهى الصراع بين الرسول ومكة ولكن بعد أن دوخها وزعزع مركزها التجاري، فإن الطريق إلى الشام قطعه الرسول والمسلمون من حوله وكان لذلك شأنه في تدهور. التجارة بمكة. وأخذت الأموال تستخدم لا في البيع والشراء، ولكن في حرب الرسول والمهاجرين وأهل المدينة، وأخذت الحرب تأكل هذه الأموال فلا تُبقي ولا تذر.

ومعنى ذلك أن التجارة أخذت تكسد في مكة، وكان بعض المهاجرين من كبار التجار كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، فخسرت مكة بعض رؤوس الأموال، وأيضاً هؤلاء أنفسهم أخذوا يرسلون بالعير إلى الشام، فنافست المدينة مكة في قوافل التجارة. ولما فتحت مكة انتقل كثير من الأسر المهمة إلى المدينة، وازداد هذا الميل إلى المهاجرة في أثناء حكم

---

[5] اليعقوبى ٢/٥٤.

[1] يختلي: يقطع، والخلا: الكلأ.

[2] يعضد: يقطع.

[3] اليعقوبي ٢/٥٨ وما بعدها.

الخلفاء الثلاثة الأول، وقليل هم الذين عادوا بعد هجرتهم[٤]، وانتقلت بطون بأكملها[٥]. وضاع سلطان مكة القديم على العرب، إذ تحول هذا السلطان إلى المدينة، وأصبحنا لا نسمع عن قوافل مكية كبيرة تقطع بلاد العرب صيفاً أو شتاء، وحتى أسواقها كعكاظ وذي المجاز لم يعد لها أخبار تذكر. وكان الاستيلاء على العراق والشام في عهد أبى بكر وعمر ورجوع الطريق التجاري القديم من خليج فارس إلى بلاد الموصل فالشمام الضربة القاضية على مركز مكة التجاري.

ولعل في ذلك كله ما يوضح كيف أن مكة أخذت تضعف بعد الفتح، فلم تعد البلدة الأولى في الحجاز، بل سبقتها ونافستها المدينة، وقد أصبحت تابعة لها، وولى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب[١] بن أَسِيد واستمر عليها في عهد أبى بكر، وولَّى عليها عمر ولاة مختلفين أهمهم نافع[٢] بن عبد الحارث الخزاعي، أما عثمان فولى عليها خالد بن العاص بن هشام، ثم ولاة آخرين، ولما خلفه على ولى عليها قُثَم بن العباس بن عبد المطلب.

(٤) في العصر الأموي

لعل أهم ما يلاحظ على مكة في أوائل هذا العصر أنها، أو قل إن كثرتها، لم تكن مغاضبة لمعاوية، إذ نهض للأخذ بثأر شيخها المقتول: عثمان. غير أن الظروف أخذت تتطور بعد ذلك، فإن أهل مكة والحجاز جميعاً أخذوا ينقمون على الأمويين نقلهم عاصمة الدولة، الإسلامية إلى دمشق في الشام، حتى إذا ولى الأمر يزيد بن معاوية رأينا المدينة تثور عليه، وقد قتل الحسين في وقعة كَربلاء على ما هو معروف، وخرج عبد الله بن الزبير إلى مكة، وعاد بالبيت وسمى نفسه العائذ، وأعلن هناك العصيان، وطرد والى يزيد، ومكث ينظر[٣].

وأرسل يزيد جيشاً كبيراً بقيادة مسلم بن عقبة ليديل من الثائرين في المدينة ومكة، وهاجم هذا الجيش المدينة في وقعة[٤] الحرة، ثم خرج منها يريد مكة وابن الز بين. واحتضر قائده

---

[4] انظر ابن سعد ٣٢٨/٥.

[5] المصدر نفسه ٣٣٦/٥.

[1] ابن هشام ١٤٣/٤.

[2] ابن سعد ٣٣٩/٥

[3] طبري ٢٢٢/٢

[4] طبري ٤٠٥/٢.

في الطريق فاستخلف الحصين بن نُمير، وقدم بالجيش مكة، فحاصرها ورماها بالنيران فاحترقت الكعبة[١]. وفي هذه الأثناء توفّي يزيد، فرفع الحصار عن مكة، ويقال إن الحصار قال لابن الزبير " هل لك أن أحملك إلى الشام، فليس بالشام أحد فأبايع لك، فليس يختلف عليك اثنان؟ فقال ابن الزبير رافعاً صوته: لا والله الذي لا إله إلا هو أو نقتل بأهل الحرة أمثالهم من أهل الشام، فقال ا!ه الحصين: من زعم أنك داهية فهو أحمق، أقول لك مالك سراً وتقول لى ما عليك علانية[٢] "ثم انصرف إلى الشام.

وأعلن ابن الزبير أنه خليفة المسلمين وتبعه كثير من البلدان، تبعه الحجاز، وتبعته مصر وبعض بلدان الشام، كما تبعه العراق وخراسان، ولم تبق ناحية خارجة عليه سوى الأردن وصاحبها يومئذ حسان بن بحدل الكلبي[٣]. وأخطأ ابن الزبير خطأً شنيعاً، إذ أمر بطرد بنى أمية من المدينة إلى الشام، فساروا إليها وعلى رأسهم مروان بن الحكم[٤]. وهناك دعا مروان لنفسه، وعقد مؤتمر في الجابية عقدت فيه الخلافة لمروان[٥]. واتجه مروان مع أصحابه إلى دمشق حيث التقوا بالضحاك بن قيس في مرج راهط[٦]، فكانت الدائرة عليه. وبذلك خلصت الشام لمروان، وولّى وجهه نحو مصر فدخلها وصالح أهلها وأعطوه الطاعة[٧]. وفى هذه الأثناء اضطرب حبل الأمور في العراق، وسرعان ما توفي مروان، وولى الأمر من بعده ابنه عبد الملك.

وكان عبد الملك داهية من دواهي قريش، ولعل من أهم ما يدل على دهائه أنه لما رأى ابن الزبير يتصل بأهل الشام وخاف أن يفسدهم عليه منعهم من الحج، فقالوا له أتمنعنا من حج بيت الله الحرام، وهو فريضة فرضها الله، فقال: بل هذا ابن شهاب الزهري يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تُشَدَ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى، ومسجد بيت المقدس. وبذلك صرفهم مؤقتاً عن المسجد الحرام إلى مسجد بيت المقدس،

---

[1] طبري ٢/٤٢٦ وما بعدها.

[2] اليعقوبي ٢/٣٠١ وما بعدها وانظر المسعودى ٥/١٩١.

[3] اليعقوبي ٢/ ٣٠٤.

[4] طبري ٢/٤٦٧.

[5] اليعقوبي ٢/٣٠٤.

[6] اليعقوبي ٢/٣٠٥.

[7] اليعقوبي ٢/٣٠٦.

واستغلَّ الصخرة فيه التي يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع قدمه عليها حين صعوده إلى السماء، فأقامها لهم مقام الكعبة، فبنى عليها قُبةً، وعلق فوقها ستور الديباج، وأقام لها سدنَةً، وأمر الناس أن يالوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة[١].

وأخذت الأمور تتطور في جانب عبد الملك فإن العراق كثرت فيه الفتن، فتن الخوارج بقيادة نافع بن الأزرق وقد غلبوا على البصرة، وفتن الشيعة بقيادة المختار الثقفى وقد غلبوا على الكوفة. فأرسل ابن الزبير أخاه مصعباً، وكان بطلاً من أبطال قريش وسيداً من سادتها، فاستقام له العراق، وقضى على المختار كما قضى- أو كاد يقضى- على الخوارج[٢].

وكان من أهم الأمور التي أساءت إلى ابن الزبير أنه تحامل على بنى هاشم فأخرجهم من مكة، ويقول اليعقوبي- إن صح ما يقول- إنه ترك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته فقيل له: " لم تركت الصلاة على النبي؟ فقال؟ إن له أهل سوء، يشرئبون لذكره، ويرفعون رءوسهم إذا سمعوا به[٣] ". وعلى كل حال كانت الأحوال مضطربة، ولعل من أوضح ما يدل على اضطرابها أن نجد في سنة ٦٨ هـ. أربعة ألوية بعرفات، لواء مع محمد بن الحنفية وأصحابه، وثان مع ابن الزبير، وثالث مع نجدة بن عامر الحروري الخارجي، ورابع مع بنى أمية[٤].

وأخيرا سار. عبد الملك إلى مصعب بن الزبير، فلقيه بموضع يقال له دير الجاثَليق على فرسخين من الأنبار، فاقتتلا هناك قتالاً شديداً، ولم يلبث أصحاب مصعب أن انحازوا عنه، واستمر يقاتل حتى قتل[٥] في ذى القعدة سنة ٧٢ للهجرة.

وندب عبد الملك الناس لحرب ابن الزبير في مكة فتقدم إليه الحجاج كثيرون معه، فوجهه إليه في عشرين ألفاً من أهل الشام وغيرهم. وقدم الحجاج ابن يوسف، فقاتل ابن الزبير قتالاً

---

[1] اليعقوبي ٢/٣١١.

[2] انظر اليعقوبي ٢/٣١٤ وما بعدها.

[3] اليعقوبي ٢/٣١١.

[4] اليعقوبي ٢/٣١٤ وطبرى ٢/٤٥٢ وانظر ٢/٧٨١.

[5] انظر الطبري ٢/ ٨٤٤.

عنيفاً، ولم يغن ابن الزبير تحصنه بالبيت، فقد رماه الحجاج بالمجانيق من كل جانب، حتى هدمه[١]، بعد أن بناه ابن الزبير وأنفق كثيراً في بنائه[٢].

ولما رأى ابن الزبير أنه لا طاقة له بحرب الحجاج دخل على أمه اسماء بنت أبى بكر فقال لها: كيف أصبحت يا أمي؟ فقالت له: إن في الموت لراحة، ثم قال لها: إنى أخاف إن قتلنى هؤلاء القوم أن يمثلوا بي، فقالت: يا بني إن الشاة لاتألم للسلخ إذا ذبحت، فخرج وقاتل حتى قتل[٣] سنة ٧٣ للهجرة.

ولا ريب في أن هذه الحوادث التي ألمت بمكة من عام ٦٣ إلى عام ٧٣ للهجرة جعلتها تقف في صفوف المعارضة من بنى أمية، ونحن نعرف أن هذه المعارضة كان موطنها العراق حيث الخوارج والشيعة، واشتركت فيها الحجاز ومكة في أثناء خلافة ابن الزبير. وأخذت حدة هذه المعارضة تضعف مع مر الزمن، ولكن استمرت النفوس مطوية على الإحن.

وإذا رجعنا إلى ولاة مكة في هذا العصر الأموي، وجدنا بينهم خالد[٤] بن العاص ابن هشام والى عثمان ثم والى معاوية، ويظهر أنها لم تدم معه طويلا، فقد أخذت تتبع والى المدينة وممن ولاّه عليها معاوية الوليد بن عقبة، ونزعه يزيد وولّى عمرو[٥] ابن سعيد بن العاص، ثم عزله وأعاد الوليد[٦]، ثم عزله وولّى عثمان بن محمد ابن أبى سفيان وكان فتى حدثاً لم يجرب الأمور ولم تجربه، فكان لا ينظر في شيء من سلطانه وعمله[٧].

ثم غرقت مكة في حوادث ابن الزبير، وكانت إذ ذاك عاصمة لخلافته ومقرا لإدارة سياسته، ثم عادت إلى الأمويين وكانت تُمنَح في العادة لقرشي، وإن كان قد تولاها عقب قتل ابن الزبير الحجاج بن يوسف فأقام فيها سنة ثم تركها إلى العراق، وفى أثناء حكمه لها وللحجاز بنَى الكعبة وأدخل فيها الحِجر وجعل لها بابين[١]. ثم تعاقب عليها ولاة مختلفون

---

(1) الطبري ٨٤٤/٢

(2) اليعقوبي ٣٠٩/٢ وما بعدها.

(3) الطبري ٨٤٤/٢ واليعقوبى ٣١٩/٢.

(4) طبري ١٦/٢ وكذلك ص ٧١،٨١، ٨٤، ٨٥، ٨٧.

(5) طبري ٢٥٥/٢.

(6) طبري ٣٩٩/٢

(7) طبري ٤٠٢/٢

(1) طبري ٨٥٤/٢.

أشهرهم نافع بن علقمة الكنافي وقد شدد في النبيذ والغناء والمغنين[٢]. ومن أهم ولاتها خالد القسري وليها في عهد الوليد ابن عبد الملك سنة ٨٩ للهجرة وفى ولايته كتب الحجاج إلى الوليد: " إن أهل النفاق والشقاق قد لجئوا إلى مكة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي فيهم ". فكتب الوليد إلى خالد بن عبد الله القسري، فأخذ عطاء وسعيد بن جبير ومجاهداً وطلق بن حبير وعمرو بن دينار، فأما عمرو بن دينار وعطاء فأرسلا لأنهما مكيان، وأما الآخرون فبعث بهم إلى الحجاج[٣] ". وكانت في خالد شدة، وخطب في أهل مكة يوماً فقال:

" يا أيها الناس! إنكم بأعظم بلاد الله حرمة، وهي التي اختار الله من البلدان، فوضع بها بيته، ثم كتب على عباده حجه من استطاع إليه سبيلا. أيها الناس! فعليكم بالطاعة ولزوم الجماعة وإياكم والشبهات فإني والله ما أوتَى بأحد يطعن على إمامه إلا وصلبته في الحرم، إن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذي جعلها، فسلموا وأطيعوا، ولا تقولوا كيت وكيت، إنه لا رأى فيما كتب به الخليفة إلا إمضاؤه، واعلموا أنه بلغني أن قوما من أهل الخلاف يقدمون عليكم ويقيمون في بلادكم، فإياكم أن تُنْزلوا أحدا ممن تعلمون أنه زاغ عن الجماعة، فإني لا أجد أحدا منهم في منزل أحد منكم إلا هدمت منزله، فانظروا من تنزلون في منازلكم، وعليكم بالجماعة والطاعة فإن الفرقة هي البلاء العظيم[٤]".

ويروى أنه كان يقول: " والله لو أعلم أن هذه الوحش التي تأمن في الحرم لو نطقت لم تقر بالطاعة لأخرجتها من الحرم، إنه لا يسكن حرم الله وأمنه مخالف للجماعة[٥]". وأقر سليمان بن عبد الملك خالداً على مكة وأحدث فيها أحداثاً، منها أنه أدار الصفوف حول الكعبة وكانت صفوف الناس في الصلاة بخلاف ذلك[٦].

ولعل في هذا ما يدل على أن مكة انصرفت عن بنى أمية، فقد أصبحت بينها وبينهم دماء منذ قام فيها ابن الزبير، وحج الوليد سنة ٩٤ للهجرة فخطب بها خطبة بتراء، توعد فيها أهلها، وتهددهم[١] وينتهي القرن الأول وندخل في القرن الثاني ولا توجد حوادث واضحة في

---

[2] أغاني طبع بولاق ٢٠/١١.

[3] طبري ١٢٦٢/٢.

[4] طبري ١٢٣١/٢.

[5] طبري ١٢٣٢/٢.

[6] المسعودى ٣٩٩/٥.

[1] اليعقوبي ٣٤١/٢.

هذا القرن سوى ما كان من استيلاء الإباضية برياسة أبى حمزة الخارجي على مكة سنة ١٢٧ للهجرة، واستولوا أيضاً على المدينة، ثم ولّوا وجوههم نحو الشام، فلقيتهم جيوش مروان بن محمد، وهزمتهم هزيمة نكراء، وتبعتهم حتى اليمن حيث قتل زعيمهم عبد الله بن يحيى الكندي الذي يسمى طالب الحق[٢].

(ه) ثراء وحضارة

من أهم ما يميز مكة في العصر الجاهلي أنها كانت بلد ثراء شديد، فقد كانت تتجر كما قدمنا، وكانت قوافلها تجوب بلاد العرب، وكان فيها بيوت ثرية كبيرة، أهمها بيت بنى أمية وبيت بنى مخزوم. ولا بد أن عبد الله بن جدعان كان ثرئاً ثراء عظيماً، فقد قرنه بعض الشعراء- كما تقدم- إلى قيصر، ويبالغ الرواة في كرمه وما كان يبذل للناس[٣]. ويقال إن الأر باح بلغت في قافلة بدر خمسة وعشرين ألف دينار، وقد تنازل عنها أصحابها لحرب النبي[٤]، وفى هذا التنازل ما يدل على أن أصحاب هذه الأموال كانوا من ذوى الألوف. ومن أشهر الأثرياء حينئذ أسرة سعيد بن العاص وكان لها في قافلة بدر ثلاثون ألف دينار، ولبقية الأمويين عشرة آلاف. وأكثر مال القافلة كان للأمويين، ولعل ذلك ما جعل أبا سفيان-كما مر بنا- يرأس القافلة. ومن أثرياء مكة من بنى مخزوم الوليد بن المغيرة وعبد الله والد عمر بن أبى رييعة. وقد دفع المخزوميون للرسول في فداء بعض أسراهم أربعة آلاف درهم[١]، وافتدوا رفات قتيل يوم الخندق بعشرة آلاف درهم[٢]. ومن أثرياء بنى هاشم المعدودين العباس بن عبد المطلب، وقد افتدى نفسه يوم بدر وإبنى أخيه عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث بمائة وأربعين أوقية[٣]

وفى كل مكان نسمع أخبار هذا الثراء الفاحش وما يتبعه من كرم وضيافة. عن أبى ذر قال: " قدمت مكة معتمراً فقلت أما من مضيف؟ قالوا: بلى كثير وأقربهم منزلا الحارث بن

---

[2] اليعقوبي ٤٠٦/٢.

[3] أغاني طبع دار الكتب ٣٢٧/٨ وانظر المحبرص ١٣٧.

[4] اليعقوبي ٤٧/٢.

[1] ألواقدى ص ١٣٦.

[2] أبى هشام ٢٦٥/٣.

[3] اليعقوبي ٤٦/٢.

هشام المخزومي، فأتيت بابه، فقلت: أما من قِرى، فقالت لى الجارية: بلى، فأخرجت إلي زبيباً في يدها، فقلت: ولَم لم تجعليه في طبق؟ فعلمت أنى ضيف، فقالت: ادخل، فدخلت، فإذا أنا بالحارث على كرسي وبين يديه جِفان فيها خبز ولحم وأَنْطاع عليها زبيب فقال: أصِب، فأكلت، ثم قال هذا لك، فأقمت ثلاثاً، ثم رجعت إلى المدينة فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم خبره، ففال: إنه لسرِى ابن سرى، وددت أنه أسلم[٤]". وأخبر الكلبي في إسناده عن رجلين من بنى سليم أخوين قالا- إن صتى ما قالاه-: " دخلنا مكة معتمرين في سنة، فما وجدنا بها شواء ولا قِرى، فبينا نحن كذلك إذ رأينا قوماً يمضون، فقلنا أين يريد هؤلاء القوم؟ فقيل لنا يريدون الطعام، فمضينا في جملتهم حتى أتينا داراً، فولجناها، فإذا رجل آدم أحول على سر ير وعليه حلة سوداء، وإذا جفان مملوءة خبزاً ولحماً فقعدنا فأكلنا، فشبعت قبل أخي، فقلت له: كم تأكل؟ أما شبعت؟ وسألا عن صاحب الطعام، فإذا هو أبو جهل بن هشام[٥] " وفى أبيه هشام يقول بجير ابن عبد الله[٦]:

فأصبح بطن مكةَ مقشعرا كأن الأرض ليس بها هشام

ومن هؤلاء المخزوميين من كان يقال له رب مكة كما قدمنا. والحق أن قريشاً بلغت مبلغاً عظيماً من الثراء في أثناء العصر الجاهلي، حتى اشتهر أشرافها بأنهم كانوا يملكون دوراً ليصيفوا فيها بالطائف.

وليس من ريب في أن هذا كله يؤكد أنه كانت هناك ثروات ضخمة في الجاهلية. وقد أخذت هذه الثروات تتأثر- كما مر بنا- في أثناء الحروب بين النبي صلى الله عليه وسلم و بين مكة، كما أخذت تتأثر أكثر بمهاجرة كثير من أصحابها إلى المدينة. بل لقد أغلقت طرق القوافل المكية حينما فتح طريق العراق إلى الشام بعد فتح البلدين، فحملت فيه تجارة الهند. غير أن مكة فُتح لها طريق آخر، لم يكن في هذه المرة طريق قوافل، ولا كان خاصا بها، بل كان عاماً لها ولأهل المدينة والعرب جميعاً وهو هذا الطريق، بل الطرق الحربية،التي انتهت بالعرب إلى كنوز بلاد فارس ومصر والشام. وكان القرشيون مميزين في هذه الفتوح، فكان كثير منهم يرأس الجيوش والحملات، وكان كثير منهم يتولى على المقاطعات والولايات.

---

[4] ا المحبر ص ١٣٩.

[5] المحبر ص ١٤٠

[6] المحبر ص ١٣٩ ومقشعرا: أصابته قشعريرة أي رعدة.

وانصبت كنوز الأرض في حجورهم وحجور العرب، يقول ابن خلدون: " إن بحار الرفَه زخرت لديهم حتى كان يقْسم للفارس الواحد في بعض الغزوات ثلاثون ألفا من الذهب[١]" ومر بنا في حديثنا عن الثراء والحضارة في المدينة أن الأسلاب قُسمت بعد موقعة القادسية فبلغ سهم الفارس أربعة عشر ألفاً وسهم الراجل سبعة آلاف ومائة. وأن عمر خطب في الناس مرة، فقال: "إنه قدم علينا مال كثير إن شيء تم أن نعده لكم عداً، وإن شيء تم أن نكيله لكم كيلاً" كما مر بنا أنه بلغ خراج سواد الكوفة وحدها في عهد عمر عشرين ومائة ألف ألف، وأنه لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة رأى عمر أن الفتوح قد توالت وأن كنوز الأكاسرة قد ملكت، وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت، فدون الدواوين وفرض العطاء وجعل لكل واحد من المسلمين نوعا مقرراً تراوح بين ألف وخمسة آلاف في العام

وهذا كله كان يصب في بلاد العرب وخاصة في البلدتين الكبيرتين اللتين كانت تقم فيهما قريش، وهما مكة والمدينة. وأخذ القرشيون يثْرون ثراء لا نكاد نتصوره الآن، ومر بنا في الحديث عن الثراء والحضارة في المدينة كيف وقف المسعودى عند ثروات بعض كبار الصحابة وقفة طويلة، واستعرض ما صار إليهم وعجب منه، ولا عجب، فقد ملك العرب الأرض، وأصبحوا من ذوى الألوف المؤلفة.

ومهما يكن فقد أثرى كثيرون من أهل مكة ثراء واسعاً، ومن أهم أثريائها وأجوادها في العصر الإسلامي الأول عبد الله بن عامر والى عثمان على البصرة، وقد اشترى سوق البصرة من ماله ووهبها لأهلها، فلم يكونوا يؤدون عنها خراجاً[١]، واتخذ في مكة حياضاً ونخلا بعرفات، وأقام النّباج، وهي قرية على الطريق بين مكة والبصرة، واتخذ قريتين أخريين وغرس بهما نخلاً وأَنْبطَ عيوناً[٢]. ويعرض ابن حبيب لجود القرشين في أوائل العصرالإسلامي عرضة يشبه الآن أن يكون قصصاً، فمنهم من كان يهب البستان قيمته ستمائة ألف درهم، ومنهم من كان يهب الجارية ابتاعها بمائة ألف درهم[٣].

---

[1] مقدمة ابن خلدون ص ١٧٧.

[1] المحبر ص ١٥٠.

[2] المعارف لابن قتيبة (طبع جوتنجن) ص١٦٤ وانظر الأزرقي ٤٤١/١.

[3] المحبر ص ١٤٦ وما بعدها.

ولما صار الأمر إلى معاوية اهتم ببلدته القديمة، فأجرى فيها عشرة عيون، واتخذ فيها بساتين[٤]، وما زال الأمويون يعنون بها، فكانوا يستنبتون بها الأشجار ويحفرون الخزانات والآبار[٥]. وروى اليعقوبي أن سليمان بن عبد الملك أراد الحج فكتب إلى عامله خالد القسري والى مكة يأمره أن يجرى له عيناً من الماء العذب، فعمل خالد بركة في أصل "ثَبير " بحجارة منقوشة، واستنبط ماءها من ذلك الموضع، ثم شَقَّ من هذه البركة عيناً تجرى إلى المسجد الحرام في قصب من رصاص، حتى أظهرها في فوارة تسكب في فسقية رخام بين الركن وزمزم[٦].

وليس من شك في أن هذه مظاهر حضارة، ولعل من أهم مظاهرها حينئذ اتخاذ الدور والقصور وبناءها بالآجر والجص واتخاذ أبوابها من الساج. ولم يكن يبنيها العرب، وإنما كان يبنيها أجانب من الفرس والروم جلبوهم لهذا الغرض. وبنى معاوية لنفسه بمكة دوراً يقال لها الرقْط لاختلاف ألوانها، بناها فُرس من العراق بالجِص والآجر[١]، ويروى أنه اشترى من حويطِب بن عبد العزى داراً بأربعين ألف دينار[٢]. وباع آل عقبة بن الأزرق قسماً من دارهم قرب المسجد الحرام بثمانية عشر ألف دينار[٣]. واتسع بناء القصور في مكة في أثناء حكم ابن الزبير، فقد انجلبت إليها الأموال من العراق ومصر، ومن هذه الأموال بنى الكعبة[٤]. ويروى الأزرقى أن ابن عباس قال لابن صفوان صاحب ابن الزبير: هيهات هيهات! تركت والله سنة عمر.. قضى عمر أن أسفل الوادي وأعلاه مناخ للحجاج، وأن أجياداً وقُعيقعان للمريحين والذاهبين، واتخذتها وصاحبك دورا وقصوراً[٥].

ويظهر أنهم بالغوا في العناية ببناء هذه الدور والقصور حتى أصبحت تنافس دور دمشق وقصورها. روى الرواة أن معاوية حج ذات مرة فوقف أمام دار عبد الله بن الحارث جد

---

(4) الأزرقي ٤٤٣/١.

(5) انظر مكة في دائرة المعارف الإسلامية.

(6) اليعقوبي ٣٥١/٢.

(1) الأزرقي ٤٤٩/١ وانظر الأغاني طبع دار الكتب ٢٨١/٣.

(2) المعارف ص ١٥٩.

(3) الأزرقي ٤٥٩/١.

(4) الأخبار الطوال للدينورى ص ٢٨١.

(5) الأزرقي ٣٩٢/١.

الثريا صاحبة عمر بن أبى ربيعة يتعجب من حسن بنائها، فخرج إليه عبد الله يقول: لا أشبع الله بطنك! أما تكفيك الخلافة حتى تطلب هذه الدار[٦].

ولم يكن كل ما أصاب الناس في مكة من تغير تحت تأثير الحضارات الأجنبية التي أخذوا ينقلونها هناك هو بناء الدور والقصور فحسب، فقد أخذت معيشة القوم تتغير- ونقصد طريقة أكلهم وحياتهم- إذ دخل مكة كثير من الرقيق والجواري الفارسيات والروميات. دخلوا في عصر الخلفاء الراشدين مع الفاتحين الذين جلبوهم، وكان القواد أنفسهم يرسلون بهم، فقد أرسل معاوية- كما مر بنا في كتاب المدينة- إلى عمر بأربعة آلاف من سبى قيسارية، واستمرت هذه السيول الأجنبية فيما بعد، وساعد عليها ثراء الناس وأسواق الرقيق.

ولا ريب في أن هذا الرقيق الفارسي والرومي غير كثيراً في معيشة القوم إذ كانوا يقومون على خدمتهم وكانوا يعدون لهم حياتهم إعداداً وصور ذلك تصويراً دقيقاً ابن خلدون في النص الطويل الذي نقلناه عنه في الحديث عن الثراء والحضارة في المدينة.

والحق أن أهل مكة والعرب جميعا اقتحمتهم الحضارات- الأجنبية اقتحاما، وأخذت تغزوهم في عقْر دورهم وفى حياتهيم وطريقة معيشتهم، فإذا كانوا قد فتحوا فارس وبلاد الروم (مصر والشام) حربيا فإن هذه البلدان فتحتهم حضاريا. وأقبلوا على ذلك أول الأمر حذرين على نحو ما أقبل عمر في الأخذ بنظام الدواوين الفارسي، فاقتصر على ديوان العطاء[١]، ولكن لا نصل إلى معاوية حتى نجده يأخذ نظم الدواوين الفارسية كلها[٢]. وهذا ما نلاحظه في الحياة نفسها، فقد كان الصحابة إلى عصر عمر لا يتعمقون الحضارات الأجنبية ولا يأخذون إلا بظاهر منها، ولكنهم أخذوا يتعمقونها في أثناء عصر عثمان[٣]، كلما تقدموا في الزمن تقدم بهم التأثر بهذه الحضارات.

وساعد أهل مكة على الاستمرار في هذا التأثر ما ورثوه عن آبائهم في الجاهلية من أموال، وما جلبه لهم هؤلاء الآباء في الفتوح الإسلامية من ثروات، وكان ديوان العطاء الذي استحدثه عمر مدداً مستمراً طوال العصر الأموي لا ينقطع. ومن المعروف أن الأمويين كانوا

---

(6) أغاني طبع دار الكتب ٢١١/١.

(1) الوزراء الكتاب للجهشيارى طبع الحلبي ص ١٧.

(2) المصدر نفسه ص ٢٤.

(3) المسعودى ٢٥٣/٤.

يغدقون أموالهم على شباب مكة والمدينة ليلهوهم عن طلب الملك والخلافة[٤]. فكان لذلك كله أثره في استمرار. البذخ الذي عرفته مكة عقب الفتوح. يدلّ على ذلك من بعض الوجوه ما كانوا يتخذونه في الكسوة التي كانت توضع على الكعبة، ومعاوية هو أول من كسا الكعبة الديباج واشترى لها العبيد[٥]. ولما فرغ ابن الزبير من بنائها كساها القباطي، ومسح بالخَلُوق داخلها وخارجها، فكان أول من خَلَّقها[٦]. و بعث الوليد إلى خالد بن عبد الله القسري وهو على مكة بثلاثين ألف دينار، فضربت صفائح، وجعلت على باب الكعبة وعلى الأساطين التي داخلها وعلى الأركان والميزاب، فكان أول من ذهب البيت في الإسلام[١].

وهذه كلها صور من الحضارة التي أخذت تغزو مكة بل الكعبة نفسها، ولا ريب في أن البيوت خلف الكعبة كانت تأخذ بحظ بل بحظوظ مختلفة من هذه الحضارة.

(٦) ترف وبعض فنون اللهو

وهذا الثراء وتلك الحضارة سرعان ما تحولا إلى ضروب من الترف والنعم، وماذا ينقص أهل مكة لكي يترفوا؟ إن المال مِلْء حجورهم والجواري الفارسيات والروميات مِلء قصورهم. وليس من ريب في أن هؤلاء الجواري كن يفهمن الحياة في صورة أخرى غير الصورة العربية، وأنهن أخذن يدخلن هذه الصورة في دور مكة وقصورها، يساعدهن في ذلك الموالى والرقيق الذي حشد هناك من كل مكان.

وبون بعيد بين حياة المكيين في العصر الإسلامي وحياتهم في العصر الجاهلي، فقد كانت حياتهم حينذاك خشنة إلى حد ما، أما في هذا العصر فقد بذلوا حياة أخرى عرفوا فيها كل ضروب النعم والترف في المطعم والملبس وفنون الزينة المختلفة، إذ أتيح لهم أن يأخذوا بحظوظ وافرة في كل جانب من جوانب الحياة، فطعموا الألوان المختلفة المترفة من الطعام[٢]، وأكلوا وشربوا في أواني الذهب والفضة[٣]، ولبسوا السنْدس والديباج والإستَبرق ومقطَّعات

---

(4) انظر الفخري ص ١٢٧ وابن عبد ربه١/١٤٥.

(5) اليعقوبي ٢/٢٨٣.

(6) اليعقوبي ١/٣١١.

(1) اليعقوبي ١/٣٤٠.

(2) المستطرف للإبشيهى طبع المطبعة العثمانية بمصر ١/١٦٢.

(3) ابن عبد ربه ١/١١١ وابن سعد ٤/١٢٦.

الخَز[٤] والحرير والحلل الموشّاة[٥]، وحتى إبلهم كانوا يضعون فوقها القطوع والديباج[٦]، وكانوا يضعون في أعناق خيولهم أطواقا من الذهب[١]. ويروى صاحب الأغاني في أخبار الهذَلي أحد مغنيهم أنه كان إذا أمسى أشرف على المسجد وغنّى وهو في الجبل، فلا يلبث أن يرى الجبل! كقرص الخَبيص صفرة وحمرة من أردية قريش[٢]. وكان العرجِي الشعر يلبس الحلتين بخمسمائة دينار[٣] أو بنحو ثلثمائة جنيه.

وإذا كان الرجال يصنعون ذلك كله أو يغرقون في ذلك " كله، فإن النساء هن الأخريات غرقن في فنون الزينة المختلفة، سواء في ملابسهن أو في حليهن. وقد تفنَّن في اتخاذ الثياب الرقيقة و الشفافة[٤]، كما تفنن في اتخاذ الحلي والجواهر[٥]. ولمعت أسماء جماعة من الفتيات والسيدات على نحو ما تلمع أسماؤهن في البيئات المتحضرة من مثل السيدة عائشة بنت طلحة؟ وكانت تقيم في المدينة سنة وفى مكة أخرى، وكانت تصيف بالطائف[٦] وكان لها ماشطتها الخاصة[٧]التي تعنى بطيبها وعطرها[٨] وعلى مثالها كانت الثريا بنت على بن عبد الله[٩] بن الحارث بن أمية الأصغر، وكان أبوها من أثرياء مكة، وكان لها قصر عظيم[١٠]، وكانت مثل عائشة تصيف بالطائف[١١]، ويظهر أن دارها بمكة كانت تكتظ بالرقيق والجواري، فقد تخرج فيها اثنان من أشهر المغنين هما الغريض ويحيى قَيل، كما تخرجت

---

(4) أغاني طبع دار الكتب ٦٦/٥.

(5) أغاني طبع دار الكتب ٢٢١/١ وانظر ٢٧٨/١.

(6) المصدر نفسه ٢٢١/١.

(1) أغاني ٢٥٩/١.

(2) أغاني طبع دار الكتب ٦٥/٥ والخبيص: نوع من الحلواء يتخذ من التمر والسمن.

(3) أغاني طبع دار الكتب ٣٩٥/١ وفى حديث أبى بكر حين حضرته الوفاة: والله لتألمن النوم على الأذربئ كما يألم أحدكم النوم على حسك ا لسعدان.

(4) انظر ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٧٤، ٢١١، ٢٨٣ وانظر الأغاني ٤٠٤/١.

(5) ابن سعد ٣٤٣/٨ وأغانى ٢٧٣/٨ وانظر ٢٧٨/٨.

(6) أغاني طبع بولاق ٦١/١٠.

(7) أغاني ٦٠/١٠.

(8) أغاني ٥٤/١٠

(9) انظر في نسها الأغاني ٢١٠/١.

(10) أغاني ٢١١/١.

(11) أغاني ٢١٢/١.

فيها سمية المغنية[١٢]. وكانت الثر يا جميلة وكان فيها دلٌّ وإعجاب بنفسها[١٣] على عادة الفتيات والسيدات المترفات.

وليس بين أيدينا أخبار واضحة عن هؤلاء السيدات وما كن ينفقن في زينتهن، ولكن لابد أنهن كن يسرفن في ذلك، فالمال كثير وحوانيت العطر والطيب حولهن [١]، وكذلك حوانيت الثياب العدنية واليمنية[٢] والهروية[٣]. والمرأة من عادتها إن وجدت المال أنفقته على ملابسها وهيئتها وزينتها وعطرها.

ولعل أهم ما يلاحظ على هذه البيئة المترفة أن جمهرة من كانوا فيها من، شباب كانوا فارغين من عمل، فليس هناك ما يشغلهم، وخاصة أن بنى أمية انصرفوا عنهم بعد ثورتهم مع ابن الزبير، فلم يتخذوهم على الولايات، ومع ذلك لم يمنعوهم عطاء، بل كانوا يزيدون فيه من حين إلى حين، فهم أهلهم وعشيرتهم الأقربون. وورثوا عن آبائهم في الجاهلية والإسلام أموالاً ضخمة كما قدمنا، فكان ذلك كله سبباً في أن تتكون بمكة طبقة من الشباب المترف العاطل الذي نشيء في الحِلْية والزينة.

ومثل هذا الشباب في المدن المترفة إن لم يوجه لدراسات فكرية، تَوجه توا إلى اللهو وبعض الملاهي حتى يقطع وقته في المتعات الممكنة. وأهم متعة عنيت بها مكة في هذا العصر هي متعة الغناء، وسنعرض لها بالتفصيل في الفصل التالي. ومن أخبارهم في هذا الباب أنهم تعلقوا بلعب الشطرنج والنَّرد والقَرق أو ما يسمى في مصر بالسيجة[٤]. روى أبو الفرج أن "عبد الحكم الجمحي اتخذ بيتاً فيه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم، وجعل في الجدار أوتاداً، فمن جاء علّق ثيابه على وتد منها، ثم جر دفتراً فقرأه، أو بعض ما يلعب به، فلعب به مع بعضهم [٥] ".

---

[12] أغاني ٣٥٩/٢.

[13] أغاني ٢١٤/١ وما بعدها.

[1] أغاني ٣٩٩/٢ وانظر ٤٧/٣.

[2] أغاني ٣٦٨/٢ وانظر ٢٥٩/١.

[3] أغاني ٢٥٩/١.

[4] انظر لعب العرب لتيمور ص ٤٩.

[5] أغاني ٢٥٣/٤.

وعلى هذا النحو انتشرت بعض الملاهي في مكة، وانتشر معها المرح، وربما كان من أهم ما يصوره أن نبد لمكة في هذا العصر مضحكاً مشهوراً، كانوا يتخذونه للتندر والدعابة. وهذه عادة من عادات الجماعة حين تتمدين وتتحضر، فإنها تميل إلى الدعابة والنادرة، ويوجد لها من يضحكها وينشر في جوها المرح. ومضحك مكة حينئذ شاعر خفيف الروح يسمى الدارمي، ترجم له أبو الفرج ترجمة طريفة ذكر فيها مجموعة من نوادره، فمن ذلك أنه كان عند بعض الولاة يحدثه، فأغفى الوالي، فعطس الدارمي عطسة هائلة، ففزع الوالي فزعاً شديداً، ثم استوى جالساً وقال له: أتفزعني؟ قال: كلا ! ولكن هكذا عطاسي، فقال ائتني ببينة على ذلك. فخرج فأتاه برجل، فسأله الوالي: بم تشهد لهذا؟ قال: أشهد أنى رأيته مرة عطس عطسة، فسقط ضرسه، فأغرق الوالي في الضحك[١].

وكما كان الدارمى يضحك الأمراء والرجال في مكة، كان يضحك النساء، فكان لا يطيب لهن متنزه إلا به [٢]، وهو في ذلك يشبه أشعب مضحك المدينة. وطلبت منه جارية طيباً، وكان فيه بخل وحرص، فوعدها بإحضاره، ثم ثاب إلى رشده فقال:

أنا بالله ذي العزِ وبالركن وبالصخْره

من اللائي يردن الطيـ .ـب في اليسر وفى العسره

وما أقوى على هذا ولو كنتُ على البصره

وتصادف أن التقيا، فعاتبته إلى أن قالت له: يا دارمى أتحبني، فقال: نعم، أتحبينني؟ قالت: نعم. قال: فيا لك الخير! فأنت تحبيني وأنا أحبك فما مدخل الدراهم بيننا[٣]. وكانت له بديهة حاضرة، قال له محمد بن إبراهيم الإمام: لو صلحت عليك ثيابي لكسوتك، قال: فديتك! إن لم تصلح على ثيابك صلحت في دنانيرك[٤].

وهذا المجتمع المرح الضاحك الذي كان يأخذ بحظوظ من الفكاهة، كان يأخذ أيضاً بحظوظ من الحرية، وهي حرية ينبغي أن لا نسيء فهمها، فمن طبيعة المجتمعات المتحضرة أن يكثر فيها لقاء الرجال للنساء. وهذا ما نلاحظه في مكة في أثناء هذا العصر، فأبو الفرج يروى أن

---

(1) أ غانى ٣/٤٨.

(2) أغاني ٣/٤٧.

(3) أغاني ٣/٤٧.

(4) أغان ٣/٤٨.

عائشة بنت طلحة كانت تسفر ولا تستر وجهها من أحد [١]، وكذلك كانت عمره [٢] الجمحِية صاحبة أبى دهبل الشاعر المكي المعروف.

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم لقاء عمر بن أبى ربيعة بالثريا [٣] وبغيرها من شريفات [٤] مكة. وليس في هذا غرابة ما دام المجتمع كان يبيح اللقاء الشريف بين الرجال والنساء، كل ما في المسألة من غرابة أننا نأبى أن نقيس الماضي على الحاضر، وننظر إلى بعض جوانب الحياة في المدن القديمة نظرة ضيقة.

---

[1] أغاني ١٠/٥٤.

[2] أغاني طبع دار الكتب ٧/١٣٥.

[3] أغاني طبع دار الكتب ١/٢١٥ وما بعدها

[4] أغاني ١/٩١ وانظر أغاني ١/١٠٥.

الفصل الثاني

الغناء في مكة

فى العصر الجاهلي

من يعنى بدرس الحياة العربية في العصر الجاهلي يلاحظ كثرة النصوص التي تدل على انتشار الغناء وذيوعه في كل مكان من الجزيرة العربية. يقول المسعودى: " لم تكن أمة من الأم بعد فارس والروم أولَع بالملاهي والطرب من العرب [١] ". ويكاد الإنسان لا يقرأ ديوان شعر جاهلي لشاعر مهم إلا ويجد فيه ذكر الشراب والغناء [٢]، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون أشعارهم، وفى الأغاني أن المهلهل تغنى ببعض شعره [٣] وكذلك السلَيك-[٤] بن السلكة. ولعل مما يدل على ذلك أن نجدهم يعبرون عن إنشاد الشعر بالغناء والتغني. ففي حديث عمر بن الخطاب للنابغة الجعدي أنه قال له: " أسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك، يريد من شعرك[٥] ".

فالشعر والغناء كانا مرتبطين في العصر الجاهلي، وكانا يتخللان حياة العرب في سلمهم وحربهم. ومما يشهد لذلك من بعض الوجوه ما يقوله ابن رشيق من أن القبيلة من العرب كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك، وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس [٦] فالشاعر كان يستَقبل بالغناء، وأكبر الظن أنه كان يشارك فيه.

---

(1) المسعودى ٩٣/٨.

(2) نظر على سبيل المثال معلقة الأعشى ومعلقة طرفة وميمية علقمة بن عبدة الفحل ص ٤٣.

(3) أغاني طبع دار الكتب ٥١/٥.

(4)- أغاني طبع بولاق ١٨/ ١٣٤.

(5) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة الثامنة) ص ٤٣.

(6) ابن رشيق ٣٧/١ وانظر المزهر طبع بولاق ٢٣٦/٢.

ولم تكن مكة شاذة على هذا الذوق العام عند العرب، بل لعلها كانت مبرزة في هذا الجانب بحكم ما فيها من مال وثراء. وكان بجوارها سوق عكاظ، وفيها كانت تلقى قصائد الشعر الكبيرة المسماة بالمطولات أو المعلقات. ومن يدرى لعلها كانت تغنَّى[١] أيضاً، إذ كانت أسواق العرب مجتمع الشعراء والمغنين والمغنيات [٢]

وكانت مكة من جهة أخرى مركز الوثنية الجاهلية، ولا بد أنهم كانوا يرتّلون وينشدون بعض الأناشيد في أثناء حجهم وإفاضتهم. ومما يروى أنهم كانوا يرتّلون" أشرق ثَبير كيما نُغير[٣] ". وفى القرآن الكريم: (وما كَان صلاَتُهم عِنْد البيتِ إلاَّ مكاء وتَصدِيةً). والمكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق. وفى المحبر لابن حبيب صور لتلبياتهم وتهليلاتهم في الجاهلية[٤]. ويقول المسعودى: " لم تكن قريش تعرف من الغناء إلا النَّصب [٥] ". وربما كان في اشتقاق هذه الكلمة ما يدل على أن هذا ضرب من النشيد الديني حول الأوثان، وفى الحديث: "كلهم كان ينْصِب "أي يغنى غناء النَّصب[٦].

وفى هذا العمر لم تكن فكرة الحريم قد ظهرت، فكان النساء يتمتعن بما يتمتع به الرجال، كن يشتركن في الغناء على شكل جوقات وخاصة في الأعراس إذكن يعزفن على الدفوف والمزامير [٧]، وفى الحروب إذكن ينشدن أناشيد حربية لتحميس الجيش. ومما يروى في هذا الصدد أن هندا بنت عتبة وجماعة من نساء قريش كن يضربن على الدفوف في غزوة أحد، وكانت هند تنشد الشعر، كن يرددن عليها[٨]. وكان من الفنون الخاصة بالنساء في الجاهلية واشتهرت فيها هند بنت عتبة النواح وندب الموتى[٩].

وبجانب هند وصواحبها القرشيات نجد أحاديث كثيرة عن القيان في مكة،ويتعمق ذكرهن في تاريخها القديم، حتى ليزعم الرواة أن عاداً وفّدت في أيام العماليق وفداً يستقى لها من مكة،

---

[1] دائرة المعارف الإسلامية ٤٠٣/١.

[2] طبري ١٣٠٧/١.

[3] دائرة المعارف الإسلامية ٢٠٠/٢.

[4] المحبرص٣١١.

[5] مسعودى ٩٣/٨.

[6] انظر مادة نصب في لسان العرب.

[7] الطبري ١١٢٦/١.

[8] الطبري ١٤٠٠/١.

[9] أغاني طبع دار الكتب ٢١٠/٤. وانظر أيضاً أغاني طبع بولاق ٨٨/١٩ وما بعدها والمفضليات ص ٢١٥.

فلما وصل الوفد إلى مكة أقبل على الشراب واللهو والسماع إلى غناء الجرادتين، وكانتا قينتين لمعاوية بن بكر، [١] وكان عند عبد الله بن جدعان قبيل الإسلام قينتان سماهما الجرادتين، وكانتا تغنّيان الناس، وقد وهبهما لأمية ابن أبى الصلت الثقفى، وكان امتدحه[٢]. وفىالأغاني أن أبا سفيان " نصح قريشا أن ترجع في غزوة بدر، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرى بدراً، فنقيم عليه ثلاثاً وننحر الجزر ونطعم الطعام ونُسقَى الخمور، وتعزفَ علينا القيان، وتسمع بنا العرب [٣]".

وكل هذه النصوص تدل على أن القيان كن كثيرات في مكة في أثناء العصر الجاهلي. ويروى الزمخشري في الكشاف أن النضر بن الحارث كان يشترى المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: " أطعميه واسقيه وغنيه، ويقول هذا خير مما يدعوك إليه محمد [٤] ".

وهنا يختلف الباحثون فيقول ليال- كما مر بنا في كتاب المدينة- إذ هؤلاء القَينات كن إما فارسيات وإما يونانيات من سوريا، كن يتغنين أشعاراً عربية ولكن بألحان أجنبية، ويزعم فون كريمر- كما أسلفنا- أن هؤلاء القيان كن يغنين بلسانهن الفارسي أو اليوناني، ولعله ذهب هذا المذهب لقول حسان بن ثابت إنه رأى عند جبلة بن الأيهم " عشر قيان: خمساً روميات يغنين بالرومية بالبرابط، وخمساً يغنين غناء أهل الحيرة [٥]". ولكن هذا إن صدق في بلاط جبلة فإنه لا يصدق على مكة وغيرها من قرى الجزيرة وبواديها، بل إن الأخبار كلها التي تدور حول هؤلاء القيان تدل على أنهن كن يتغنين باللسان العربي، وقد غنت إحداهن - كما مر بنا- شعر للنابغة فيه إقواء، ودلّته بصوتها على موضعه. وكانت جرادتا عبد الله بن جدعان تغنيانه بشعر أمية بن أبى الصلت فيه[٦].

ومهما يكن فقد كان الغناء منتشرا في مكة في أثناء العصر الجاهلي، وكان يشترك فيه نساء قريش وهذه العناصر الأجنبية من القيان. ويظهر أن الرجال كانوا يشتركون فيه أيضاً،

---

(1) الطبري ٢٣٣/١ والمسعودى ٢٩٦/٣ حيث يزعم أن اسم إحداهما ثماد والثانية قعاد.

(2) أغاني طبع دار الكتب ٣٢٧/٨.

(3) أغاني ١٨٣/٤، وانظر الطبري١٣٠٧/١.

(4) انظر تفسير الكشاف في سورة لقمان وتعليقه على الآية الكريمة: "ومن الناس من يشترى . لهو الحديث".

(5) أغاني طبع بولاق ١٥/١٦.

(6) أغاني طبع دار الكتب ٣٢٨/٨ وما بعدها.

فحسان بن ثابت يروى أنه كان يفد على جبلة بن الأيهم من يغنيه من مكة [١]، ويروى المسعودى أن النضر بن الحارث قدم العراق فتعلم ضرب العود والغناء عليه، ثم قدم مكة فعلم أهلها فاتخذوا القينات [٢] واتخاذ القينات هنا معناه المبالغة فيه.

ونرى من ذلك كله أن موجة حادة من الغناء اكتسحت مكة في العصر الجاهلي، حتى بلغ من بعض القوم هناك أن يرتحل إلى العراق فيطلب تعلم الغناء ثم يعود فيعلمه قومه. وهذا دليل نهضته، وإن كنا لا نستطيع أن نتحقق منها، إذ ليست عندنا صور من غناء القوم، تدل على مدى ما اتخذوه من رسوم في غنائهم.

على أنا نميل إلى أن الغناء بمكة في هذا العصر الجاهلي لم تُرسم له قواعد، إنما كان المغنون والمغنيات والقيان، كل يغنى حسب ذوقه وميوله وعواطفه، إذ كان العرب لا يزالون أقرب إلى الفطرة في كل فنونهم.

(٢) في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

لا تكاد الحوادث والشخصيات تتضح في مكة في أثناء عصر الرسول والخلفاء الراشدين، ومن أجل ذلك تقل لنصوص عن حركة الغناء حينئذ. غير أن المعقول أن أدواته ومعازفه لم تحطم بعد الفتح لسبب بسيط، وهو أن الإسلام لم يحرم الغناء، فلم يرد في القرآن الكريم نص صريح ضده. وذهب بعض المفسرين [٣]إلى أن قوله تعالى في سورة فاطر: (يزِيد فِي الْخَلْقِ ما يشَاء)، إنما يشير إلى الصوت الحسن، وفى سورة لقمان: (إِن أَنْكَر الأَصواتِ لَصوتُ الْحمِيرِ).

وإذا تركنا القرآن الكريم إلى الحديث الشريف وجدنا الغزالي كما مر بنا في حديثنا عن الغناء في المدينة لعصر الرسول والخلفاء الراشدين يعقد فصلاً طويلاً في إحيائه للسماع والغناء، وقد برهن بأحاديث كثيرة على إباحته، وقال إنه لا يدعو إلى تحريمه نص ولا قياس

وأكبر الظن أن الغناء ظل بمكة في أثناء عصر الرسول واستمر ونما في عصر الخلفاء الراشدين، فقد أقبلت أسلاب الفتوح الإسلامية ومغانمها على الحجاز في عهد أبى بكر وعمر،

---

[1] أغاني ١٥/١٦.

[2] المسعودى ٩٣/٨.

[3] انظر تفسير البيضاوى للآية الكريمة.

وأقبل معها كثير من الرقيق الأجنبي. ولا نصل إلى عصر عثمان حتى نشعر أن حياة العرب على وشك التحول إلى الترف وما يتبع الترف من لهو وملاه ، فقد فُتحت البلدان، ومصرت الأمصار، وعاد كثير إلى ديارهم في الحجاز: مكة وغيرها، ولم يعودوا فارعين، وإنما عادوا حجورهم مملؤة بالمال، فبنوا القصور على مثال ما رأوا في الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، وحشدوا فيها الأسرى من فرس وروم، وأخذوا يستبدلون بحياتهم القديمة حياة جديدة، فيها تأثر واضح بألوان الحضارة الأجنبية، كما أخذوا ينمون الفن القديم في بيئتهم، فن الغناء، وكان محمير منهم يجلب معه بعض المغنين أو بعض المغنيات، ومن طريف ما يروى أن عبد الله بن عامر والى البصرة لعثمان اشترى جوقة من الإماء الصنَّاجات [1]

وكما قدمنا ليست حوادث مكة وشخصياتها واضحة في هذا العصر، عصر الرسول والخلفاء الراشدين، ولذلك لا تتضح لنا في سهولة حركة الغناء فيها حينئذ وما نالته من رقى وحظيت به من تقدم تحت تأثير العناصر الأجنبية الجديدة المجلوبة من الفتوحات، إذ تختفي ظروف الحياة وشخصياتها في هذه الحقبة بمكة وراء ظروف الحياة وشخصياتها في المدينة العاصمة. غير أن ما كثر في المدينة حينئذ من مغنين ومغنيات جلبوا من ا الخارج يدل على أن مكة هي الأخرى شاركتها في هذا الجانب، وخاصة منذ عصر عثمان، إذ أخذ المسلمون يخطون خطوات واسعة نحو الترف والمتاع ببعض الملاهي.

(٣) في العصر الأموي

لعنا لا نغلو إذا قلنا إن الغناء كان أهم شيء في الحياة بمكة وغيرها من مدن الحجاز في أثناء العصر الأموي، فقد أقبل الناس عليه إقبالاً شديداً ويخيل إلى الإنسان أن أيام الناس ولياليهم كلها أصبحت غناء، في كل مكان وفى كل زمان لا نسمع إلا أحاديث الغناء والمغنين.

ويزعم المسعودى أن الغناء لم ينْم في مكة والمدينة إلا منذ عصر يزيد بن معاوية[2] وهذا غير صحيح إلا إذا سلمنا بان يزيد هو الذي أشاع الغناء هناك، وقد رأينا الغناء منذ العصر الجاهلي، ووجدناه مستمرا في عصر الرسول والخلفاء الراشدين. والصحيح أن الغناء أخذ في النمو بمكة والمدينة جميعاً تحت تأثير العناصر الأجنبية التي جلبها الفاتحون هناك، منذ عصر

---

[1] أغاني طبع دار الكتب ٣٢١/٨.

[2] المسعودى ١٥٧/٥.

عثمان. ويؤكد ذلك أننا لا نصل إلى مفتتح العصر الأموي حتى نجد مغنين مشهورين، يتقنون الغناء على أصول نظرية عربية حديثة، وهي نظرية لم تتم فجأة، بل أخذ تكونها مدة طويلة من الزمن. ولذلك كنا نظن ظناً أن الغناء بدأ في النمو منذ عصر عثمان، لا عصر يزيد ابن معاوية كما يقول المسعودى.

ونحن لا نكاد نتقدم في العصر الأموي حتى نجد لمكة مغنين مشهورين من مثل ابن مِسجح وابن محرز وابن سريج والغَريض ويحيى قَيل والأبجر، وغيرهم كثير. ومن يقرأ في الأغاني لأبى الفرج لا يزال يجد من حين لآخر اسم مغَن مكي أو مغنية مكية من مثل بغوم وأسماء وكانتا أَمتين عند عمر بن أبى ربيعة [٢]، ومثل سمية وكانت أمة في دار، الثريا بنت على الأموية [٣] ومكة لا تشتهر هذا العصر بدور كبيرة للمغنيات مثل دار عزة الميلاء في المدينة، وكذلك دار جميلة التي خرجت كثيرات من المغنيات. وينبغي أن نلاحظ أن أكثر المغنيات اللائى اشتهرن في دار- جميلة كن يزرن مكة وخاصة في مواسم حجها، وذهبت جميلة في أحد المواسم- كما مر بنا في حديثنا عن المدينة وأنها أهم مراكز الغناء في العصر الأموي- وكان معها الفَرِهة وعزة الميلاء وحبابة وسلاَّمة وخُليدة وعقيلة والشماسية وفَرعه وبلبلة ولدَّة العيش وسعيدة والزرقاء، ثم خمسون قينة لأهل المدينة خرجن معها لكي يأخذن عنها بعض الغناء.

وقد يكون من المبالغة أن نفصل في هذا العصر بين المغنين والمغنيات في مكة والمدينة، فدائماً كان هناك اتصال، ودائماً كان مغنى مكة يذهب إلى المدينة، ومغنى المدينة يذهب إلى مكة. فطُويس وسائب خاثر ومعبد وابن عائشة ومالك الطائي وعطرد، كل هؤلاء كانوا يزورون مكة ويغنون فيها، وكذلك كان يزور المدينة ويغنى فيها ابن مِسجح وابن محرز وابن سريج والغريض والأبجر ويحيى قَيل، وغيرهم. ولم يكن هذا شأن المغنين وحدهم، فقد كان أيضاً شأن المغنيات بل كان شأن الناس أنفسهم، فكل شاعر مكي مشهور نجد في أخباره أنه زار المدينة، كل شاعر مشهور في المدينة نجد كذلك في أخباره أنه زار مكة. ويخيل إلى الإنسان كأنما كانت إحدى البلدتين ضاحية للأخرى، أو كأنما كانت بينهما مرحلة واحدة. وكان هذا سبباً في اختلاط النصوص على بعض الباحثين، فلم يكادوا يميزون في شاعر مثل عمر

---

[2] أغاني طبع دار الكتب ١٦٥/١.

[3] أغاني ٣٥٩/٢.

بن أبى ربيعة بلدته التي كان يعيش فيها أهي مكة أو المدينة لكثرة أخباره في البلدتين جميعاً. ومن الطُّرف التي تصور ذلك من بعض الوجوه أن نجد سلاَّمة المغنية المشهورة التي خرجتها جميلة، والتي ابتاعها يزيد بن عبد الملك ""بعشرين ألف دينار لا يشتهر بها وبحبها أَحد سكان المدينة، وإنما يشتهر بذلك. أحد قُراء مكة ويسمى عبد الرحمن بن أبي عمار الجشَمِي، وكان يلقب بالقس لعبادته، سمعها في المدينة، وربما في مكة، فتعلق بها وشُغف حباً، وراح ينظم- كما مر بنا- فيها أشعاره.

ولا يستطيع أن يفهم مدى ما كان من نهضة في الغناء واتساع به في مكة والمدينة جميعا إلا من يرجع إلى كتاب الأغاني ويقرأ فيه أخبار المغنين والمغنيات هناك ومواكبهم وفى ودورهم ونواديهم. ومن الدور والنوادي الشهيرة في مكة دار كانت ببعض أطرافها، وكان يأتيها ابن سريج والغريض في كل جمعة، ويجتمع لهما ناس كثير من مكة، ويوضع لكل منهما كرسي يجلس عليه، ثم يغنى كل منهما صوتاً، أو كما نقول الآن دوراً[١]. وكانت كل دار لمغن تعد ناديا من نوادي الغناء، فهو يستقبل فيها من يريدون سماعه [٢]، وكذلك كانت بعض دور الأشراف والشريفات تعد كأنها نواد، كدار ابن أبى ربيعة الذي كان يلزمه المغنون وعلى رأسهم ابن سريج وكان هو نفسه يشترى القيان والإماء المغنيات، ومثل دار الثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث الأموية، وقد تخرج فيها الغريض ويحيى قَيل وسمية[٣]؟ وكان المغنون يقصدون إلى بعض دور الأشراف فيغنونهم، كما كانوا يقصدون إلى بعض نواديهم، وكانوا يظهرون في الأعراس وفى حفلات الختان[٤]. وكانوا يكثرون من الوقوف في طريق الحاج [٥] وعلى أبي قُبيس [٦] وأخشَب [٧] مِنى وعند بستان [٨] ابن عامر، فيركب الحاج

---

(1) أغاني طبع دار الكتب ٢٧٦/١.

(2) أغاني ٣٦٨/٢.

(3) أغاني ٣٥٩/٢.

(4) أغاني ٢٧٨/١.

(5) أغاني ٢٥٩/١.

(6) أغاني ٣٦٢/٢.

(7) أغاني ٢٩٣/١ وأخشب منى إما أبو قبيس أو قعيقعان أو الجبل الأحمر المشرف هناك.

(8) أغاني ٣١٦/١.

بعضهم بعضاً، ويحبسون عن مناسك الحج ومشاعره، وكانوا يقفون أحيانا بين المأزمِين[٩] وعلى كَثَب من التنعيم. [١٠]وكانت تضطرب المحامل وتمد الإبل أعناقها.

واندفع الناس في مكة يعجبون بهذا الغناء، معهم الفقهاء، وعلى رأسهم عطاء بن أبى رباح تلميذ ابن عباس، ويروي الرواة أنه خَتن ابنه واستدعى في ختانه الغَرِيض وابن سريج[١١]، كما يروون أنه لقى ابن سريج بذي طُوى فأسمعه صوتا، فلما سمعة " اضطرب اضطراباً شديداً ودخلته أريحية، فحلف ألا يكلم أحدا بقية يومه إلا بالشعر الذي غنَّى فيه ابن سر يج، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام، فكان كل من يأتيه سائلا عن حلال أو حرام أو خبر من الأخبار لا يجيبه إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى وينشد هذا الشعر حتى صلَّى المغرب[١] ". ومثل عطاء في الإعجاب بهذا الغناء واستراحه ابن جريج، قال داود المكي: "كنا فئ حلقة ابن جريج وهو يحدثنا وعنده جماعة فيهم عبد الله بن المبارك وعدة من العراقيين إذ مر به ابن تَيزن المغنى وقد ائتزر بِمئْزر على صدره، وهي إزرةُ الشطَّار عندنا، فدعاه ابن جريج فقال له: أحب أن تسمعني، قال: إنى مستعجل، فأ لح عليه، فقال له: امرأتى طالق إن غنيتك أكثر من ثلاثة أصوات، فقال له: ويحك! ما أعجلك إلى اليمن! غنى الصوت الذي غناه ابن سريج في اليوم الثاني من أيام منى على جمرة العقبة، فغنى، فقطَع طريق الذاهب وإلجائي حتى انكسرت المحامل، فغناه: [عوجي علي فسلّمى جبر] فقال له ابن جريج: أحسنت والله! ثلاث مرات، ويحك! أَعِده، قال، من الثلاثة فإني قد حلفت، قال: أعده فأعاده، فقال: أحسنت، فأعده من الثلاثة، فأعاده وقام ومضى... والتفت ابن جريج إلى أصحابه، فقال: لعلكم أنكرتم ما فعلت؟ فقالوا إننا لننكره عندنا بالعراق ونكرهه، قال: فما تقولون في الرجز يعنى الحداء؟ قالوا: لا بأس به عندنا، قال: فما الفرق بينه وبين الغناء[٢]؟ ". والفرق في الواقع كان فرق ذوق، إذ كان أهل العراق في هذا العصر ينبذون الغناء ويطرحونه [٣]، ولم يعرف

---

[9] أغاني ٣٤٥/٣ والمأزمان: مضيقا جبلين بمكة.

[10] أغاني ٣٤٦/٣ والتنعيم: موضع على فرسخين، من مكة.

[11] أغاني ٢٧٨/٢، أنظر ٣٤٨/٢.

[1] أغاني ٢٥٧/١.

[2] أغاني ٤٠٨/١.

[3] ابن عبد ربه ٢٣٢/٣.

لهم مغن مشهور في العصر الأموي سوى حنَين[٤]، وكان ذوقه محافظاً، فكان لا يغنِّى إلا النَّصب [٥]

وكما كان فقهاء مكة يعجبون بالغناء كان يعجب به كذلك قضاتها وعلى رأسهم الأوقص المخزومي، ويظهر أنه التحق بدور المغنين في أول حياته، فقد حكى عن أمه أنها قالت اه: " إنك خلقت في صورة لا تصلح معها لمجامعة الفتيان في بيوت القيان، فعليك بالدين فإن الله يرفع به الخسيسة، ويتم به النقيصة [٦] ". فكان ذلك سبب انصرافه عن الغناء. ويقول أبو الفرج: "ولِي قضاء مكة الأوقص المخزومي فما رأى الناس مثله في عفافه ونبله، فإنه لنائم في جناح له إذ مر به سكران يتغنى [عوجى علينا ربة الهودج] فأشرف عليه فقال: يا هذا شربت حراماً! وأيقظت نياماً وغنيت خطأ! خذه عنى! فأصلحه له، وانصرف[١].

ولعل في هذا ما يدل على أنه لم يبق أحد في مكة إلا وكان يعجب بالغناء، وأخذ هذا الإعجاب يتزايد مع مر الزمن، إذ كان المغنون أو قل كانت جمهرتهم في أول الأمر من فئة المخنَّثين، وهي فئة كانت تخضب أيديها وتلبس ملابس النساء [٢] وشدد نافع بن علقمة والى مكة لعبد الملك وابنه الوليد في طلب هؤلاء المخنَّثين[٣]. غير أنا لا نمضي في العصر الأموي حتى نجد هذه الفئة تضعف تدريجاً، وحتى نجد الغناء يصبح عملاً ممتازاً وحتى نرى بعض العرب يشتركون فيه بجانب الموالى الذين استبدوا به في أول الأمر.

ولسنا ندرى أكان للمغنين بمكة في هذا العصر ما يشبه النقابة أولا؟ ولكن على كل حال كانت بينهم زمالة يحترمونها وأخذوا ينشرون في جو مكة المرح والدعابة. روى أبو الفرج أن ابن أبى عتيق خرج على نجيب له من المدينة حمله من طُرف المشارب[٤]وغير ذلك، فلقى فتى من بنى مخزوم مقبلاً من بعض ضياعه، فقال: يا ابن أخي أتصحبني؟ قال: نعم، قال المخزومي: فمضينا حتى إذا اقتر بنا من مكة جنَبنَا عنها حتى جزناها، فصرنا إلى قصر،

---

(4) أغاني ٣٤١/٢

(5) أغاني ٣٥٢/٢.

(6) ابن عبد ربه ٢٣٤/٣.

(1) أغاني ٣٦٧/٢.

(2) انظر أغاني ٢٤٩/١ وكذلك ص ٢٥٢، ٢٥٦ وانظر أغاني ٣٦٠/٢ وكذلك ٣٦٨/٢ وكذلك أغاني ٢٧٣/٤.

(3) أغاني طبع بولاق ٢٠/١١.

(4) المشارب: ما يشرب فيه من آنية.

فاستأذن ابن أبى عتيق، !أذن له، فدخلناه، فإذا رجل جالس كأنه عجوز بربرية مختضبة، لا أشك في ذلك، وإذا هو الغريض وقد كبر، فقال له ابن أبى عتيق تشوقنا اليك، وأهدى له ما كان معه، ثم قال له: نُحب أن نسمع، قال: ادع فلانة- جارية له- فجاءت فغنت، فقال ما صنعتِ شيئاً، ثم حلّ خضابه وغنّى "عوجي علينا ربةَ الهودج " فما سمعت أحسن منه قط، فأقمنا عنده أياماً كثيرة، وخبازه قائم وطعامه كثير. ثم قال له ابن أبى عتيق إني أريد الشخوص، فلم يبق بمكة تحفة عدني ولا يمانٍ ولا عود إلا حمله على راحلته، فلما ارتحلنا وبرزنا صاح به الغريض، فرجعنا إليه، فقال: ألم تزووا أنه " يحشر من بقيعنا هذا سبعون ألفاً على صورة القمر ليلة البدر "؟ فقال له ابن أبى عتيق: بلى، فقال: هذه سن لي انتزعت، فأحب أن تدفنها، بالبقيع، فخرجنا والله أخسر اثنين لم نعتمر ولم ندخل مكة، حامليين سِن الغريض حتى دفناها بالبقيع [1] وعلى هذا النحو كان الغناء يشيع في مكة في أثناء العصر الأموي جوا، كله مرح ودعابة.

(٤) الغناء المتقن

ليس كل ما يلاَحظ على الغناء لهذا العصر كثرة العاملين فيه من الموالى، فنحن نلاحظ أنه ارتقى ضروبا من الرقى، بل لقد استطاع المغنون أن يحدثوا نظرية الغناء العربي المعروفة التي نقرؤها في كتاب الأغاني. وبذلك أصبح- كما مر بنا في حديثنا عن الغناء بالمدينة- ستة ضروب وهي: ثقيل أول، وثقيل ثان، وخفيف الثقيل، ورمل، وخفيف الرمل، وهزج. ومرجع هذه الضروب إلى نوع النقرات فقد تكون ثقيلة، وقد تكون خفيفة، وقد تكون مزيجاً من الثقل والخفة. وميزوا بجانب ذلك مجرى الصوت بحسب الأصابع، فقالوا ثقيل أول بالبنصر، أو من خفيف الثقيل الأولي بإطلاق الوتر في مجرى البنصر، أو يقولون رملٌ بالسبابة في مجرى البنصر، ونحو ذلك مما يزخر به كتاب الأغاني.

وكان للمغنين في مكة أثر بعيد في نشوء هذه النظرية الغنائية. يقول ابن رشيق وقد عرض للغناء عند العرب في الجاهلية والإسلام: " وغناء العرب قديماً على ثلاثة أوجه: النَّصب والسناد والهزج... حتى جاء الله بالإسلام، وفتحت العراق، وجلب الغناء والرقيق من فارس والروم، وتغنوا الغناء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير

---

[1] أغاني ٣٦٨/٢.

والمعازف والمزامير [١]. وابن رشيق يريد أن يقول: إن النظرية الغنائية عند العرب حدثت تحت تأثير الموالى الذين جلبوا من الخارج، وأتوا معهم بالغناء المجزأ الفارسي والرومي. ويقول أبو الفرج في ترجمة ابن مِسجح شيخ المغنين في مكة وأستاذهم: "أول من نقل الغناء الفارسي من الفارسي إلى الغناء العربي سعيد بن مِسجح مولى بنى مخزوم. وذلك أن معاوية بن أبى سفيان لما بنى دوره التي يقال لها الرقْط حمل لها بنَّائين فرساً من العراق فكانوا يبنونها بالجِص والآجر، وكان سعيد بن مِسجح يأتيهم، فيسمع من غنائهم على بنْيانهم، فما استحسن من ألحانهم أخذه ونقله إلى الشعر العربي، ثم صاغ على نحو ذلك [٢]" وقال أبو الفرج في موضع آخر: " إن أول من غنى هذا الغناء العربي (يقصد الغناء المتقن) بمكة ابن مِسجح، مولى بنى مخزوم، وذلك أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام، فسمع غناءهم بالفارسية، فقلبه في شعر عربي وهو الذي علَّم ابن سريج والغَرِيض[٣] وقال أبو الفرج أيضاً: "سعيد بنِ مِسجح مكي أسود مغن متقدم من فحول المغنين وأكابرهم، وأول من صنع الغناء منهم، ونقل غناء الفرس إلى غناء العرب، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبربطِية والأسطوخوسية، وانقلب إلى فارس، فأخذ بها غناء كثيراً، وتعلم الضرب، ثم قدم إلى الحجاز، وقد أخذ محاسن تلك النغم، وألقى منها ما استقبحه من النبرات والنغم التي هي موجودة في نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب، وغنى على هذا المذهب، فكان أول من أثبت ذلك ولحنه، وتبعه الناس بعد[٤]"

وهذه نصوص صريحة في أن الغناء المتقن الذي ظهر في العصر الأموي لم يتم له هذا التحول بمؤثرات عربية خالصة، وإنما تم له بمؤثرات أجنبية، فهذا ابن مِسجح أستاذ المغنين في مكة يأخذ عن الغناء الفارسي الذي كان يغنيه البناءون الذين جلبهم معاوية لبناء دوره والآخرون الذين جلبهم ابن الزبير لبناء الكعبة. ولا يكتفي بذلك، بل نراه يرحل إلى الشام ليتتلمذ على المغنين هناك ويأخذ عنهم ألحانهم وإيقاعاتهم، كما يرحل إلى بلاد فارس فيتتلمذ هناك أيضاً على المغنيين ويتعلم الضرب والإيقاع على الأدوات الموسيقية المختلفة. ثم يعود إلى مكة، فينهض بالغناء العربي نهضة واسعة، يخرجه من دور البساطة القديم إلى دور جديد

---

[1] ابن رشيق ٢/٢٤١.

[2] أغاني ٣/٢٨١.

[3] أغاني ٣/٢٧٦.

[4] أغاني ٣/٢٧٦.

هو دور الغناء المتقن. ويظهر أن مغنين مختلفين ارتحلوا، مثل ابن مِسجح، إلى بلاد الروم وفارس في طلب الغناء الأجنبي، فقد روى أبو الفرج في ترجمة ابن محرز أنه "كان يسكن المدينة مرة ومكة مرة، فإذا أتى المدينة أقام بها ثلاثة اشهر يتعلم الضرب من عزة الميلاء، ثم يرجع إلى مكة فيقيم بها ثلاثة أشهر، ثم شخص إلى فارس فتعلم ألحان الفرس وأخذ غناءهم، ثم صار إلى الشام فتعلم ألحان الروم وأخذ غناءهم. فأسقط من ذلك ما لا يستحسن من نغم الفريقين، وأخذ محاسنها، فمزج بعضها ببعض، وألّف منها الأغاني التي صنعها في أشعار العرب، فأتى بما لم يسمع مثله، وكان يقال له ضناج العرب [١] ".

وأظن في هذا كله ما يدل دلالة قاطعة على أن الغناء المتقن إنما تم تحت تأثيرات أجنبية. وينبغي أن لا نبالغ في ذلك، فإن ابن مِسجح وابن محرز، ومن لفَّ لَفَّهما من المغنين لم ينقلوا نقلاً النظريات الغنائية عند الأمم الأجنبية وإنما نقلوا بعض ألحان وبعض إيقاعات. وهذا هو معنى قول أبى الفرج عن ابن مِسجح: إنه ألقى ما استقبحه من النبرات والنغمات الفارسية والرومية مما يعد خارجاً عن غناء العرب، وكذلك قوله في ابن محرز: إنه أسقط ما لا يستحسن من نغم الفرس والروم.

ومعنى ذلك أننا نزعم أن ابن مِسجح وابن محرز في مكة استطاعا أن ينفذا مع زملائهما من المغنين في المدينة إلى نظرية جديدة هي من تأليفهم جميعاً، وهي تلك النظرية التي أشرنا إليها آنفاً والتي تحكمت في تاريخ الغناء العربي على مر العصور.، إذ نجد كتاب الأغاني يطفح بكلمات ثقيل أول وثقيل ثان وخفيف الرمل وهلم جرا. وهذا هو معنى قول أبى الفرج إن ابن مِسجح أول من غنَّى على المذهب، يريد مذهب هذه النقرات، أو نظرية هذه النقرات التي سجلها في كتابه، وما يطوى فيها من أصابع.

وإذن فنظرية الغناء العربي التي نقرؤها في الأغاني ليست أجنبية ولا مجلوبة من الخارج، إنما هي عربية صنعت في الحجاز- كما مر بنا في كتاب المدينة-، صنعها هؤلاء الموالى تحت تأثيرات أجنبية، ولم ينقلوها نقلاً من لدن الأجانب. ولعل من أهم ما يدل على ذلك أن الأسماء التي تشيع فيها من رمل وهزج وثقيل وسبابة وبنصر وخنصر ونحو ذلك عربية. والذين استحدثوها على الرغم من أنهم من الموالى ولدوا ونشأوا في جزيرة العرب، وغَنُّوا

---

[1] أغاني ٣٧٨/١.

أولاً بالغناء العربي، ثم تأثروا بالغناء الأجنبي: الفارسي أو الرومي. أما ما يقوله ابن خُرداذَبه من أن العرب نقلوا الإيقاع في غنائهم من الفرس نقلاً [١]فليس عليه دليل، وخاصة إذا لاحظنا أن الفرس لم يكونوا يعرفون نظرية الوزن في الشعر، فقد نقلوها هم عن العرب. ويقول صاحب الأغاني في أول كتابه: " إنه سيذكر اللحن وعروضه، فإن معرفة أعاريض الشعر توصل إلى معرفة تجزئته وقسمة ألحانه [٢] " وفى هذا ما يدل على أن نظرية الغناء التي استحدثها المغنون في مكة والمدينة لهذا العصر أُسست إلى حد ما على عروض الشعر العربي نفسه، وهذه العروض لم تنقل من الخارج. وقد كتب أبو العلاء فصلاً طريفاً عن الألحان في الغناء تحدث فيه عن ضروب الإيقاع السابقة التي عيناها وهي: الثقيل الأول والثقيل الثاني وخفيف الثقيل والرمل والهزج، وضبط الثقيل الأول بثلاث نقرات متساويات الأوزان، وقاسه على مثال مفعولن،. في حين قاس الثقيل الثاني على مثال مفعولان، وقاس خفيف الثقيل على مثال مفعولان أيضاً ولكن بسكون النون، أما الرمل فقاسه على مثال لان مفعول أو كما يقول العروضيون فاعلاتن، وأما الهزج فقاسه على مثال قال لي أو كما يقول العرضيون فاعلن [٣].

ويوضح هذا الفصل الصلة بين عروض الشعر العربي والغناء الجديد الذي استحدثه المغنون في مكة والمدينة والذي كان يوقع على هدا الشعر. ولعل في ذلك ما يدل دلالة قاطعة على أن نظرية الغناء الجديدة في مكة لم تنقل نقلاً من لدن الأجانب، وليس معنى ذلك أننا ننكر التأثير الأجنبي، فالتأثير شيء والنقل شيء آخر.

على أن في هذا الرأى نفسه ما يرفع من شأن المغنين حينئذ، وأنهم استطاعوا حقاً بفضل ذكائهم وقدرة أيديهم وآذانهم وأذهانهم أن يحدثوا للعرب هذه النظرية الدقيقة التي تحكَّمت فيمن بعدهم قروناً طويلة. ومن يرجع إلى كتاب الأغاني يلاحظ أن ابن مِسجح كان يعنَى في غنائه بالضروب الثقيلة [١]، في حين عنِي ابن محرز بالضروب الخفيفة [٢] وينقل أبو الفرج عن إسحق الموصلي أن أباه قال له: " أول من غنَّى الرملَ ابن محرز وما غُنِّي قبله، فقلت له: ولا بالفارسية؟ قال: ولا بالفارسية. وأول من غنَّى رملا بالفارسية سلمك في أيام الرشيد، استحسن

---

[1] المسعودى ٨/٩٠.

[2] أغاني ١/١.

[3] الفصول والغايات ص ٨٨

[1] أغاني ٣/٢٦٨، ٢٨٢.

[2] أغاني ١/٣٨١.

لحناً من ألحان ابن محرز فنقل لحنه إلى الفارسية وغَنَّى فيه [٣] ". وواضح من هذا النص أن ابن محرز أول من كنى هذا الضرب الخفيف المسمى بالرمل، وواضح فيه أيضاً أنه ضرب عربي خالص لم يكن للفرس ضرب على مثاله، بل لقد نقلوه في وقت متأخر عن العرب. وهذا نفسه يمكن أن يقال عن الضروب الأخرى السابقة.

ومهما يكن فإن التأثير الأجنبي في الغناء المكي لهذا العصر إنما وقف عند النغم في الأصوات وعند بعض الألحان والإيقاعات. أما بعد ذلك فنظرية الغناء العربي جديدة، وهي من عمل المغنين بمكة والمدينة الذين برعوا في فنهم براعة هائلة استمع إلى ابن سريج تلميذ ابن مِسجح، وقد سأله مالك الطائي المغنى عن قول الناس: " فلان يصيب، وفلان يخطي، وفلان يحسن؟ فقال: المصيب المحسن من المغنين هو الذي يشْبع الألحان، ويملأ الأنفاس، ويعدل الأوزان، ويفخّم الألفاظ، ويعرف الصواب، ويقم الإعراب، ويستوفى النغم الطويل، ويحسن مقاطع النغم القصار، ويصيب أجناس الإيقاع، ويختلس مواقع النبرات، ويستوفى ما يشاكلها في الضرب من النقرات[٤].

وهذا تصوير بديع لوصف ما أصابوا من إحسان في غنائهم. ولعل هذا ما جعل الناس يتعلقون بهم وبفنهم، فقد أحسنوه إحساناً بلغ الغاية، حتى لنرى الناس يتأثرون به تأثراً، ينسيهم أنفسهم ووقارهم. روى صاحب الأغاني أن ابن سريج مر به عطاء وابن جريج، فاستوقفهما، فوقفا، وغنّاهما. "أخوتي لا تبعدوا أبداً" فغُشي على ابن جريج وقام عطاء يرقص[١]. وإذا بلغ ابن سريج من تأثيره في عطاء وابن جريج الشيخين المحدثين هذا المبلغ، فماذا كان مبلغ تأثيره في الآخرين؟ لا بد أنه كان شديدا جدا. ونحن نسمع طرفاً كثيرة عن تأثر الناس بهؤلاء المغنين، فمنهم من كان ينتف لحيته أو يحرقها، أو يعلق نعله في أذنيه، أو يشقُّ ثوبه من شدة التأثر وروعة الغناء. واستمع جرير يوماً صوتاً من ابن سريج، فقال: " لله دركُم يا أهل مكة، ماذا أُعطيتم والله لو أن نازعاً نزع اليكم ليقيم بين أظهركم، فيسمع هذا صباح مساء لكان أعظم الناس حظاً ونصيباً [٢] ". واستمع الحارث ابن خالد المخزومي وإلى مكة لعبد الملك

---

[3] أغاني ١/٣٧٩.

[4] غاني ١/٣١٥.

[1] أغاني ١/٣١٦.

[2] أغاني ١/٢٩٧.

يوما إلى الغريض تلميذ ابن سريج فقال له: "يا غَريض لا لوم في حبك، ولا عذر في هجرك، ولا لذة لمن لا يروح قلبه بك، يا غريض لو لم يكن في ولايتي مكةَ حظٌّ إلا أنت لكان حظاً كافياً وافياً، يا غريض إنما الدنيا زينة، وأزين الزينة ما فرح النفس، ولقد فهم قدر الدنيا على حقيقته من فهم قدر الغناء[٣]". ومن طريف ما يرويه أبو الفرج أن " الهذلى أحد المغنين في مكة كان نقّاشاً يعمل البرم من حجارة الجبل، فكان إذا أمسى غنّى، فلا يلبث الجبل أن يرى كقُرص الخَبيص صفرة وحمرة من أردية قريش، فيقولون أعد، فيقول: أما والله وهاهنا حجر أحتاج إليه لم يرِدِ الأبطح، فلا، فيضعون أيد يهم في الحجارة حتى يقطعوها له ويحدِروها إلى الأبطح[٤] ". ويقول أيضاً إنه كان يقول لهم: أنزلوا أحجارى، فيلقون ثيابهم ويأتزرون بازرهم وينقلون الحجارة وينزلونها [٥]". وهكذا كان الهذلى بفضل غنائه يحول شباب قريش إلى حمالين وحجارين ! وحدث صاحب الأغاني عن ابن سريج أنه غنَّى في فتية من بني مروان فطربوا، وعظموه، وتواضعوا له، حتى صار في نفسه كأنه بمنزلتهم، ثم غنّاهم ثانية فطربوا ومثلوا بين يديه، ورموا بحللهم كلها عليه، حتى غطوه بها، فمثلت له نفسه أنه الخليفة وأنهم له خدم، ويقول: إنه لم يرفع طرفه إليهم بعد ذلك تهيبا[١]

وأخذت الدولة تعترف بهؤلاء المغنين وخاصة منذ الوليد بن عبد الملك الذي استقبل ابن سريج في دمشق استقبالاً حافلاً، ولما غناه غطاه بالخلع وأهداه كيساً من الدنانير وبِدراً من الدراهم[٢].

ويقال إن يزيد أخاه حج بالناس وسمع غناء ابن سريج فأعطاه حلّته وخاتمه[٣] ويروى أبو الفرج أن سلمان أخاهما حج فسبق بين المغنين بِدرة، والبدرة: كيس فيه آلف درهم أو عشرة آلاف دينار أو سبعة آلاف دينار، ونال الجائزة ابن سريج[٤]. ولعل في هذا كله ما يدل على أن الدولة أخذت تُعنَى بهؤلاء المغنين وتشمجعهم لإحسانهم في فنهم، فهي تستقدمهم تارة،

---

[3] أغاني ٣/٣٢٧.

[4] أغاني ٥/٦٥.

[5] أغاني ٥/٦٧.

[1] أغاني ١/٣١٠.

[2] أغاني ١/٣٠١.

[3] أغاني ١/٢٥٨.

[4] أغاني ١/٣١٧.

وتحج فتستمع إليهم تارة أخرى، ممثّلة في الخلفاء والأمراء. وكان بلاط الوليد بن يزيد مكتظا بمغنّي الحجاز وعلى رأسهم مغنو مكة مثل يحيى قَيل [٥] والهذلي والأبجر، ويقال إنه حج، وبينما هو يسير ليلة في عسكره، وإذا بصوت جميل، فأشار لبعض من معه أن يقول: أعِد الصوت، فقال المغنى: لا والله إلا بالفرس الأدهم بسرجه ولجامه وأربعمائة دينار، فنودى أين منزلك؟ ومن أنت؟ فقال: أنا الأَبجر ومنزلي على باب زقاق الخرازين. فغدا عليه رسول الوليد بذلك الفرس وأربعمائة وتخت من ثياب ووشْي وغير ذلك [٦] وقد لزم الوليد حتى قُتل.

ولا يرتاب كلٌّ من يقرأ أخبار هؤلاء المغنين في أن منزلتهم أخذت ترتفع في بلاط الخلفاء المروانين حتى ليظَن أنهم سبقوا الشعراء، فقد كانوا يغنون هؤلاء الخلفاء وينادمونهم ويعودون من عندهم وقد ملأوا حجورهم ذهبا وفضة. وهذا كله كان نتيجة تفوقهم في فنهم وثمرة نبوغهم في غنائهم.

---

[5] أغاني ٣٤/٧ وكذلك ٩٢/٧.

[6] أغاني ٣٤٦/٣.

(٥) أشهر المغنين

نبغ بمكة في هذا العصر كثير من المغنين، وكتاب الأغاني يطفح بأسمائهم. وقد ترجم أبو الفرج لنفر منهم، وسنقتصر في الحديث عنهم على مشهوريهم إذ أثروا في الشعر الذي عاصرهم آثاراً عميقة. وأشهرهم حينئذ ابن مِسجح وابن محرز وابن سريج والغَرِيض والأَبجر.

ابن مسجح

هو أبو عثمان سعيد بن مِسجح، ولد في مكة، وكان أسود مولداً، وكان مولى بني جمح، وقيل إنه مولى بنى نوفل بن الحارث بن عبد المطلب[١] وهو أستاذ المغنين في مكة، فعنه أخذ ابن محرز[٢] وابن سريج[٣]. وهو أول من نقل الغناء الفارسي إلى الغناء العربي[٤] وبذلك كان أول من أعد للنظرية العربية في الغناء. وبدأ ذلك في عصر معاوية[٥]. وفى الأغاني أن " مولاه سمعه يتغنَّى، فدعا به، وقال له: يا بني أَعِد ما سمعته منك علي، فأعاده، فإذا هو أحسن مما ابتدأ به. فقال: أَنَّى لك هذا؟ قال: سمعت هذه الأعاجم تتغنى بالفارسية، فثقفتها، وقلبتها في هذا الشعر. قال له: فأنت حرٌّ لوجه الله، فلزم مولاه، واتسع في غنائه، ومهر بمكة، وأُعجبوا به لظرفه وحسن ما سمعوه منه [٦] ".

وسق أن قلنا إنه نقل هذا الغناء الفارسي إلى العربية ممن بنوا دور معاوية الرقْط والكعبةَ لابن الزبير، وقلنا إنه كان يذهب إلى البلاد الأجنبية ليتعلم الغناء فذهب إلى سوريا وفارس، ثم عاد إلى الحجاز وقد تشبعت نفسه بضرورة التجديد في الغناء العربي القديم. واستطاع أن ينفذ مع تلميذه ابن محرز من جهة ومغنى المدينة من جهة أخرى إلى هذه النظرية الجديدة التي نقرؤها في الأغاني، والتي تنتهي أسانيدها إلى هذا العصر.

---

[1] أغاني ٢٧٦/٣.

[2] أغاني ٣٧٩/١.

[3] أغاني ٢٥١/١.

[4] أغاني ٢٧٦/٣ وانظر ٢٨١/٣.

[5] أغاني ٣٨١/٣.

[6] أغاني ٢٧٨/٣ وما بعدها.

وكان ذلك سبباً في شهرته. ويظهر أن جماعة من المتشددين رفعوا أمره إلى عبد الملك فأرسل إلى عامله على مكة أن يقبض ماله ويسيره إليه، فتوجه ابن مِسجح إلى الشام. ويقول أبو الفرج: إن رجلا له جوار مغنيات صحبه في طريقه [١]، ولعله أراد لهن أن يأخذن عنه ويتعلمن فنه في أثناء رحلته. وما زال حتى انتهى إلى دمشق، وهناك تعرف على أحد أقرباء عبد الملك فغنَّاه، وأُعجب به إعجاباً شديداً، وحينئذ أفضى إليه ابن مِسجح بما جاء به فقال له: "إنى أنى أسمر الليلة مع أمير المؤمنين فهل تحسن أن تَحدو؟ فال: لا، ولكنى أستعمل حداء، قال: فإن منزلي بحذاء منزل أمير المؤمنين، فإن وافقت منه طيب نفس أرسلت إليك، ومضى إلى عبد الملك، فلما رآه طيب النفس أرسل إلى ابن مِسجح، فأخرج رأسه من وراء شُرف القصر ثم حدا.. فقال عبد الملك للقرشي من هذا؟ قال رجل حجازي قدم علي، قال: أَحضره. فأحضره له، وقال له: احد مجدا. ثم قال له: تُغَنِّى غناء الركْبان؟ قال نعم. قال: غَنِّه، فتغنى، فقال له: فهل تغنى الغناء المتقن؟ قال: نعم، قال غنه، فتغنى. فاهتز عبد الملك طرباً. ثم قال له: من أنت؟ ويلك! قال له: أنا المظلوم المقبوض ماله المسير عن وطنه سعيد بن مِسجح، قبض مالي عامل الحجاز، ونفانى. فتبسم عبد الملك، ثم قال له: قد وضح عذر فتيان قريش في أن ينفقوا عليك أموالهم، وأمنه ووصله كتب إلى عامله برد ماله عليه وأن لا يعرض له بسوء [٢] " ورجع ابن مِسجح إلى مكة، وأمضى فيها بقية حياته آمناً. ولا نجد له أخباراً مع أحد من خلفاء عبد الملك. ويقول صاحب الأغاني إنه عاش حتى لقيه معبد مغنى المدينة، وأخذ عنه في أيام الوليد بن عبد الملك [٣]

ابن محرز

هو أبو الخطاب مسلم (أو سلم أو عبد الله) بن محرز مولى بنى عبد الدار، وأصل أبيه من الفرس وكان من سدنة الكعبة[١]. وقد تتلمذ ابن محرز لابن مِسجح [٢]، ولعزة الميلاء [٣]،

---

[1] أغاني ٢٨٢/٣.

[2] أغاني ٢٨٢/٣.

[3] انظر أغان ٢٨٢/٣ وما بعدها

[1] أغاني ٣٧٨/١.

[2] أغاني٣٧٩/١.

[3] أغاني ٣٧٨/١.

فكان يذهب إليها في المدينة، حيث يمضى هناك ثلاثة أشهر يأخذ عن مغنيها. وحياته الفنية طريفة، فقد شخص مثل أستاذه ابن مِسجح إلى الشام وفارس، فتعلم ألحان الروم والفرس جميعاً، ثم أخضع الغناء العربي لبعض هذه الألحان، على نحو ما كان يصنع أستاذه.

وكان لا يكتفي مثل ابن مِسجح بما كان يقوم به في هذا الجانب، بل كان يذهب إلى المدينة، ليستمع إلى ما يحدث المغنون هناك. ومعنى ذلك أنه كانت لديه رغبة شديدة في النهوض بفنه، فكان يقيم بمكة ثلاثة أشهر، ثم يبرحها إلى المدينة فيقيم بها ثلاثة أخرى، ثم يمضى بقية عامه في الشام وفارس.

واشتهر بأنه أول من غَنَّى الرمل، وكذلك اشتهر بأنه لم يكن يغنى إلا بزوج من الشعر[٤]، وغنَّى في إحدى حفلات جميلة مغنية المدينة المشهورة صوتاً مؤلفاً من ثلاثة أبيات، فقالت له: يا أبا الخطاب كيف بدا لك في ثلاثة وأنت لا ترى ذلك؟ فقال أحببت أن أواسى معبداً [٥] وكان معبد سبقه إلى غناء ثلاثة أبيات، فأحب أن يوافقه في ذوقه. وهذا يدل على رهافة حس فيه.

وكان يقال له صنّاج العرب لإحسانه وجمال غنائه، قال إسحق الموصلي قلت ليونس الكاتب: من أحسن الناس غناء؟ قال: ابن محرز، قلت: كيف قلت ذاك؟ قال إن شئت فسرت، وإن شئت أجملت، قلت: أجمل، قال: كأنه خلق من كل قلب، فهو يغنى لكل إنسان بما يشتهى، وكان يعد أحد الفحول الخمسة الذين ظهروا في الحجاز.[٦]

ويقول أبو الفرج كانت العلة التي مات بها الجذام، فل يعاشر الخلفاء ولا خالط الناس، ثم يروى أن غناءه لم يأخذه الناس عنه مباشرة وإنما أخذوه عن جارية لصديق له من أهل مكة كانت تألفه، فأخذه الناس عنها[١]. ومع ذلك فنحن نجده يبرح مكة إلى الشام وفارس ودور المغنين والمغنيات في المدينة. ويروى أبو الفرج نفسه في موضع آخر من كتابه أنه كان يفد مع ابن مِسجح وابن سريج والغريض على المدينة، فينزلون بدار جميلة ويتغنون فيها[٢].

---

[4] أغاني ٣٧٩/١.

[5] أغاني٢١٣/٨.

[6] أغاني ٣٨٠/١.

[1] أغاني ٣٧٩/١.

[2] أغاني ١٨٨/٨.

وربما أصابه هذا الجذام في أخريات حياته، ولكن على كل حال لا نجد له أخباراً مع الخلفاء والأمراء.

ابن سريج

هو أبو يحيى عبيد بن سريج مولى بنى نوفل بن عبد مناف، وقيل بل مولى بنى الحارث بن عبد المطلب، وقيل بل مولى بني ليث وقيل بل مولى بنى مخزوم [٣] وكان آدم أحمر ظاهر الدم خفيف العارضين في عينيه قَبَلٌ [٤]، ولد في خلافة عمر، وأدرك يزيد بن عبد الملك وناح عليه، ومات في خلافة هشام[٥]، وقيل بل مات بعد قتل الوليد بن يزيد[٦]. أخذ الغناء عن ابن مِسجح [٧]، ورحل إلى المدينة فأخذ عن طُويس [٨]، وكذلك أخذ عن نشيط الفارسي [٩] مولى عبد الله بن جعفر، وهو الذي أخذ عنه أهل المدينة الغناء الفارسي. ومعنى ذلك أن ابن سريج وإن لم يرتحل إلى بلاد فارس لأخذ الغناء الفارسي كما صنع أستاذه ابن مِسجح، فإنه ارتحل إلى المدينة لأخذه عن نشيط، وإذن فهو أحد من تأثروا بالغناء الفارسي في ألحانه.

وظلَّ- على ما يظهر- خاملا حتى كانت وقعة الحرة سنة ٦٢ للهجرة، فعلا على أبي قُبيس، وناح، فاستحسن الناس نواحه. ويقال إن سكينة بنت الحسين بعثت إليه بشعر، أمرته أن يصوغ فيه لحنا يناح به، فصاغ فيه لحناً، قدمه على جميع ناحة مكة والمدينة والطائف[١].

وما زال ابن سريج يقتصر على النياحة حتى ظهر الغريض وتفوق عليه في هذا الفن، فتركه وعدل إلى الغناء [٢]، فبرع فيه ومهر، وارتفع نجمه لا في مكة وحدها بل في الحجاز

---

[3] أغاني ٢٤٨/١.

[4] أغاني ٢٤٩/١ والقبل: إقبال إحدى الحدقتين على الأخرى.

[5] أغاني ٢٥٤/١.

[6] أغاني ٢٥٠/١.

[7] أغاني ٢٥١/١.

[8] ابن عبد ربه ٢٤٢/٣.

[9] أغاني ٣٢١/٨.

[1] أغاني ٢٥٥/١ وما بعدها

[2] أغاني ٢٥٥/١.

كله. وكان في أول أمره يغنى مرتجلاً ويوقع بقضيب ثم غنى بالعود، وكان عوده على صنعة عيدان الفرس، وكان أول من ضرب به على الغناء العربي بمكة[٣].

ولم يتقدم الزمن طويلاً بابن سريج حتى نال شهرة مدوية. قال إسحق: سألت هشام بن الَّمرية وكان قد عمر وكان عالماً بالغناء، فقلت له: " من أحذق الناس بالغناء؟ فقال لي أتحب الإطالة أم الاختصار؟ فقلت أحب الاختصار فقال: ما خلق الله تعالى بعد داود النبي عليه الصلاة والسلام أحسن صوتاً من ابن سريج، ولا صاغ الله عز وجل أحداً أحذق منه بالغناء، ويدلك على ذلك أن معبداً كان إذا أعجبه غناؤه قال: أنا اليوم سريجي[٤]" وينقل إسحق عن أبيه إبراهيم أنه كان يقول: " غناء كل مغن مخلوق من قلب رجل واحد، وغناء ابن صر يح مخلوق من قلوب الناس جميعاً، وكان يقول: الغناء على ثلاثة أضرب، فضرب ملْهِ مطرب يحرك ويستخف، وضرب ثانٍ له شَجي ورقة، وضرب ثالث حكمة وإتقان صنعة، كل هذا مجموع في غناء ابن سر يج[٥]. وقال إبراهيم الموصلي أيضاً عن صوت سمعه لابن سريج: " ما سمعت هذا الصوت إلا أبكاني لأني إذا سمعته أو ترنمت به وجدت غمزاً على فؤادى[٦]. وسئل إسحق الموصلي عن غنائه وغناء ابن سريج فقال: والله لقد أخذت بخطام راحلته، فزعزعتها، وأنختها، وقمت بها، فما بلغته[٧] وكان يقول: " أصل الغناء أربعة نفر: مكيان ومدنيان، فالمكيان: ابن سريج وابن محرز، والمدنيان معبد ومالك[٨]"

وتعلق الناس به في عصره، وخاصة أهل مكة حتى قال ابن تَيزن المغنى، وهو أحد غلمان ابن سر يج: إذا أعجزك أن تُطْرب القرشي فَغنِّه غناء ابن سريج في شعر ابن أبى ربيعة فإنك ترقصه [١] ومر بنا أن عطاء سمع صوتاً له فرقص. وكان يتصادف أن يغنى في أثناء الحج فيحبس الناس عن مناسكهم. ويقال إنه غَنَّى على أخْشَب منى غداة النَّفْرِ صوتاً

---

[3] أغاني ٢٤٩/١ وما بعدها.

[4] أغاني ٢٥١/١.

[5] أغاني ٢٩٠/١.

[6] أغاني ٢٧٠/١.

[7] أغاني ٢٥٢/١.

[8] أغاني ٢٥١/١.

[1] أغاني ٢٨٣/١.

فارتفع حنين الناس وأنينهم [٢]، وأهداه شريف من أشراف الحجاج حلّة وخاتماً قيمتهما ألف وخمسمائة دينار[٣].

وكان في ابن سريج رقة فكان لا يغنى الناس صوتاً مدِح به أعداؤهم ولا صوتاً عليهم فيه عار أو غضاضة[٤]. واستدعاه الوليد بن عبد الملك إلى بلاطه في دمشق، وأنزله في أحد قصوره، وأجزل له في جوائزه، وكان ابن سريج يغنيه في مديح الشعراء له من مثل الأحوص وعدي بن الرقاع [٥] ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم قرب المغنين منذ الوليد إلى نفوس الخلفاء، فقد كانوا يغنونهم في مدائحهم، وربما كان ذلك أهم الأسباب في أنهم أخذوا يظفرون من جوائزهم بما لم يظفر به شعراؤهم: ففرق أي فرق بين النشيد والغناء.

وترك ابن سريج ثلاثة وستين صوتاً كان يعرفها معرفة تامة إبراهيم الموصلي وابنه إسحق[٦] ويروى أبو الفرج أنه لما سمع مغنو مكة بسبعة معبد وشهرتها، وهي أصوات سبعة- كما مر بنا في غير هذا الموضع- سميت مدن معبد، لحقتهم لذلك غَيرة، فاجتمعوا، فاختاروا من غناء ابن سريج سبعة، فجعلوها بإزاء سبعة معبد، ثم خايروا أهل المدينة، فانتصفوا منهم[٧]

ولعل في هذا كله ما يدل على مدى إحسانه ومبلغ تفوقه، وكان يغنى خاصة بالغناء الخفيف، فكان أكثر غنائه من الأرمال والأهزاج [٨]، ولذلك كان يستخفه الناس، وكانوا يقولون كأن غناءه خُلق من كل قلب [٩]

---

[2] أغاني ٢٩٣/١.

[3] أغاني ٢٦٢/١ وما بعدها.

[4] أغاني ٢٩٦/١.

[5] أغاني ٢٩٧/١ وما بعدها.

[6] أغاني ٢٦٨/١.

[7] أغاني طبع دار الكتب ٢٣٨/٩.

[8] أغاني ٢٦٧/١.

[9] أغاني٢٥١/١.

الغَرِيض

هو أبو يزيد أو أبو مروان عبد الملك [١]، أما الغَرِيض فلَقب لُقِّب به لأنه كان نَضِر الوجه غَض الشباب حسن المنظر. وكان مولداً من مولَّدي البربر، وهو مولى الثريا بنت على بن عبد الله الأموية وأخواتها المعروفات جميعاً باسم العبلات[٢].

وهو خريج ابن سريج وتلميذه، بدأ معه حين كان يحترف النياحة، فإن مولياته ألحقنه به لكي ينوح لهن على قتلاهن في الحرة[٣] ولم يلبث أن تفوق على أستاذه في هذا الفن. ويقال إن ذلك- كما مر بنا- كان سبب عدول ابن سريح عنه إلى الغناء. وعدل الغريض معه إليه، فكان ابن سريج لا يغنى صوتاً إلا عارضه فيه[٤]، ولكنه لم يستطع أن يبزه، فقد كان دائماً يأتي دونه [٥]، ومع ذلك فقد كان يعد في فحول المغنين وكبارهم. وجعله إسحق الموصلي أحد خمسة تفوقوا في فن الغناء بالحجاز [٦]، وروى أنهم أجمعوا على أن الغريض كان أشجى غناء، وكان ابن سريج أحكم صنعة[٧]. ويقال إن السيدة سكينة بنت الحسين حجت، فدخل إليها ابن سريج والغريض، فقال لها ابن سر يح: يا سيدتى! إنى كنت صنعت صوتاً وحسنته وتوقت فيه وخبأته لك في حريرة في درج مملوء مسكاً، فنازعنيه الغريض فأردنا أن نتحاكم اليك فيه، فأينا قدمته فيه تقدم. ثم غناها كل منهما الصوت، فقالت: والله ما أفرق بينكما، وما مثلكما عندي إلا كمثل اللؤلؤ والياقوت في أعناق الجواري الحسان، لا يدرى أي ذلك أحسن [٨] ويظهر أنه استمر يجمع بين الغناء والنوح حتى آخر حياته، فإن الثريا مولاته حين ماتت ناح عليها [٩] ويقول أبو الفرج إنه كان ينوح فيدخل المآتم وتُضرب دونه الحجب، ثم ينوح فيفتن كل من سمعه [١٠] وكان في الوقت نفسه يغنى فيحسن الغناء، ولكنه كان يأتي تابعاً لابن

---

(1) أغاني ٣٥٩/٢ وانظر ٢٥٥/١.

(2) أغاني ١١١/١ وانظر ٣٥٩/٢.

(3) أغاني ٢١١/١ وانظر ٢٥٥/١.

(4) أغاني ٢٥٦/١.

(5) أغاني ٢٧٦/١ وكذلك ٢٧٨/١.

(6) أغاني ٣٨٠/١.

(7) أغاني ٣٦٢/٢.

(8) أغاني ٣٦٥/٢ وكذلك ٣٦١/٢.

(9) غانى ٢٤٦/١ انظر أغاني ٣٦٤/٢.

(10) أغاني ٣٦٠/٢

سريح. وهذا على كل حال لا يحطّ منه، فقد كان ابن سريج على ما يظهر يتقدم مغنى الحجاز جميعاً. ومهما يكن فقد كان للغريض منزلة عظيمة في مكة، وكان الحجاج حين يسمعونه يظنونه من الجن لجمال صوته[١]، وخرج إليه معبد مغنى المدينة الأول ليسمع منه بعض أصواته [٢]فلما سمعه قال: لقد سمعت شيئاً لم أحسن منه، وقصر إلى نفسي، وعلمت فضيلته على. ويظهر أنه كان يحسن التأثر والنقل، فقد قالوا إنه سمع أصوات رهبان بالليل في دير لهم فاستحسنها وصاغ على مثالها لحناً[٣].

وكان الغريض مقرباً من نساء مكة والمدينة جميعاً، وكان يحظى بجوائزهن. ومن أشهر من غناهن عائشة بنت طلحة [٤] وليس من شك في أنه كان المغنى الأول في دار مولياته العبلات وعلى رأسهن الثريا بنت على بن عبد الله الأموية. وكان يلزم عمر ويصحبه في غُدواته وروحاته، وكان يتخذه رسولاً إلى بعض صديقاته[٥]. وكما كان يلزم عمر كان يلزم الحارث بن خالد المخزومي الشاعر والى مكة لعبد الملك، وكان يجزل له في العطاء [٦]ويقال إنه غَنَّى عاتكة بنت يزيد فأمرت له بخمسة آلاف درهم وثياب عدنية وغير ذلك من الألطاف [٧] ولما قدم الوليد ابن عبد الملك مكة صحبه وغناه فوصله وكساه[٨]، وكذلك غنى يزيد بن عبد الملك في أثناء حجه [٩]

ولعل فيما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أنه كان أحد المغنين الممتازين في عصره، وتتلمذ لابن سريج كما قدمنا، ويظهر أنه تتلمذ أيضاً لابن مِسجح[١٠]، وكان كثير الروحات إلى دار جميلة في المدينة.[١١] ولما شدد نافع بن علقمة في طلب المغنين والمخنثين هرب منه إلى

---

(1) أغاني٢/٣٦٢.

(2) أغاني ٢/٣٨٥.

(3) أغاني ٢/٣٩٧.

(4) أغاني ٢/٣٧٨ وا نظر ٣/٣٢١.

(5) أغاني ١/١٥٠.

(6) أغاني٢/٣٢٣.

(7) أغاني ٣/٣٢٣.

(8) أغاني ٢/٣٩٥.

(9) أغاني ٢/٣٨٢.

(10) أغاني ٣/٢٧٧.

(11) أغاني ٨/١٨٨ وكذلك ٨/٢١٣، ٨/٢٢٦.

اليمن فمات بها، وكان ذلك في خلافة سليمان ابن عبد الملك. ويقال بل توفى في عرسٍ أو ختان، وتذهب الأسطورة إلى أن الجن نهته عن صوت فغناه فقتلته [١٢].

الأبجر

هو أبو طالب عبيد الله (أو محمد) بن القاسم، كان مولى لكنانة [١]، أخذ الغناء على ما يظهر عن الغريض [٢] ولكنه لم يشتهر بادئ الأمر. ويقال إن عطاء ابن أبى ر باح خَتَن بنيه أو بنى أخيه، فكان يختلف إليهم ثلاثة أيام يغنى لهم[٣].

وكان يذهب إلى المدينة كعادة زملائه. ويقال إنه اجتمع يوما مع ابن عائشة مغنى المدينة في بيت ابن هبار فتغنى ابن عائشة، فقال الأصير: كل مملوك لي حر إن تغنيت معك إلا بنصف صوتي، ثم أدخل إصبعه في شدقه، فتغنى، فسمع صوته من في السوق وحشر الناس[٤]

وكان الأبجر يعترض بغنائه الحجاج على عادة المغنين في مكة، فكان يحبسهم عن مناسكهم، وبينما كان يتغنى يوماً وإذا بالوليد بن يزيد- كما أسلفنا- يمر به، فيعجب بصوته، ويرسل له بأربعمائة دينار، ولزمه بعد ذلك فذهب معه إلى الشام، واستمر عنده حتى قُتل، فخرج إلى مصر، ومات فيها.

وكانت فيه فكاهة، فيقال إن رسول الوليد بن يزيد ذهب في استدعاء المغنين، فعرض عليه نفسه فأبى أن يأخذه لأنه لم يكن يعرفه، فقال له خذني ولك مع هذا شرط، قال: وما هو فقال الأبجر: كل ما أصبته فلك شطره، وذهب مع المغنين، فغنوا الوليد، فلم يتحرك ولا نشط، وغنى الأبجر فطرب، وارتاح، وأمر له بعشرة آلاف درهم. فلما خرج المغنون وثب فقال للوليد: إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر من يضربني مائة الساعة بحضرتك، فضحك، وقال له: قبحك الله ! وما السبب في ذلك، فأخبره بقصته مع الرسول وقال: إنني أريد أن أضرب

---

[12] أغاني ٢/٣٩٩ وما بعدها.

[1] أغاني ٣/٣٤٤.

[2] أغاني ٣/٣٤٧.

[3] أغاني٣/٣٤٨.

[4] أغاني ٣/٣٤٨.

مائة ويضرب بعدى مثلها، فقال له: قد لطفت، أعطوه مائة دينار وأعطوا الرسول خمسين ديناراً[٥]).

وأغلب الظن أنه كان كثير الجوائز حتى قبيل ذهابه إلى دمشق ومعيشته في بلاط الوليد، فالرواة يزعمون أنه " لم يكن بمكة أحد أظرف ولا أسرى ولا أحسن هيئة من الأبجر، كانت حلته بمائة دينار، وفرسه بمائة دينار، ومركبه بمائة دينار[١]. وإذا كان أصاب هذا في حياته فماذا أصاب الذين يتقدمونه من مثل ابن محرز وابن سريج والغريض؟! وكل النصوص تدل على أن هؤلاء المغنين أحسنوا فنهم إلى حد بعيد.

الهذلى

هو أبو عبد الرحمن سعيد بن مسعود، وكانت له مهنة غير الغناء، فقد كان ينقش الحجارة بأبي قُبيس[٢]، وكان منزله في منًى، وكان فتيان قريش يأتونه، فيغنيهم هناك، وكان يجلس أحياناً على جمرة العقبة ويغنيهم [٣] وأحيانا يغنيهم بالبطحاء [٤]وكانوا يذهبون أحياناً أخرى لمساعدته في الحجارة، أو بعبارة أدق كانوا يذهبون لسماع غنائه، فيأبى إلا أن يساعدوه في قطيع الحجارة [٥] ويقول أبو الفرج: إنهم كانوا يفدون إليه ومعهم الطعام والشراب والدراهم، فيقول لهم: الوظيفة، فيقولون قد جئنا بها، فيقول: الوظيفة الأخرى: أنزلوا أحجاري، فينقلون له الحجارة وينزلونها، ثم يجلس على قطعة بارزة من الجبل، ويجلسون تحته في السهل.. وهو يغنيهم حتى المساء[٦].

ويدل هذا الخبر على أن الناس لم يكونوا يستمعون للمغنين بالمجان، بل كانوا يستمعون إليهم بالوظيفة والدراهم، وهي الطريقة نفسها المتبعة الآن. وليس من ريب في أن هذا كان دخلاً منظماً هؤلاء المغنين، وأنه كان يدر عليهم كثيراً من الأموال.

---

(5) أغاني ٣٤٨/٣.

(1) أغاني ٣٤٥/٣.

(2) أغاني ٦٥/٥.

(3) أغاني ٦٧/٥.

(4) أغاني ٦٦/٥.

(5) أغاني ٦٥/٥.

(6) أغاني ٦٧/٥.

وأهم حادث في حياة الهذلى أنه تزوج بنت ابن سريج، زوجه منها ابن سريج نفسه، وهذا دليل على أنه كان يتبعه ويلازمه. ويقول الرواة إنه أخذ غناء أبيها كله عنها [١]، وجاء منها بولد فمر يوماً على مجلس فيه أشعب، فتساءل الناس من هذا الصبي؟ فقال أشعب: أو ما تعرفونه؟ هذا ابن الهذلى من ابنة ابن سريح، ولد على عود، واستهلّ [٢] بغناء، وحنّك بملوى [٣] وقطعت سرته بوتر، وخُتِن بمضراب.

وهؤلاء هم أشهر المغنين الذين ظهروا في مكة في أثناء العصر الأموي، وكان وراءهم كثيرون لا يقلون عنهم شهرة. وقد ترجم أبو الفرج لطائفة منهم مثل يحى قيل [٤] مولى العبلات، وكان أحد من لقيه الوليد بن يزيد في مكة واستمع إلى غنائه [٥]، منهم عبادل مولى قريش، وهو مغن محسن متقدم من الطبقة الثانية، ولم يفارق الحجاز ولا وفد على ملوك بنى أمية، وكانت له صنعة كثيرة[٦].

وكان بجانب هؤلاء المغنين كثير من المغنيات، ولكن يظهر أن مكة لم يكن بها دار خاصة بهن، كدار عزة الميلاء وجميلة في المدينة، ولذلك لم نسمع كثيرا عنهن، وإن كانت نصوص الأغاني تدل على أنهن كن كثيرات. وسبق أن قلنا إن التي نقلت للمغنين والناس غناء ابن محرز جارية لصديق له. ودار الثريا وأخواتها العبلات التي أخرجت الغريض ويحى قَيل أخرجت كذلك مغنية عرفت هناك تسمى سمية، وكان عمر بن أبى ربيعة يمتلك جاريتين مغنيتين هما بغُوم وأسماء. ويقول أبو الفرج، وقد عرض لموكب جميلة حين حجت، إنه استقبلها في مكة قيان كثيرات لم يسمن لنا [٧] ومن المؤكد أن مكة كانت تكتظ بهؤلاء القيان، ويقال إن سلامة القس التي نشأت في المدينة اشتراها يزيد من مكي يسمى سيل ابن عبد

---

(1) أغاني ٦٦/٥ وما بعدها.

(2) استهل: صاح.

(3) الملوى: من أجزاء العو

(4) أغاني ١١٠/٣.

(5) أغاني ٢٧٥/٩.

(6) أغاني ٩٦/٦.

(7) أغاني٢١٠/٨.

الرحمن [٨]ومعنى ذلك أن مكة حظيت بأغانيها وغنائها. وكذلك يقال إن حبابة التي اشتراها يزيد أيضاً والتي خَرجتها جميلة إنما اشتراها من آل لاحق المكيين[٩].

وكل الأخبار تؤكد أن مكة في هذا العصر كانت تكتظ با المغنين والمغنيات، وأشرنا مراراً إلى زيارة مغنى المدينة لها من مثل معبد وجميلة، ولا يكاد يوجد مغن مشهور في المدينة إلا وزارها وكذلك لا تكاد توجد مغنية معروفة في المدينة إلا وزارتها واستمعت إلى كبار مغنيها ومن لم يأت منهم استمع إلى هؤلاء المغنين المكيين في المدينة نفسها، إذ كانوا يكثرون من زيارتها ومن النزول على جميلة، كثيراً ما أحيوا ليالى وحفلات في دارها.

وكان هؤلاء المغنون من أهل مكة يكثرون من زيارة دمشق، كما كان يكثر من هذه الزيارة مغنو المدينة ومغنياتها. وأحدثوا فيها بفضل زيارتهم وبفضل اهتمام الخلفاء بهم نهضة فنية فئ الغناء، كان من آثارها هناك أبو كامل الغزيل مغنى الوليد بن يزيد [١]، بل كان من آثارها الوليد بن يزيد نفسه على نحو ما هو معروف [٢]

ونحن لا نكاد نخطو خطوات في العصر العباسي حتى نجد هذا النهر، نهر الغناء الحجازى، الذي كان يسير نحو الشمال يتجه إلى الشرق حيث العراق ومدنه الكبيرة: البصرة والكوفة ثم بغداد. وكان للرافد الكبير رافد مكة أثر واسع في هذا التحول وما طُوِي فيه من نهضة فنية كبيرة للغناء والموسيقى في العراق. ولا يكاد يعيش في مكة مغن مشهور إلى العصر العباسي إلا ونراه هناك. وقد ترجم أبو الفرج في أغانيه لطائفة كبيرة من هؤلاء المغنين الذين كانوا واسطة انتقال هذا الغناء الموسيقى من الحجاز إلى العراق من مثل ابن عباد وكان مولى لبنى مخزوم وقيل بل مولى لبنى جمح، وهو من كبار. المغنين وقد توفى ببغداد في الدولة العباسية [٣] ومثل إسماعيل بن الهِربِذ وكان مولى لآل الزبير بن العوام، وأدرك آخر أيام الرشيد، وغناه يوماً فكاد يرقص من شدة الطرب، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم [٤]، ومثل يحيى المكي، ويقول صاحب الأغاني: إنه قدم مع الحجازيين الذين قدموا على

---

[8] أغاني ٣٣٤/٨ وانظر ٣٣٩/٨.

[9] أغاني (طبع بولاق) ١٥٥/١٣.

[1] أغاني طبع دار الكتب ٣٢/٧ وكذلك ٤٦/٧، ٩١/٧ وما بعدها.

[2] أغاني ٣٢/٧ وا نظر ٢٧٤/٩.

[3] أغاني٦/١٧١.

[4] أغاني ١٠٤/٧.

المهدى في أول خلافته، وبقى في العراق هو وولده يخدمون الخلفاء إلى أن انقرضوا، وكان آخرهم محمد بن أحمد بن يحيى المكي، وكان يغنى مرتجلاً، ويحضر مجلس المعتمد مع المغنين [١] ومثل سياط وكان مولى لخزاعة، وقد ترك ستين صوتاً[٢].

ولنرجع إلى المغنين الثلاثة الممتازين في عصر هارون الرشيد والذين جمعوا له الأصوات المائة التي أدار أبو الفرج كتابه (الأغاني) عليها، وهم فُلَيح ابن أبى العوراء وابن جامع وإبراهيم الموصلي، فإنك إذا ذهبت تبحث في حياتهم وتكوينهم الفنى وجدت أولهم من أهل مكة وكان مولى لبنى مخزوم [٣] أما الثاني فكان سياط زوج أمه [٤] وهذا يغلب أن يكون مكي الولادة والنشأة، وأما الثالث فإنه تتلمذ للمكيين، وأخذ عنهم [٥]

وأكبر الظن أننا لا نسرف إذا قلنا: إن نهضة الغناء في العراق في أثناء العصر العباسي إنما كانت امتداداً هذه الموجة التي نفذت إلى العراق على أيدي مغنى مكة وزملائهم من مغنى المدينة.

---

[1] أغاني ٦/١٧٤ وما بعدها.

[2] أغاني ٦/١٥٦ وما بعدها.

[3] أغاني ٤/٣٥٩.

[4] أغاني ٦/١٥٢ وانظر ٦/٢٨٩.

[5] غاني ٦/١٥٢، ٦/١٧٤.

الفصل الثالث

الشعر والأغاني في مكة

(١) الشعر في مكة

كل من يدرس الحياة الأدبية العربية في العصر الجاهلي يشعر بأن الشعر كان عمود هذه الحياة، إذ كان سبيل القوم إلى التعبير، سواء في وقائعهم الحربية أو وقائعهم اليومية، فلم يكن قد تكون عندهم بعد هذا الحائط العقلي الذي يحول الأمة من عالم الشعر إلى عالم الكتابة الفنية. ووجد لدى القوم خطابة، ولكنها كانت محدودة، أما الشعر فكان الأسلوب العام للتعبير عن أحداثهم ويومياتهم.

ونحن نجد الشعر في مكة في أثناء العصر الجاهلي على كل لسان، وفى كل مناسبة، مما يجعلنا نؤمن أن أهل مكة كانوا مثل بقية العرب يعبرون بالشعر عن كل ما يضطربون فيه من عواطف دنيوية أو دينية. ونضرب لذلك مثلا بيت بنى هاشم، فنحن نجد الرواة ينسبون إلى كل الشخصيات اللامعة فيه شعراً، فقصي وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب كل هؤلاء ينْسب إليهم شعر [١]، وكذلك حمزة [٢] بن عبد المطلب وأخواه الزبير[٣] وأبو طالب. يقول ابن سلام: " كان أبو طالب شاعراً جيد الكلام، وأبرع ما قال قصيدته التي مدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وهي:

وأبيض يستَسقَى الغمام بوجهِهِ ربيع اليتامى عِصمةٌ للأرامِلِ

---

[1] انظر سيرة ابن هشام الجزء الأول ص ١٣٥ وكذلك ص ٥٢.

[2] ابن هشام ٨/٣.

[3] طبقات الشعراء لابن سلام (طبع ليدن) ص ٦١.

وقد زيد فجها وطُولت [١] ". وتَروِي سيرة ابن هشام كثيراً من شعر أبى طالب. وإذا كان هذا شأن بيت واحد من بيوت قريش فما بالنا ببقية البيوت؟ وإن سيرة ابن هشام لتطفح بكثير من الشعر القرشي، وكذلك الطبري وكتاب الأغاني، فقلما توجد شخصية متألقة في تاريخ مكة الجاهلي إلا وينْسب إليها شعر، وخاصة من اتصلوا بالسيرة النبوية، فأبو جهل بن هشام وأبو سفيان وعمرو ابن العاص ونُبيه بن الحجاج وغيرهم من أشراف قريش ينظمون الشعر. وقد ترجم صاحب الأغاني لآخرهم فقال: إنه من وجوه قريش وذوى النباهة فيهم[٢]. وممن ترجم لهم أيضاً مسافر بن أبي عمرو بن أمية وكان سيداً جواداً، وهو أحد أزواد الركْب، وإنما سموا بذلك لأنهم كانوا لا يدعون غريباً ولا ماراً بطريق ولا محتاجاً يجتاز بهم إلا أنزلوه وتكفلوا به حتى يظْعن[3]، ويعرض أبو الفرج لشعره، وما كان من مناقضات بينه وبين عمارة بن الوليد، وكان هو الآخر شاعراً، وهو ثاني اثنين أرسلت بهما قريش إلى النجاشي كي يسلم إليهما المسلمين الذين اعتصموا به في الهجرة الأولى المعروفة[4].

ولا نمضي في حوادث السيرة وهذا الصراع الذي نشب بين الرسول واصحابه في المدينة والقرشين في مكة حتى تلمع شخصيات كثيرة في تاريخ مكة الأدبى، فقد أخذ هذا الصراع مظهرين: مظهراً حربياً في بدر واحد والخندق، ومظهرا أدبياً في أهاج كانت مكة والمدينة جميعا تتقاذفان سامها ونيرانها. وأهم من كانوا يقذفون هذه السهام والنيران من مكة الحارث[٣] بن هشام، وعمرو[٤] بن العاص، وهبيرة [٥]بن أبى وهب المخزومي، وضرار [٦] بن الخطاب وأبو سفيان [٧] ابن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن الزعبرى، وهو أهم هؤلاء الشعراء جميعاً.

---

[1] ابن سلام ص٦٠.

[2] أغاني ٦٢/١٦ وما بعدها.

[3] أغاني طبع دار الكتب ٤٩/٩.

[4] المصدر نفسه ٥٥/٩.

[3] ابن هشام ١٩/٣.

[4] ابن هشام ١٥١/٣ وكذلك ١٥٤/٣.

[5] بن هشام ١٣٦/٣ انظر ابن سلام ص ٦٥.

[6] انظر ابن هشام ٥٦/٢، ٩٣/٢، وكذلك ١٣/٣، ١٤٦/٣، ١٥٢/٣، ١٧٢/٣.

[7] ابن سلام ص ٦١ ويقول: له شعركان يقوله في الجاهلية فسقط ولم يصل الينا منه إلا القليل حيث يقول: إنه كان شديد العداوة

وما زال يتناقض هو وحسان بن ثابت حتى أتم الله نعمته على رسوله، ففتحت مكة، فأسلم، ومدح الرسول واعتذر إليه، ومن قوله بعد إسلامه[١]

يارسولَ المليك إن لسانى راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بور

وأظن فيما قدمناه ما يدل دلالة واضحة على نشاط الشعر في مكة في أثناء العصر الجاهلي.

ويلاحظ ابن سلام أن قريشاً تزيد في أشعارها [٢]، وهو يشير بذلك إلى كثرة المنحول فيها. ومن المؤكد أن الشعر كان كل شيء في حياة القوم الأدبية، فعلى الرغم من مجلس شيوخ مكة وما يتطلبه من عناية القرشيين بالخطابة تحت تأثير جدالهم وحوارهم في شئونهم المختلفة، فإنهم لم يعرفُوا بجطابة حينئذ، إنما عرفوا بالشعر. وحوادث السيرة نفسها لا نجد فيها خطباً، وإنما نجد شعراً وشعراء مما يدل على أن الشعر كان هو الفن المألوف عندهم.

ويذكر ابن سلام أن الشعر في مكة كان قليلاً، ويعلل لذلك بأنه لم تكن بين أهلها نائرة [٣]، كما كان الشأن بين الأوس والخزرج في المدينة مثلاً، فإن الحرب بين الحيين هناك ثعرت القوم، وكونت منهم شعراء يتبادلون الأهاجى والنقائض. وفقدان مكة للحروب والحزازات بين أهلها في الجاهلية لا يجعلها تفقد الشعر، ولا يؤخر مرتبتها فيه، إنما يلون شعرها بلون حياتها فمن الطبيعي ألا يكون هناك هجاء كثير لضعف دواعيه، ولكن من الطبيعي بعد ذلك أن يتخذ القوم الشعر في التعبير عن مشاعرهم وعواطفهم، فينابيع الشعر مستقرة في نفوسهم استقرارها في نفوس العرب جميعاً.

ومن المهم أن نعرف أن كثيراً من أحكامنا على الحياة الجاهلية ينقصه الدليل القاطع، فلم يبق لنا من هذه الحياة إلا رسوم وأطلال وخاصة فيما ضاد الإسلام وعارضه. وكلنا نعرف أن الإسلام محا الوثنية في الجزيرة محواً كل ما اتصل بها من شعر وقول؟ ولعلنا لا نخطي إذا زعمنا أن القرشيين عالجوا في شعرهم الوثني حياتهم الدينية، فإن العربي من شأنه دائماً أن يعبر عن سلوكه نى صراحة وصدق، وإن قيام مكة على الوثنية في الجزيرة ليؤكد أن أبناءها

---

[1] ابن سلام ص ٥٩ وابن هشام ٦١/٤.

[2] ابن سلام ص ٦٢.

[3] بن سلام ص ٦٥. ونائرة: عداوة وثارات

نظموا شعراً كثيراً في آلهتهم. وأيضاً فإن حربهم اللسانية للرسول لابد أن تكون قد احتوت على دفاع كثير عن دينهم. وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر[١]وأكبر الظن أنهم بدءوا هذا الدفاع مع حركة التحنُّف التي ظهرت في مكة قبيل الإسلام، فنحن نجد زيد ابن عمرو بن نُفَيل يفارق دين قومه وينظم شعراً يتلومهم فيه على وثنيتهم والهتهم [٢]، ولعلهم نقضوا هذا الشعر وعارضوه بشعر آخر نصروا فيه آلهتهم ووقروها.

وإذا كانت نصوص هذا الشعر الديني انمحت، فقد بقيت نصوص أخرى غير دينية تدل على أن القوم استخدموا هذه الموهبة الفنية في كل ما اتصل بحياتهم، وفى الموضوعات نفسها التي أثرت عن غيرهم من عرب الجاهلية. فنحن نجد لهم مديحاً [٣] وفخراً [٤]وغزلاً [٥] ورثاء [٦] وعتاباً[٧]. وقصيدة قُتيلة بنت الحارث في بكاء أخيها النضر عدو الله ورسوله وعتاب رسول الله على قتله بعد وقعة بدر ذائعة مشهورة، وفيها تقول:

ما كان ضرك لو مننتَ؟ وربما ... من الفتى وهو المَغيظُ المْحنق

النَّضر أقرب من أسرتَ قرابةً ... وأحقهم إن كان عِتْقٌ يعتَقُ

ظلَّتْ سيوفُ بنى أبيه تنوشُه ... لله أرحام هناك تُشَقَّقُ

ويقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغته هذه القصيدة قال: " لو بلغتني قبل قتله لمننت عليه[٨] ". ويدل نسج هذه القصيدة على مدى ما بلغته المرأة القرشية في العصر الجاهلي من إحسان للشعر. ووراء قتيلة نجد كثيرات ينسب إليهن شعر كبنات عبد المطلب [٩]، وهند [١٠] بنت عتبة زوج أبى سفيان، وصفية [١١]بنت مسافر.

---

[1] أغاني ١٣٨/٤.

[2] ابن هشام ٢٤١/١ وما بعدها.

[3] ابن سلام ص ٥٨ ابن هشام ١٨٤/١.

[4] أغاني ٥٥/٩.

[5] أغاني ٤٧/٩ وانظر ٤٩/٩.

[6] ابن هشام ٣٤٧/١ وكذلك ٢٨/٣ وما بعدها.

[7] ابن هشام ٣٥٤/١ وما بعدها.

[8] ابن هشام ٤٤/٣.

[9] ابن هشام ١٧٩/١ وما بعدها.

[10] ابن هشام ٤٠/٣ وكذلك ٧٢/٣ و ٩٧/٣.

[11] ابن هشام ٤٢/٣.

ومكة من هذه الناصية تتفوق على المدينة، فإذا كان ابن سلام لاحظ أن الشعراء قليلون في مكة، وهي ملاحظة تناقش في ضوء ما قدمنا، فإن الشاعرات كن كثيرات. والحق أن مكة كان فيها شعر كثير. واستمرت هذه الموجة الحادة من الشعر والشعراء على ما يظهر في عصر صدر الإسلام وخاصة في عصر الرسول حين كانت المعارك مستمرة بين مكة والمدينة، واستمرت أيضاً بعد الفتح، فإن مكة أسلمت متأخرة، ولم تدخل في الإسلام مبكرة كما دخلت المدينة. ومن هنا كنا نظن أن استجابتها لأوامر الخلفاء الراشدين ونهيهم عن الهجاء والتشبيب بالنساء أضعف من المدينة. وإن كنا نلاحظ من طرف آخر أن دواعي الهجاء بين مكة والمدينة انتهت، وأن هذه الدفعة المرة تلاشت، ومع ذلك فالرواة يروون أن ضرار ابن الخطاب وعبد الله بن الزبعرى "قدما المدينة في عهد عمر بن الخطاب فقصدا أبا أحمد بن جحش الأسدي الضرير، وكان الناس يجتمعون عنده ويتحدثون، فقالا له: أتيناك لتجمع بيننا وبين حسان بن ثابت، فإنه كان ينظم في الإسلام، وكنا ننظم في الكفر، ونريد أن نسمع منه ويسمع منا، فأرسل إليه ابن جحش، فجاءهم وعرض عليه ابن جحش أن يتناشد مع خصميه القديمين ما كانوا ينظمون من شعر قبل فتح مكة، فقبل حسان، وبدأ ضرار وعبد الله بن الزبعرى ينْشدانه، ويسمعانه مما كانا يقولان في هجائه وهجاء المسلمين حتى إذا صار حسان يفور كالمرجل خلياه، وركبا رواحلهما، وانطلقا صوب مكة، فخرج حسان، يجر أذياله إلى عمر، وقَص عليه الخبر، فأرسل في طلبهما، فردا إليه، وقال لحسان: أنشد، فأنشد حسان حتى شفى نفسه، ثم قال: شأنكما الآن، إن شئتما فارحلا، وإن شئتما فابقيا [1] ". ولعل في هذا الخبر ما يدل على أن مكة لم تنس قديمها في عصر الخلفاء الراشدين، ونحن نلتقي فيها حينئذ بأبي دهبل الجمحِي، وقد ترجم له أبو الفرج في أغانيه. على أننا لا نتقدم في العصر الأموي عصر المغنين والغناء، حتى نجد مكة تموج موجا بالشعراء.

كثير من المكيين هاجر إلى المدينة مع الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد الفتح. وهذه هي الهجرة الأولى، وهناك هجرة ثانية مع الفتوح الإسلامية في عهد أبى بكر وعمر وعثمان، ولكن مع ذلك كله استمر لمكة شأنها القديم في الشعر. ومن المعروف أن أكثر الهاشميين والأمويين نزحوا عنها. وبالرغم من ذلك نجد للأولين شاعراً مشهوراً في هذا العصر الأموي وهو الفضل بن العباس اللهبي، كما نجد للآخرين شاعراً مشهوراً هو العرجِي حفيد عثمان.

---

[1] بن سلام ص٦٠

على أنه ينبغي أن نلاحظ أنه إذا كان أكثر هذين البيتين الكبيرين قد هاجر من مكة، فقد بقيت بيوت أخرى، ورجع كثير ممن هاجروا إلى المدينة أو إلى الأمصار الإسلامية. وربما كان أهم بيت بقى في مكة، أو على الأقل بقى أكثره هو بيت بنى مخزوم، وكان لا يقل عن البيتين الأولين أهمية في العصر الجاهلي، ونبغ منه في هذا العصر شاعران معروفان هما عمر بن أبى ربيعة والحارث بن خالد. وبجانب ذلك نجد البيوت الأخرى تمدنا بشعراء ممتازين مثل ابن قيس الرقيات وأبى دهبل الجمحي. ومعنى ذلك أن الخيط الفنى القديم استمر، وأخذت تتشعب منه في هذا العصر الأموي عصر الغناء والمغنين خيوط وشُعب كثيرة.

ونحن نلاحظ من طرف ثان أن مكة إذا كانت فقدت في هذا العصر بعض البيوت كثيراً من الأسر والشخصيات فإنها أخذت تكتسب عنصراً جديداً، لم يكن مفقوداً تماما قبل ذلك، ولكنه يعد على كل حال عنصراً جديداً، ونقصد الموالى الذين أخذوا يتعلمون العربية، ويحاولون أن يتخذوها لسانهم وأداتهم في التعبير. وكانت مكة في الجاهلية تتجر في رقيق إفريقيا، وظهر من هذا الرقيق في عصر الرسول والخلفاء الراشدين شاعر حبشي هو عبد بنى الحسحاس. وإذن فالعنصر الأجنبي في الشعر المكي عرف قبل الفتوح الإسلامية، ولكن الذي نلاحظه الآن هو اتساع هذا العنصر، ودخول أجانب جدد لا عهد للشعر العربي بهم. ونقصد هؤلاء الموالى من الفرس خاصة الذين جلبهم كبار الفاتحين من المكيين. وأشهر الموالى في مكة حينئذ أبو العباس الأعمى وهو السائب بن فروخ مولى بنى الدئِل.

وعلى هذا كان كثير من أهل مكة في العصر الأموي يصطنعون الشعر، فهم يتخذونه أداة تعبيرهم الأدبي، وهم يسكبون فيه عواطفهم ومادة حياتهم. وأخذت مكة تنهض به تحت تأثير الغناء، فلمعت اسماء وشخصيات كثيرة.

(٢) الشعر والأغاني

كل من يعنَى بالشعر العربي من أقدم عصوره إلى الآن يلاحظ فيه نوعاً من الشعر تُتّخذ فيه رسوم وتقاليد خاصة من حيث البدء بوصف الأطلال ثم وصف الصحراء والإبل والانتقال من ذلك إلى الموضوع الخاص من مديح وهجاء. وقد شغلت قصيدةُ المديح الشعراء منذ زهير إلى العصر الحاضر، أما قصيدة الهجاء فإنها بلغت الذروة عند جرير والفرزدق والأخطل من شعراء بنى أمية فيما يسمى بالنقائض.

وبجانب هاتين القصيدتين الطويلتين للمدح والهجاء وما يتصل بهما من عتاب أو رثاء ونحو ذلك توجد مقطوعات قصيرة تُشْغل بالغزل عادة، وقلما تشغل بحماسة أو رثاء أو مديح أو هجاء. وأكثر هذه المقطوعات يدل بصورته على أنه لم يقل لينشد في سوق عكاظ وغيرها من أسواق العرب، وإنما قيل ليغنى، إما في الحرب وإما في السلم.

ومن يرجع إلى نصوص الشعر التي أنشدها ابن هشام في السيرة النبوية لأهل مكة في العصر الجاهلي يلاحظ أن أكثرها يدخل في باب الأغاني فهي في جملتها مقطوعات، وهي في جملتها سهلة خفيفة على اللسان والأذن حتى ليقول ابن سلام: " أشعار قريش أشعار فيها في، يشكل بعض الإشكال [١]". وأكبر الظن أن الإشكال الذي يقصد إليه ابن سلام هو أن أشعار قريش لا تجرى على صورة القصيدة التقليدية الطويلة التي عرفت عن شعراء العصر الجاهلي.

في رأينا أنه كان ينبغي لابن سلام أن يميز عند العرب وعند شعراء المدن خاصة بين نوعين من الشعر: نوع تقليدي يقوم على العناية الشديدة بفن القصيدة من حيث هي قصيدة، فلها مقدمة شرعها أصحاب فن القصيدة، وهي مقدمة الأطلال وبكاء الديار المشهورة ثم لها بعد ذلك رسومها من حيث وصف الإبل والصحراء والانتهاء أحيانا بالحِكَم، ونوع آخر لا تُلْتَزم فيه كل هذه الرسوم والقواعد، فأصحابه لم يعقّدوا فنهم كل هذا التعقيد، إذ هم أهل حياة يومية عاجلة، لا تعطيهم الفرصة لكي يصنعوا القصيدة في حول كامل، كما كان يصنع زهير في حولياته المعروفة [١] ولنقارن بين حياة المكي العادي في الجاهلية وحياة رجل البادية،

---

[1] ابن سلام ص ٦٠.

[1] البيان التبين ١٣/٢ وما بعدها.

فالأخير أمامه الفسحة الكافية من الوقت ليصنع قصيدته كما يريد، فحياته كلها حياة رعى، وأوقاته كلها ملك له، أما رجل مكة فتاجر، تلهيه التجارة عن أداء أي شيء سواها، وليس عنده من الوقت ما ينفقه في أداء التقاليد الفنية المرسومة للقصيدة.

ومن هنا كان المفروض أن لا ينجح فن القصيدة في مكة، وإنما ينجح فن المقطوعات والأبيات القليلة التي يعبر بها الشاعر في سرعة عن حادثة تجرى في حياته أو في الحياة الواقعة تحت بصره. وقد وجدت في مكة كما قدمنا بيوت للغناء كان يغنى فيها القيان من مثل جرادنَي عبد الله بن جدعان، وقيان الحارث بن النَّضر، فإذا قلنا بعد ذلك إن مكة عرفت الأغاني بمعناها التام منذ العصر الجاهلي لم نكن مبالغين، فمن حيث المادة، وهي المقطوعات القصيرة، كانت المادة وافرة، ومن حيث الغناء كان الغناء وافرا أيضا.

وربما كان من أهم الأدلة،التي تقطع بما نزعم، أن هذه المقطوعات المكية التي يرويها ابن هشام في سيرته تكثر فيها الأوزان الخفيفة من مثل الهزج [٢] والمتقارب [٣]، بل إننا نجد فيها كثيرا من مجزوات الكامل [٤] والهزج[٥] والرجز[٦]. ولا ريب في أن هذه ظاهرة تتصل بالغناء مباشرة، إذ من شأن التلحين أن يؤثر في موسيقى الشعر وأن يقصر فيها ويمد فتتم تغيرات وتحريفات كثيرة. وأيضا فإن تاريخ الشعر العربي كله يدل على أن الأوزان الخفيفة إنما تشيع تحت تأثير الغناء، حدث ذلك في العراق في أثناء العصر العباسي، وحدث ذلك في الأندلس أيضاً فإذا رأينا بذور هذه الظاهرة واضحة في مكة منذ العصر الجاهلي آمنا بأن تأثيرات مشابهة كانت هناك. وهذا إذا لم تصلنا نصوص توضح ما كانت عليه مكة حينئذ، أما إذا وصلتنا نصوص تؤكد وجود دور للغناء فإن الأمر يختلف، وأظننا لم ننس بعد هذه الجوقة الكبيرة التي صاحبت جيش مكة في غزوة أحد، وكانت تتألف من بعض نسوة قريش، فكن يضربن على الدفوف، وكانت هند بنت عتْبة تغنّى في أثناء هذا الضرب والعزف بمقطوعات مختلفة، من مثل[١]:

---

[2] ابن هشام ٣٥/٣ وكذلك ص ٧٢، ٨٢.

[3] ابن هشام ٤٠/٣ وهذا البحر كثير جداً في شعر السيرة.

[4] ابن هشام ٤١/٣.

[5] ابن هشام ٤٢/٣.

[6] ابن هشام ١٤٥/٢.

[1] طبري ١٤٠٠/١ و وامق: محب.

إن تُقبلوا نُعانقْ ونفرشِ النَّمارقْ

أو تُدبروا نفارقْ فِراقَ غير وامق

ومعنى ذلك أن مكة عرفت في الجاهلية الأغاني في السلم والحرب، بل أظننا لا نغلو إذا قلنا إنها لم تكد تعرف الشعر التقليدي إلا في مواسم الحج وفى سوق عكاظ حين كان ينشد شعراء البادية شعرهم، وإلا حين اصطدمت بشعراء المدينة في عهد الرسول من مثل حسان بن ثابت كعب بن مالك. وبعد ذلك فإنها لم تثبت لحسان ولا لكعب فيما يظهر، لسبب بسيط، وهو أنها لم تكن تحسن هذا النوع من الشعر التقليدي، إنما كانت تحسن الأغاني التي لا تحتاج إلى تقاليد فنية كثيرة. وربما كان من الأدلة المهمة على أنها كانت تحسنها أنها استطاعت أن تطوع لغة الشعر للغناء بحيث يلاحظ في شعرها ابن سلام هذا اللين الذي يشير إليه، والذي دعاه أن يقول: إن شعر مكة يشكل بعض الإشكال. وأظن أنه لم يعد يشكل علينا هذا اللين الآن، لأننا فهمنا مصدره وعرفنا علته وسببه

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أن مكة، كانت معدة منذ العصر الجاهلي لشيوع الأغاني فيها، فهي من هذه الناحية تتقدم المدينة، كما تتقدم بيئات الشعر العربي الأخرى في العصر الجاهلي. ونحن نعرف أن أهم الموضوعات التي دارت عليها الأغاني في العصر الأموي عند عمر بن أبى ربيعة وأصحابه هي الغزلي وقصة الحب: حياته ووقائعه وموته. ويظهر أن هذه الظاهرة نفسها قديمة، بل إن ما طَبع غزل ابن أبى ربيعة وأصحابه من صراحة يظهر أيضاً أنه كان معروفاً منذ العصر الجاهلي، فنحن لا نتقدم في مكة إلى أواخر هذا العصر حتى نجد عبداً أسود نوبياً يشتهر بالشعر، كان مولى لبنى الحسحاس، وهم بطن من بنى أسد، ولذلك يسمى – كما مر بنا– عبد بنى الحسحاس واسمه سحيم. وكان يصنع الشعر في مقطوعات، أو بعبارة أخرى كان يصنع هذه الأغاني، وكانت فيه لُكْنَة أعجمية، فكان إذا أنشد الشعر يقول أحسنت والله!. وكان ينظم هذا الشعر في الغزل المادي الإباحي. ويقول أبو الفرج: إنه عاش إلى عصر الخلفاء الراشدين، وقُتل بسبب شعره الماجن وحديثه عن المرأة[1]. ومعنى ذلك أن الغزل الإباحي الذي يدفع إليه الجشع الجسدي وجد عند شاعر مكي قديم، وكان في صورة

---

[1] أغاني ٢٠/٢ وما بعدها.

أفزعت الناس، صورة ماجنة تختلف عن صورة الغزل الصريح الذي اشتهر به ابن أبى ربيعة وأصحابه، ولذلك رصده الناس وقتلوه.

ولا نكاد نتقدم بعد عبد بنى الحسحاس حتى نجد في أواخر عصر الخلفاء الراشدين شاعراً مكياً مهما هو مقدمة شعراء العصر الأموي، وهو أبو دهبل الجمحِي، ويقول! أبو الفرج إنه من أشراف قريش، وكان يحمل الحمالات والديات، ويعطى الفقراء، ويقْرِي الضيف [٢] ويتقدم أبو الفرج في ترجمته، فيروى أشعاره ويقص أخباره.

وما نلم بهذه الترجمة حتى نشعر بتمام المشابهة بين أبى دهبل وبين شعراء العصر الأموي من مثل عمر، فأكثر شعره مقطوعات، أريد بها إلى الغناء لا إلى الإنشاد، وليس فيها هذا الجمود عند الأطلال وبكاء الديار، وإنما فيها وصف قصة الحب وما يرتبط بها من عذَّال ووشاة وتباريح والام، وفيها بجانب ذلك تصوير لأحاديث النساء ومجالسهن على نحو ما نبد عند ابن أبى ربيعة.

وليس هذا كل ما يميز شعر أبى دهبل، فنحن نجده يمتاز. بالظاهرة القديمة نفسها التي أشار إليها ابن سلام، ظاهرة اللين والسهولة. وهي طبيعية كما قدمنا، لأن شعراء قريش في الجاهلية والإسلام جميعا لم يكونوا يريدون بشعرهم التعبير عن التقاليد الفنية في أروع صورها كما نجد عند أصحاب المعلقات مثلاً، إنما كانوا يريدون التعبير عن عواطفهم في يسر وسهولة وقرب من مألوف الناس في لغتهم اليومية.

وعاش أبو دهبل حتى عصر ابن الزبير، إذ نرى في شعره مديحاً لابن الأزرق المخزومي واليه على اليمن[١]. وجمعني ذلك أن خيوط الأغاني في مكة امتدت من الجاهلية إلى العصر الأموي عن طريق أبى دهبل الجمحي. فليست الأغاني إذن التي شاعت وذاعت فيما بعد عملاً مبتكرا من أعمال العصر الأموي، ولا ظاهرة جديدة منبتة الصلة بالماضي كما تصور بعض الباحثين، بل هي امتداد واستمرار لظاهرة قديمة.

وكل ما يمكن أن نلاحظ من جديد إنما هو اتساع موجة هذه الأغاني اتساعا شديدا تحت تأثير الغناء والموسيقى التي أصبحت لَهو الناس وملء أوقاتهم على نحو ما صورنا ذلك في

---

[2] أغاني ١١٦/٧.

[1] أغاني ١١٤/٧، ١٢٨/٧، ١٣١/٧ وما بعدها.

فصل الغناء. وأيضاً فالأغاني القديمة لم تكن تُغَنَّى بهذه الرقُمِ الموسيقية (musical notes)التي استحدثها المغنون في العصر الأموي والتي سبق أن عرضنا لها مما نجده منتشراً في صفحات كتاب الأغاني من مثل: ثقيل أول وثقيل ثان وخفيف ثقيل ورمل وخفيف رمل، لسبب بسيط، وهو أن هذه الرقُم ظهرت لأول مرة في العصر الأموي تحت تأثير هذه الحركة النشيطة التي قام بها الموالى، فبديهي ألا يغَنَّى الشعر القديم على ألحانها، لأنه سابق لظهورها.

وإذن فنحن نستطيع أن نميز في تاريخ الأغاني المكية بين عصرين منفصلين: عصر كانت تغنى فيه ولكن لا على نظرية خاصة، أو على الأقل لم تكن تغنى حسب هذه النظرية الجديدة التي وضعها المغنون من مثل ابن مِسجح وابن سريج والغريض ومن لف لفهم، وإن كانت تُغَنَّى على كل حال بألحان، ولكنها لم تكن تخضع لنظرية معينه، وإنما كانت تخضع لأذواق المغنين حسب أمزجتهم، وميولهم. واستمر هذا العصر من الجاهلية إلى أن كان زمن بنى أمية وعمل نقل الحضارات الأجنبية إلى الحجاز عمله. فتراءت أضواء عصر ثان هو عصر الأغاني المكية المؤلفة على نظرية الغناء التي تنتهي أسانيدها في كتاب الأغاني إلى مغنى العصر الأموي في الحجاز. ومعنى ذلك أنهم هم الذين أحدثوها من عندهم وتحت تأثير رقى الغناء العربي في عصرهم.

وهذا العصر الثاني هو عصر النهضة الحقيقية للاغاني المكية وقد لمعت فيه شخصيات كثيرة على رأسها ابن أي ربيعة وابن قيس الرقيات ممن كتبوا شعرهم تحت تأثير النظرية الغنائية الجديدة.

وأخذت تتسع الفروق بين هذه الأغاني والشعر التقليدي القديم. ولعل أول ما يلاحظ من هذه الفروق شدة الالتحام بين المغنين والشعراء، وبذلك أصبح الشعراء يعيشون معيشة فنية غنائية خالصة. ولنضرب لذلك مثلا ابن أبى ربيعة، فأخباره في كتاب الأغاني دائمة تتصل بالمغنين والمغنيات، وكان يلزمه ابن سريج[١] والغريض[٢] يغنّيانه في شعره وكان عنده في البيت جاريتان تقومان له بما يقوم به ابن سريج والغريض وهما بغوم واسماء [٣] ويروى أبو الفرج

---

[1] انظر أغاني طبع دار الكتب ٢٥٨/١ وما بعدها.

[2] أغاني ٣٩٥/٢.

[3] أغاني ٦٥/١.

كثيراً أنه ذهب إلى المدينة ليستمع إلى بعض شعره يغَنَّى في دار جميلة [٤]. ولعل من الطريف أنه كان إذا أراد أن يرسل ببعض شعره إلى صواحبه أرسل به مع المغنين من مثل بديح المليح [٥] والغريض[٦].

وهذا كله معناه أن ابن أبى ربيعة حين كان يصنع أشعاره كان يصنعها تحت تأثير المغنين والمغنيات، أو بعبارة أخرى تحت تأثير النظرية الجديدة للغناء. ولم يكن هذا شأن عمر وحده وإنما كان شأن بقية الشعراء المكيين من مثل ابن قيس الرقيات والعرجِي، فقد كانت حياتهم متحضرة، وكانوا يعيشون للشعر والغناء وهذا الترف الذي أصاب المكيين في العصر الأموي. ونستطيع بذلك أن نفهم كيف أن عمر لم ينزع عن الغزل ومقطوعاته إلى الشعر التقليدي من مديح أو هجاء، فقد كان ثرياً، ولم يكن في حاجة إلى أموال الخلفاء، وكان يعيش هذه المعيشة الفنية الخالصة التي تقوم على الغناء والموسيقى والشعر، فبديهي ألا ينزع عن حكاية عواطفه، وأن يستغرق الحب شعره وخواطره.

وارجع إلى ديوان ابن أبى ربيعة، فستجده كله يشْغَلُ بالغزل، وستجد عمر يتيح لهذا الفن تحت تأثير الغناء كل ما يمكن أن يصل إليه من رقى وازدهار. وحقاً وجد في مكة من شغلوا أنفسهم بالمديح، ولكنهم كانوا أقلية، وكانوا غالباً من الموالى مثل أبى العباس الأعمى الذي كان يتشيع للأمويين، وقلما وجدنا قرشياً يعنَى بالمديح سوى ابن قيس الرقيات. على أن هذا المديح كان عارضة في فنه، ولذلك كان مديحه أناشيد غناء، مما سنعرض له فيما بعد.

والمهم أن نلاحظ الآن أن مكة عنيت عناية بالغة بالأغاني في العصر الأموي، وأن بعض الشعراء أخذ يتخصص في هذا الفن، لا يتعداه إلى غيره من ضروب الشعر التقليدي. وما للمكيين والشعر التقليدي، وما يرتبط به من مديح وهجاء؟ لقد أصبحوا مترفين، وأصبحوا ينعمون بألوان وفنون من الحضارة أزالت ما في نفوسهم من وحشة وخصومة وحدة، وهيأتهم لهذه المعيشة الفنية الخالصة من الشعر والغناء والموسيقى. فطبيعي أن لا يعنوا إلا بالأغاني وأن تكون كل حياتهم وكل فنونهم وكل مواهبهم وكل حواسهم وخواطرهم.

---

[4] أغاني ٢٠٦/٨.

[5] أغاني ٨٨/١.

[6] أغاني ٣٧٦/٢.

(٣) خصائص في الغزل وأغانيه

من يستعرض شعر الغناء عند العرب في جميع عصوره من أغاني المكيين في الجاهلية إلى موشحات الأندلسيين وأزجالهم يجد الحب أهم الموضوعات التي تناولها هذا الشعر. وحقاً تناول الشعر موضوعات أخرى كالحماسة والمديح والفخر والهجاء، ولكن ليس ذلك هو الغالب عليه، إنما الغالب عليه النسيب والغزل.

ونحن لا نصل في مكة إلى العصر الأموي حتى نجد شعراء الأغاني يكادون يقصرون أنفسهم وشعرهم على الحب وحكاية حوادثه ووقائعه، فقد أصبح الغزل الموضوع الأساسي الذي يعالجونه وديوان عمر بن أبى ربيعة خير مثال يصور هذا الجانب، فليس فيه إلا غزل وتشبيب وتصوير لهذه العاطفة الإنسانية الخالدة: عاطفة الحب.

وليس هذا كل ما يميز الأغاني عند عمر وأصحابه ممن عاشوا في هذا العصر، فمن أهم ما يميزها أن فكرة القصيدة كادت تختفي منها إلا قليلاً، لسبب بسيط، وهو أن الشاعر لم يكن يريد أن يصنع شعراً فحسب، وإنما كان يريد أن يصنع شعراً يغَنَّى، ومن طبيعة الغناء أنه لا يحتاج إلى قصائد طويلة، فحسب المغنى أن يغنى طائفة قليلة من الأبيات يحسن تنغيمها وتلحينها. واشتهر ابن محرز- كما مر بنا- بأنه أول من غنى بزوج من الشعر، ثم اقتدى به المغنون [١]

وما من شك في أن هذا الذوق كان له تأثيره في الشعراء فلم تعد هناك حاجة لكي ينظموا قصائد، فالمغنون لا يغنون قصائد، وإنما يغنون مقطوعات، ثم هم يكتفون من المقطوعات بالأبيات القليلة، بل بالبيتين، فحسب الشاعر إذن أن يصنع البيتين والثلاثة.

ومع ذلك فقد تطول المقطوعة عنده، ولكنها على كل حال لا تصبح قصيدة بالمعنى المألوف في الشعر التقليدي عند زهير والنابغة في العصر الجاهلي أو عند جرير والفرزدق في العصر الأموي، وإنما تصبح مقطوعة طويلة إن صح هذا التعبير. وهي مقطوعة تبدأ بالحب وتنهتي بالحب.

---

[1] أغاني ١/٣٧٩.

وليست الأغنية، وإن طالت وأصبحت قصيدة، منوعة الموضوعات كالقصائد التقليدية، بل إن المقدمة المعروفة في القصائد التقليدية مقدمة الأطلال والديار نجدها تختفي في الأغنية إلا قليلا لسبب بسيط، وهو أن حياة أصحابها لم تكن حياة تنقل في البادية، إنما كانت حياة استقرار في المدينة، فلم تعد هناك حاجة عند الشاعر ولا عند من يخاطبهم لكي يبكى لهم ديار حبيبته، ويصف أطلالها وما يجوس خلالها من حمرِ الوحشِ.

ومن هنا اختفت المقدمة التقليدية، مقدمة بكاء الأطلال والديار من الأغاني، وأصبح ناظمها لا يعالجها إلا على سبيل الفكاهة، وفى الحين البعيد بعد الحين فقد أصبح الشعر شعر مدن واستقرار، وأصبح الشاعر لا يتناول فيه حوادث ماضية مع بعض أحبائه اللائى تركهن في بعض المراعى، ثم عاد فلم يجدهن، وإنما يتناول حوادث حاضرة كانت تحدث له مع صواحبه في مكة والمدينة أو في ضواحيهما، إذ يقص حوادثه اليومية مع من شغفن قلبه حباً، وما وقع له معهن من وقائع، وما دار بينه وبينهن من أحاديث.

وقوام هذه الأحاديث وصف الحب نفسه ولواعجه وآلامه وما يرصد المحبين من عذال ووشاة، وهو وصف صريح، فيه مادية تقل وتكثر حسب الشاعر، وحسب من يتغزل بها، وماذا تريد من شعراء متحضرين سادت في مجتمعهم ضروب من الحرية؟ إنهم لا بد أن يفصحوا عن خلجات قلوبهم، كل ما ينطوي في أفئدتهم، أو ينطبع في حواسهم.

لعلنا بذلك نستطيع أن نفهم لماذا كان طابع الأغاني عند عمر بن أبى ربيعة وأصحابه طابعا صريحا. فهم شباب مترف أترفته الحضارة الأجنبية التي غرق فيها إلى آذانه، وأترفت ذوقه وصقّتْه ورققت أحاسيسه ومشاعره، وأخذت تسود مجتمعه طوابع من الحرية الاجتماعية المهذبة التي نجدها دائما في المجتمعات المتمدنة. وينبغي أنه نفرق دائما بين الحرية وبين الفساد الخلقي، فمجتمع مكة لهذا العصر، عصر النظرية الغنائية أو العصر الأموي، كان يسوده ضرب من الحرية، ولكن لم تكن تسوده ضروب التحلل الخلقي كما قد يتراءى لمن يقرأ أخبار عمر بن أبى ربيعة وما نسجه خيال الرواة من مبالغات.

ومهما يكن فقد دار هذا الغزل أو هذه الأغاني حول تصوير الحب في صراحة، وفى حرية لا تؤذى الذوق، فالشعراء يصورون حياتهم الفارغة إلا من هذا الحب وما يجدون فيه من وصبٍ وشقاء وعذاب.

وإذا تركنا الموضوع الذي عالجته هذه الأغاني إلى لغتها لاحظنا أنها لا تساق في عبارة ضخمة غير مألوفة، وإنما تساق في عبارة عادية. واقرأ في ديوان عمر أو في ديوان ابن قيس الرقَيات فإنك تجد لغة قريبة منك كأنما كُتبت بالأمس فليس فيها صعوبة ولا غرابة، ولا تكلف للفظ ولا لعبارة. وهذا من أهم ما يميز الأغاني في جميع عصورها، فهي شعر لم يكْتَب لطبقة أرستقراطية في الأدب، وإنما كتب للشعب وللعامة، ومن أجل ذلك لا يعدل صاحبه إلى لغة الأدب الرفيعة، وإنما ينطلق مع اللغة الشعبية، فهو أدب شعبي إن صح هذا التعبير.

واستعرض النصوص المختلفة التي يروى أبو الفرج أنها أُلّفت في مكة في أثناء العصر الأموي، فإنك تجدها دائماً خفيفة، فالشاعر كان يتخذ لغته غالباً من الحديث الشعبي حتى يخاطب القلوب مباشرة وكأنه كان يريد بشعره غاية شعبية أو بعبارة أخرى كان يريد أن تحمله أفواه الجماهير وأن تتقبله آذانهم، وأن يدور في مجالسهم وأحاديثهم، لأنه من جهة قريب منهم في لغته، ثم هو من جهة أخرى مصور لحياتهم اليومية وحياة شعرائهم التي تجرى تحت أعينهم، فهو كالمرآة الصادقة، يستبين فيها المكي تقاسم عواطفه ووجدانه.

ولا نعجب بعد ذلك إذا رأينا ابن سلاّم يلاحظ على الشعر المكي في الجاهلية ليناً، فتلك صفة استمرت فيه من الجاهلية إلى العصر الأموي، عصر عمر بن أبى ربيعة وأصحابه، لسبب بسيط، وهو أن قدر الشعر كان شعر مدينة اتصلت قديماً بالغناء، وأريد لشعرها أن يغَنَّى وأن تحمله أفواه الناس الذين كانوا يعيشون مع الشعراء هناك. وما من شك في أن هذه الظاهرة، ظاهرة اللين، أخذت تتسع، أو قل أخذ سلطانها يتسع بعد العصر الجاهلي، بحكم التطور الذي أصاب مكة تحت تأثير العناصر الأجنبية التي ملأت شعابها ودورها. وبون بعيد بين مجتمع مكة في الجاهلية ومجتمعها في العصر الأموي، فقد غلبت عليه في العصر الأخير العناصر الأجنبية من فارسية ورومية وأخذ يطْبع بطوابع غريبة عنه. وبديهة أن الذين كانوا يعيشون في مكة حينئذ لم يكونوا يحسنون من العربية ما كان يحسنه أسلافهم القدماء، فقد تحضروا واختلطوا بموال من أمم مختلفة، وعاشروهم، وعاشوا معهم في دورهم وقصورهم. وطبيعة الحياة اللغوية وما يحدث فيها عادة تحت تأثير مثل هذه الظروف، تجعلنا نجزم بأن لغة المكيين تطورت حينئذ، وأنها اتخذت سبلاً مختلفة إلى السهولة والبعد عن الغرابة.

ولعل هذا ما جعل اللغويين ينفرون من الاستشهاد بأشعار المكيين من مثل عمر وابن قيس الرقَيات، فقد كانوا لا يوثقونهم، ولا يعدونهم فصحاء [١] لهذا الاختلاط بالأعاجم الذي صاروا إليه. وليس من شك في أن هذه الأغاني التي كان يريد أصحابها لمجتمعهم أن يحملها وأن تدور بها ألسنته وتتقبله آذانه كانت تصنع بحيث تلائم هذا المجتمع الجديد وما فيه من عناصر أجنبية. وأظن أننا لم ننس ما قلناه في الفصل السابق من أن الذين نهضوا بالنظرية الغنائية عند العرب كانوا من الأجانب مثل ابن مِسجح وابن محرز وابن سريج والغَريض، فطبيعي أن يؤلف لهم عمر وأصحابه الشعر الذي يغنون فيه من لغة سهلة دانية منهم، يستطيعون أن يفهموها في يسر وبدون مشقة.

ومعنى ذلك أن عوامل كثيرة تضافرت على أن تصبح لغة الأغاني المكية في العصر الأموي لغة قريبة من حديث الناس المألوف، فيها لين، وفيها عذوبة ورقة، وفيها هذه الشفافية لا عن الفكر الذي تؤديه بل عن القلوب نفسها التي تعبر عنها. فقد رفع الحجاب بين اللغة والقلوب التي تؤدى عنها من جهة، كما رفع الحجاب بين هذه اللغة وبين القلوب التي تخاطبها. فهي لغة من محيطهم، محيط أحاديثهم الشفوية ومحيط أحداثهم ووقائعهم اليومية. ومن هنا كنا نجد متعة لا تقدر في قراءة هذه الأغاني المكية إذ تعبر عن كل ما في نفس صاحبها تعبيرا صافياً فيه واقعية إلى أقصى حد ممكن، وفيه قرب من قصة القلب الإنساني أيضاً إلى أقصى حد ممكن.

وإذا انتقلنا إلى موسيقى هذه الأغاني، لاحظنا فيها أيضاً ما لاحظناه في لغته، فهي موسيقى شفافة لا تحجب شيئاً مما وراءها، بل إنها تأتى لتكمل التعبير مع المعاني التي تحملها، وهي موسيقى شعراء متحضرين قد أُتْرف ذوقهم وأترف شعورهم، لذلك لا نحس فيها بشذوذ في نغمة ولا بخدوش في نبرة.

وأصبح المثل الأعلى عند هؤلاء الشعراء أن تكون أوزانهم سلة خفيفة حتى تتلاءم وهذا الغناء الجديد وما يطوى فيه من ألحان، وكان الناس يستهويهم الغناء الخفيف، وقلما اعجبوا بالغناء الكامل التام. واشتهر ابن سريج، أهم المغنين في مكة، بأنه يحسن هذا الضرب من الغناء [٢]إحسانا شديدا، فإذا عرفنا ان ابن سريج كان يلزم عمر بن أبى ربيعة، يلحن ا، شعره

---

[1] أغاني ٨٨/٥.

[2] أغاني ٦٨/١.

ويغنيه، عرفنا إلى أي حد كان له أثر في عمر وشعره. ويقول أبو الفرج: إن ابن سريج كان يميل في غنائه إلى الأرمال والأهزاج[١]. وليس من شك في أن هذا هو السبب الصحيح في أن هذين الوزنين الذين يندمجان اندماجاً تاماً في هذه الألحان، وهما الرمل والهزج، يكثران في ديوان عمر كثرة مفرطة، كما تكثر الأوزان الخفيفة من مثل المتقارب والمديد والوافر والخفيف والرجز. كل ذلك ليلائم بين شعره والمغنين من حوله وما يطلبونه لتلحينه، ولم يكن ابن سر يج وحده الذي يطلب الغناء الخفيف، فقد كان الغريض مثله[٢]. وإذن فالمغنيان الكبيران اللذان لازما عمر وغنيا له شعره ولحناه كانا يميلان إلى الغناء الخفيف، فلا عجب إذا وجدنا ديوانه بعد ذلك يمتاز بظاهرة الموسيقى الخفيفة والأوزان السهلة العربية.

وليس هذا كل ما يلاحظ من تأثير للمغنين والغناء على الأغاني في هذا العصر " فنحن نظن ظنا أن هذه الأغاني حدثت فيها تعديلات كثيرة في أوزانها تحت تأثير نظرية الغناء الجديدة. ولنتصور الآن أن الملحنين عندنا والمغنين يسعون جادين إلى إحداث نظرية غنائية جديدة فيها أثر للألحان الأجنبية، اليس ذلك يتطلب من الشعراء جهداً حتى يلائموا بين أوزان شعرهم وهذه ا لنظرية الجديدة؟ وأقصر ما في المسأله وأقلها خطراً، أن المغنين من دأبهم أن يمدوا في حروف بعض التفعيلات أو يهمسوا، وهذا من شأنه أن يحدث تغييراً طفيفاً أو كثيراً في موسيقى المقطوعة التي يغنونها، وما دام الشعراء كانوا يعيشون معهم مختلطين ممتزجين كما قدمنا، فلا بد أنهم كانوا حين يلاحظون ذلك يأتون لهم بمقطوعات جديدة تتلاءم وما يريدون من مد وهمس أو تطويل وحذف.

وقد وضع الخليل بن أحمد في عروضه اسمين لمثل هذه التغيرات هما: الرحافات والعلل، وما نشك في أن هذه الزحافات والعلل إنما تمت تحت تأثير ضروب من الغناء في الجاهلية والإسلام جميعاً، غير أنها اتسعت الآن بحكم هؤلاء المغنين من الأجانب ونظريتهم الغنائية الجديدة.

ولم يكتف الشعراء بهذه التغييرات الداخلية في الأوزان، بل اتجهوا إلى عمل آخر يتضح في شعر عمر وغيره من المكيين في هذا العصر، وهو الحذف في تفاعيل الوزن، ومن هنا كثرت المجزوات لا في الأوزان الطويلة المعقدة فحسب، بل أيضاً في الأوزان الخفيفة السهلة

---

[1] أغاني ١/٢٧٦ وانظر ٤/٢١٩ وكذلك ٦/٢٨٣.

[2] أغاني ١/٢٧٦.

من مثل الرجز والخفيف والمديد والرمل والمتقارب والهزج، فكل هذه الأوزان نجد مجزواتها منبثة في شعر المكيين في أثناء العصر الأموي.

وتم ذلك كله تحت تأثير الغناء وهذا الالتحام الشديد بين المغنين والشعراء من جهة، ثم بين الغناء والشعر نفسه من جهة أخرى. وليست لدينا معلومات واضحة عن مدى معرفة عمر وابن قيس الرقيات والعرجى وأضرابهم لنظرية الغناء التي عاصرتهم، ولكن على كل حال هذه المعرفة ليست ضرورية، فيكفى أن يوجههم المغنون لما يريدون. ومع ذلك فنحن نجد من معاصريهم شاعراً يسمى الدارمى يقول أبو الفرج عنه: إن له أصواتا يسيرة، وقد روى له صوتاً من المائة المختارة لهرون الرشيد وهو قوله[1]:

أَفِقْ يا دارمي فقد بليتا ... وإنك سوف توشك أن تموتا

أراك تزيد عشقاً كلَّ يوم ... إذا ما قلتَ إنك قد برِيتا

والصوت من وزن الوافر. وليس من شك في أن الدارمى هذا يعد مثلاً طريفا للشعراء المكين ومدى تأثرهم بالغناء الجديد، فهو يسعى إلى تعلمه، كي ينظم شعره حسب ما يريد من ألحان، أو كي يقع من المغنين في عصره موقعا حسناً فيغنوه.

وعلى هذا النحو كان أصحاب الأغاني يجدون في أوزانهم تحت تأثير النظرية الجديدة للغناء، وقد رأوا أن يختاروا للمغنين أوزاناً اكثر بساطة وأكثر ألفة، فعمدوا إلى الأوزان السهلة الخفيفة، ولم يكتفوا بذلك بل غيروا في مد حركاتها وتقصيرها عن طريق الزحافات والعلل، ولم يكتفوا بذلك أيضاً،، بل ذهبوا يجزئون فيها ويعذلون حتى تحمل كل ما يريد المغنون لها من إيقاعات وأنغام وألحان.

(٤) شغف المكيين بأغاني الغزل

إذا قرأنا في كتاب الأغاني الأخبار التي يسوقها عن المكيين في هذا العصر شعرنا كأنما كانت هناك خيوط محكمة تصل بين قلوبهم جميعاً وبين قلوب شعرائهم الذين انطلق المغنون يغنُّون في أشعارهم، ويخيل إلى الإنسان كأنما أصبحت أغاني الغزل شغل الناس الشاغل، فهم يملئون بها أفواههم وأسماعهم وأوقاتهم، يشترك في ذلك الرجل والمرأة، والغنى والفقير،

---

[1] أغاني ٤٤/٣ وما بعدها.

والحر والمولى، والعابث المستهتر والعابد الورع. فقد تحولت مكة إلى أغان وغناء، واحتذت الموجة فشملت النساك والفقهاء من أمثال ابن عباس وعطاء ابن أبى رباح وابن جريح. قال أبو الفرج: : بينا ابن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألوه إذ أقبل عمر بن أبى ربيعة في ثوبين مصبوغين موردين أو ممصرين، حتى دخل وجلس، فأقبل عليه ابن عباس، فقال: أنشدنا، فأنشده:

أمن آل نُعمٍ أنت غاد فمبكِر غداةَ غد أم رائح فمهجر

حتى أتى على اخرها. فأقبل عليه نافع بن الأزرق، فقال: الله يا ابن عباس! إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد، نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا، ويأتيك غلام مترف من مترفي قريش، فينشدك:

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضتْ فيخْزى وأما بالعشِي فيخسر

فقال ابن عباس: ليس هكذا قال، قال: فكيف قال؟ فقال: قال:

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشِي فيخصر[١]

فقال ابن الأزرق: ما أُراك إلا وقد حفظت البيتين قال: أجل، وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها، قال فإني أشاء، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها... ثم أقبل على عمر بن أبى ربيعة، فقال أنشِد، فأنشده:

تَشطُّ غداً دار جِيراننا وللدار بعد غد أبعد

وكان ابن عباس بعد ذلك كثيراً ما يقول: هل أحدث هذا المغيري شيئاً بعدنا [١]". وإذا كان ابن عباس مع جلاله ووقاره ومجلسه في الدرس بين سائليه من فقهاء العراق وفقهاء الخوارج يتركهم ليستمع إلى ابن أبى ربيعة وما أحدث في قصة الحب المكي، فغيره من أهل مكة كان أشد إعجاباً بابن أبى ربيعة وزملائه من أصحاب الأغاني بل أشد شغفا وسحراً.

ويظن الإنسان أنه لم يعد في مكة إلا هذا الشعر يتناقله الناس ويغنى فيه المغنون والمغنيات، وكان من عبادهم وفقهائهم من إذا سمعه أخذ يرقص [٢] واستمع عطاء ابن أبى

---

[1] يضحى: يظهر للشمس، يخصر: يبرد.

[1] أغاني١/٧٢.

[2] أغاني ٣١٦/١ وانظر ٢٩٠/١.

رباح يوماً- كما مر بنا- إلى شيء من هذا الشعر فحلف ألا يكلم أحداً بقية يومه إلا به ن وكان ابن جريح مثل أستاذه يفتتن به فتنة شديدة[٣].

وعلما هذا النحو كان ابن عباس وغيره من الفقهاء يروون هذه الأغاني في المسجد الحرام وينشدونها ويستنشدون أصحابها وكان غيرهم من المكيين يرويها في الطرقات والمنعطفات وفى شعاب مكة وبطاحها وفى ضواحيها ومتنزهاتها، إذ لم يكن للقوم من لهو يلهون به سوى الغناء الأغاني التي كانت تقص قصصاً بديعاً رواية الحب المكي وفصولها اليومية.

وكانت الطريقة التي تحمل بها هذه الأغاني إلى الناس في مكة طريقة محببة إلى نفوسهم، ألم تكن الغناء الذي كانوا يفتتنون به هو الآخر فتنة بعيدة؟. وهكذا أخذت تنتشر هذهالأغانيالشغف حولها مما تحمل من معان قريبة كأنها انتزعت من قلوب المكيين جميعاً.

وإنا لنزعم أن المكيين عاشوا حينئذ معيشة كلها شعر وغناء، بل قل كلها طرب وموسيقى، وكانوا في هذا العصر- كما مر بنا- يقولون: " إذا أعجزك أن تُطْرب القرشي، فغنِّه غناء ابن سريج في شعر عمر بن أبى ربيعة فإنك تُرقِصه ". وهكذا كانت مكة في عصر ابن أبى ربيعة كلها طرب وغناء.

واندفع في هذا الطرب الرجال والنساء، فكانت هناك الثريا بنت على ابن عبد الله الأموية، وكان في بيتها من مواليها يحيى قَيل والغَريض وسمية، وكانوا جميعاً يغنونها في شعر عمر وغيره من الغزليات في مكة وأحيانا أيضاً يغنونها في شعر الغزليات في المدينة.

وكان القرشيون يعرفون لعمر وشعره هذا التأثير في أهل مكة رجالا ونساء. حدثت ظبية مولاتها فاطمة بنت عمر بن مصعب أنها مرت بجدها عبد الله بن مصعب وهي داخلة منزله وهو بفنائه، ومعها دفتر فقال لها: ما هذا معك؟ ودعاها، فجاءته، وقالت له: شعر عمر بن أبى ربيعة، فقال: "ويحك تدخلين على النساء بشعر عمر بن أبى ربيعة! إن لشعره لموقعاً من القلوب ومدخلاً لطيفاً، لو كان شعر يسحر لكان هو[١].

ولعل مما يدل على شغف النساء بهذه الأغاني أن نجدهن لا يتحرجن من أن يذكرن فيها وأن يتغنى الشعراء بأسمائهن، ومن هنا تردد اسم الثريا بنت على الأموية في شعر عمر كما

---

[3] أغاني ١/٣١٦.

[1] أغاني ١/٧٨.

تردد اسم زينب بنت موسى الجمحية، وغيرهما من شريفات قريش. وكأنما كن يتخذن من هذه الأغاني ما تتخذه المرأة من الصحافة الحديثة، فهن يعلن عن أسمائهن فيها ويتخذن من الشعراء ما تتخذه المرأة الحديثة من مصورى الصحف، كن يستبقن إلى هذا استباقاً. ولم تشترك فيه المكيات المقيمات وحدهن، بل اشترك فيه المكيات اللائى هاجر آباؤهن إلى المدينة أو إلى دمشق، فكانت تطلبه- إن صح ما يقوله الرواة- السيدة عائشة بنت طلحة[٢]. بل إننا نجد أبا الفرج يروى- كما مر بنا في كتاب المدية- أن أم محمد بنت مروان بن الحكم حجت فأرسلت إلى عمر بن أبى ربيعة ألف دينار كي يذكرها في شعره، وأن أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك حجت فطلبت إلى الشعراء أن ينظموا فيها شعراً، فبعضهم تشجع ونظم، وبعضهم جبن واكتفى بالنظم في جواريها.

وفى هذا ما يدل إلى أي حد كان يشْغَفُ بعض النساء بهذه الأغاني، حتى إن كلا منهن تريد أن تظهر في مرآتها الصافية، إذ كانت هذه المرآة تلمع في أيدي المغنين والمغنيات لمعاناً شديداً قوياً له بريقه المؤثر في نفوس الرجال وقلوبهم. ولم يكن النساء يجدن في هذا عيباً ولا ما يشبه العيب، بل كن يجدن فيه شرفاً، فالنساء دائماً هن النساء، يحبن الثناء على حسنهن والتغنى بجمالهن.

وانساق المكيون جميعاً يصفقون لهذا الشعر الذي يغَنَّى، والذي يطربون لهأي طرب، فهو كل بهجتهم في مدينتهم كل مسرتهم في حياتهم. وانساق معهم الفقهاء والعتاد على ما قدمنا، بل إننا نجد منهم من يساهم في هذا الشعر، فقد كان هناك ناسك من نساك مكة وقُرائها يسمى عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمي، وكان يلقب بالقس لعبادته، فتصادف أن اشترى سلاّمة نبيلٌ من نبلاء مكة يسمى سهيل بن عبد الرحمن، وأحضرها معه من المدينة، وأخذت تغنى في داره، فسمعها القس على غير عمد منه، فبلغ غناؤها منه كل مبلغ، وما لبث أن شغف بها وشهر، فغلب لقبه عليها، وتهيت سلامة القس، وفيها يقول[١]:

سلاّم هل لى منكُم ناصر ... أم هل لقلبى عنكُم زاجر

قد سمع الناس بوجدى بكم ... فمنهم اللائم والعاذر

---

[2] أغاني ١/٢٠١.

[1] انظر الأغاني٨/٣٣٦ وما بعدها.

وأخذت أرجاء مكة تردد هذه القصة الطريفة وتردد ما يقوله فيها القَس، وهي مشفقة عليه، ولكن ماذا تستطيع مكة، وسلامة ليست حرة، وفى ملك نبيل من نبلائها؟ وسعرت هذه الحال القس فلم يستطع إفلاتاً منها، بل لقد اشتعل قلبه ناراً، وامتلأ فؤاده حزنا كمداً، فذهب يقول [٢]

سلاّم ويحكِ هل تُحيين من ماتا أو تَرجعين على المحزون ما فاتا

ولم يلبث يزيد بن عبد الملك أن أرسل إلى سلاَّمة يشتريها من مولاها، فلم يستطع أن يمنعها دونه، ولا استطاع أهل مكة أن يبقوها لصاحبهم، فتولى أسفا يكاد يتميز حسرة ولوعة. ولم يكن له إلا الشعر ينفث فيه حرق قلبه ولواعج فؤاده من مثل قوله[٣]:

ألا قُلْ لهذا القلبِ هل أنت مبصرِ وهل أنت عن سلاَّمةَ اليوم مقْصرِ

ألا ليتَ أنى حين صارتْ بها النَّوى جليس لسلْمى حيث ما عج مِزهر

ويقول أبو الفرج: إن للقس أشعاراً كثيرة يطول ذكرها[١]. وليس من ريب في أن هذه الأشعار كانت تروع المكيين روعة شديدة، فهي من الأغاني التي كانوا يشغفون بها، وهي لعابدهم القس المشهور.

وعلى هذا النحو كان عباد مكة لا يعجبون بالأغانى فحسب، بل كانوا يساهمون فيها، ويشتركون في صنع مقطوعاتها، فهي الشعر الذي يشغفون به شغفاً شديداً، وهي الشعر الذي يطلبه الرجال والنساء والأشراف والشريفات، وهي الشعر الذي يطلبه ابن سريج والغَريض وابن مِسجح ومن لفَّ لفهم على آلاتهم الموسيقية. وكأنما كان أهل مكة جميعاً لا يملكون إلا أن يجروا وراء هؤلاء العزاف يستمعون في نشوة إلى أغانيهم،التي تفيض سحراً وجمالاً، وتذوب رقة وعذوبة.

(٥) أغاني الغزل على كل لسان

لعل من أهم ما يميز العرب في مختلف عصورهم أنهم أمة شاعرة تُعنى بالشعر وروايته وحفظه، وجاء الإسلام وليس لهم رباط يربطهم إلا ما يصنعه شعراؤهم وينشدونه أو يغنونه

---

[2] أغاني ٣٣٦/٨.

[3] أغاني ٣٣٩/٨.

[1] أغاني ٣٣٦/٨.

من قصائد ومقطوعات تردد في كل مكان من الجزيرة العربية. وقد أخذ سلطان هذا الشعر على نفوسهم يضعف بنزول القرآن الكريم على رسول رب العالمين، وزاد في ذلك أنهم شُغِلوا في صدر الإسلام بالجهاد والفتوح، ولكن لا نكاد نتقدم بعد ذلك حتى نجدهم يهدءون ويستقرون ويعودون إلى الشعر سيرتهم الأولى، وكأنهم كانوا يشعرون أنه الحافظ لهم من فنائهم.

وأخذت كل قبيلة تقدم شعراءها وتُهدى شعرهم إلى القبائل الأخرى إما مديحاً وإما هجاء، ودارت هذه المعارك من الشعر التقليدي في إقليم العراق، حيث كان جرير والفرزدق والأخطل يترامون بسهام الهجاء كما كانوا يهدون أزهارهم وباقاتهم من المديح إلى الأمراء والخلفاء. بينما شُغلت الحجاز في مكة وغيرها من الحواضر بالأغانى التي وصفناها فقد انكب الناس عليها انكباباً، وكادت ألا تبق فيهم بقية لهجاء ومديح، فقد شُغفوا بالقصة الكبرى، قصة القلب الإنساني، ولم يكادوا ينظرون في القصص المحلية الصغرى، قصص العرب وحروبهم في الجاهلية على نحو ما نجد في نقائض جرير والفرزدق.

وقد يكون من الطريف أن نعرف أن شعر القصة الكبرى، أو بعبارة أخرى أغاني الغزل كانت أكثر ذيوعاً وانتشاراً من شعر القصص الصغرى، أو الشعر التقليدي، لأنها من جهة تحكى وقائع وحوادث حاضرة تتصل بحياة العصر وما انبث فيه من ألوان ترف، ثم هي من جهة أخرى تُغنَّى وتنقلها ألحان الغناء في العالم الإسلامي.

وفرقٌ بين شعر تتصل حوادثه أو قل أكثر حوادثه بالجاهلية، وقصص المحاربين القدماء، وما كان من أيام وحروب حينئذ، فإن ترك ذلك فإلى مديح السادة والأشراف بصورة قديمة موروثة. فرقٌ بين هذا الشعر وشعر عمر بن أبى ربيعة وأصحابه الذي كان يحكى قصة الحب ووقائعها في مكة في أثناء مواسم الحج وبعد هذه المواسم. وقد أثر عن الفرزدق أنه استمع إلى بعض شعر عمر فقال: (هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فاخطاته وبكت الديار " وقال جرير: " هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه[1].

وهذا اعتراف واضح من زعيمى الشعر التقليدي في العصر الأموي بتفوق عمر وأصحابه حين ولوا وجوههم نحو هذه القبلة الفنية الجديدة، قبلة التعبير المباشر عن خطوات القلب وأوهامه وأحلامه وآلامه أماله. وقد رأينا كيف أن هذا الشعر كان يستهوى أفئدة فقهاء مكة

---

[1] أغاني ٧٥، ١٠٦.

وعتادها، كما كان يستهوى فتياتها وشبانها وشيبها، وأيضاً فإنه كان يستهوى المرأة النبيلة الشريفة، ففيه كانت ترسم صورها، وفية كان يتردد اسمها.

وإذا كان الخلفاء الأمويون اشتهروا بطلبهم للشعراء التقليدين كي يسمعوا مدائحهم فيهم، فإنهم أخذوا منذ يزيد بن معاوية يستقدمون المغنين والمغنيات في الحجاز كي يسمعوهم الأغاني التي يغنون فيها. وأقام الوليد بن عبد الملك حفل استقبال في دمشق لابن سريج كما قدمنا، ثم كان يزيد أخوه فبالى في استقدام مغنى الحجاز، وأكثر من إقامة الحفلات لاستقبالهم [١]، وابتاع حبابة [٢] وسلامة القس [٣]، وعاش معيشة غنائية خالصة طوال حكمه. ولم يلبث أن خرج من بيته وتحت تأثير هؤلاء المغنين وشعرهم الذي يتغنون فيه شاعر ممتاز، هو الوليد بن يزيد، الخليفة المشهور بضربه وغنائه وأصواته في شعره[٤]

ومعنى ذلك أننا لا نصل إلى عصر يزيد بن عبد الملك حتى تتفوق أغاني الغزل نهائيا على الشعر التقليدي في بلاط الخلفاء، بل إنه يبلغ من نفوذها هناك أن يتحول إليها خليفة من خلفاء الأمويين. وليس من ريب في أن ذلك كان أثراً من آثار شيوع الأغاني على كل لسان.

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق مكان إلا وشاع فيه هذا الشعر ودار على جميع الألسنة، وكان من أهم الأسباب في ذلك أنه قيد بألحان المغنين، فكان من يطلب سماع لحن من الألحان عند مغن مشهور في الحجاز يسمع في أثنائه هذه الأغاني الطريفة. وكان الشعراء أنفسهم يعملون على أن يذيعوها عن طريق المغنين، فعمر ابن أبى ر بيعة يلزمه مغنيان مشهوران، هما: ابن سريج والغَريض، فلا يكاد يرسل مقطوعة من الشعر، حتى يلحناها له، وحتى يحفظاها في صندوق أنغامهما. ولم يكولا وحدهما اللذان يصنعان ذلك، فقد كان وراءهما من مغنى مكة من يصنع صنعهما، بل كان يصنع ذلك أيضاً مغنو المدينة، بل لقد كان لذلك أثره في العراق فيما بعد، فإن مدارس الغناء حين ظهرت هناك في العصر العباسي أخذ المغنون يتداولون الألحان القديمة، ويضيفون إليها ألحاناً جديدة، مما أعطى لأصحاب الأغاني فرصة

---

[1] أغاني ١٠٩/٥.

[2] أغاني (طبع بولاق) ١٥٦/١٣.

[3] أغاني طبع دار الكتب ٣٤٣/٨.

[4] انظر ترجمته في الأغاني ١/٧ وما بعدها.

واسعة كي يحفظ شعرهم من جهة، ويذيع وينتشر من جهة أخرى. وقد ر وى أبو الفرج لابن أبى ر بيعة قصيدته التي تبدأ بقوله الذي سبق أن أنشدناه:

تَشُطُّ غداً دار جِيراننا وللدّار بعد غد أبعد

ثم ذكر عقبها من غنوا فيها، فإذا هو يذكر أن الذي أحصى فيها إلى وقته تسعه عشر لحناً، وممن غنوا هذه الألحان من المكيين ابن مِسجح وابن سريج والغريض والأبجر، في حين غنى فيها من المدنين معبد ومالك الطائي ويونس الكائب وأشعب، أما العباسيون فغنى فيها منهم أحمد بن يحيى المكي وإسحاق الموصلي وابن جامع وعلية بنت المهدى[١].

وما حدث في هذه الأغنية حدث في كثير من أغاني الغزلى الأخرى لابن أبى ربيعة وغيره من الشعراء المكيين أمثال ابن قيس الرقيات والعرجى، فقد كان الشاعر يصنع القطعة الغزلية وما يلبث المغنى أن يلحنها، ولم يكن يلحنها مغنو مكة وحدهم بل كان يلحنها أيضاً مغنو المدينة. ومن يرجع إلى أخبار المغنين والمغنيات في المدينة في أثناء العصر الأموي يجد أكثر أصواتهم التي غنوا فيها لشعراء مكة ممن سميناهم. وكان هؤلاء الشعراء أنفسهم يرحلون إلى المدينة يطلبون إلى مغنيها ومغنياتها، أن يلحنوا لهم أشعارهم، وأعطى ابن أبى ر بيعة أحد مغنى المدينة وهو الدلال مائة دينار على صوت من شعره غناه فيه [٢] وكان عمر كثيرا ًما يذهب إلى دار جميلة ليستمع فيها إلى بعض شعره الذي يغنَّى هناك [٣] ولم يكن عمر وحده الذي يذهب إلى دار جميلة ليستمع إلى شعره يغنى هناك، فقد كان يصنع صنيعه العرجِي [٤]

ولم يكن الشعراء وحدهم الذين ينقلون غزلهم ومقطوعاتهم إلى المدينة، بل كان ينقل ذلك أيضاً المغنون أنفسهم، فنحن نجدهم دائماً في المدينة وفى دار جميلة بالذات يتغنون شعر عمر وأصحابه، يصنع ذلك ابن مِسجح وابن سريج والغريض [٥] هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان المغنون المدنيون أنفسهم يرحلون إلى مكة يأخذون عن مغنيها، صنع ذلك منهم كثير، وعلى رأسهم معبد مغنى المدينة الذائع الصيت[٦]. ويخيل إلى الإنسان أنه كانت هناك رحلة

---

(1) أغاني ٨٦/١.

(2) أغاني ٢٩٦/٤.

(3) أغاني ٨/ ٢٠٨.

(4) أغاني ٢٣٠/٨.

(5) أغاني ٢١٠/٨ وما بعدها

(6) أغاني ٥٧/١.

مستمرة بين مغنى مكة والمدينة، فلا يسمع الأولون بمغن مشهور ينشأ في المدينة إلا ويرحلون إلى سماعه، وكذلك لا يسمع الأخيرون بمغن مشهور في مكة إلا ويقصدونه. وهؤلاء وأولئك جميعاً يملئون حقائبهم وصناديق غنائهم بالشعر المكي، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يميز عند المغنين هنا وهناك أي الشعراء كان أغلب عليه، شعراء بلدته أم شعراء البلدة الأخرى، فشعر الأحوص يتردد في مكة كما يتردد شعر عمر وأصحابه في المدينة. غير أن من ينعم النظر يلاحظ أن المدينة، وإن نافست مكة هذا العصر منافسة شديدة في الغناء حتى كادت تسبقها فيه من بعض الوجوه، فإنها لم تستطع أن تظفر هذا الظفر في الأغاني، فكل من يقرأ كتاب الأغاني يلاحظ أن عمر وأصحابه كان شعرهم أشد ذيوعاً وأكثر انتشاراً لا في مكة نفسها بل في المدينة أيضاً. وآية ذلك أن ترجمة الأحوص وأشعاره التي غنى فيها لم تستنفد من كتاب الأغاني إلا صفحات معدودة في حين استنفدت أخبار عمر وأشعاره، وبعبارة أدق كادت أن تستنفد، المجلد الأول من كتاب الأغاني. وليس للمدينة بعد الأحوص شاعر أغان يمكن أن تضعه في صف ابن قيس الرقيات أو العرجِي، بل حتى في صف الحارث بن خالد المخزومي.

وإذن فمكة هي ذات الحظ الأول من أغاني الغزل في الحجاز في أثناء العصر الأموي، هذا الشعر الذي كانت تردده حلوق المغنين في كل مكان من الحجاز: في مكة وفى المدينة، وأيضاً في الطائف، ووادى القرى. أما الطائف، فكان ينزل في أوديتها العرجِي، ويقضى هناك أ كثر أيامه وأوقاته، وكان ينزلها معه فند المغنى[١] وكان كثير من أشراف مكة وشريفاتها ينزلها، وخاصة في الصيف، وكان ممن ينزلها الثريا[٢] بنت على بن عبد الله الأموية ومعها مواليها، وعلى رأسهم الغريض ويحيى قَيل وسمية.

وليس من شك في أن هؤلاء المغنين عملوا على إذاعة أغاني الغزل المكية هناك، وطبيعي أن تعم هذه الأصوات المحببة إلى كل نفس، وأن تدخل كل دار، وأن تغنى في كل منعطف وشعب من منعطفات الأودية وشعابها. وهذا نفسه نلاحظه في وادي القُرى، فقد كان يفد منه المغنون على مكة يتعلمون الضرب والغناء. ومن أشهر من وفدوا منه عمر [٣] الوادي مغنى

---

[1] أغاني ٣٩٣/١.

[2] أغاني ٢١١/١.

[3] أغاني ٨٥/٧.

الوليد بن يزيد، ويروى أبو الفرج عن عمر- كما مر بنا- أنه سمع صوتاً يغنيه بعض البدو فأعجب به إعجاباً شديداً وأخذه عنه، وكان يقول: إنه لم يترنم به جائع إلا شبع، ولم يغن به وهو كسلان إلا نشط، ولم يلحنه وهو مستوحش إلا أنس.

وعلى هذا النحو كان الحجاز كله بحواضره وباديه يتناقل هذه الأغاني المكية، إذ كانت بدعة العصر، وكان الناس يجدون فيها وفيما اقترن بها من ألحان وأنغام متعة لا تقدر. ولم يقف انتشارها عند الحجاز كما مر بنا، فقد أخذت تفد على الشام، بل أخذت الشام تشارك فيها عن طريق الوليد بن يزيد. وكما عرفتها الشام عرفتها اليمن، فقد فر إليها الغريض حين تعقبه نافع بن علقمة والى مكة، وهناك نشر ألحانه، وما حملته من هذه الأغاني[١]

وسبق أن عرضنا للمغنين وما كان لانتقالهم في العراق أواخر هذا العصر وأوائل العصر العباسي من آثار مهمة في نشؤ مدارس غنائية كبيرة هناك، فقد انتقل فن الغناء بمغنيه ومغنياته وهذه الرقُمِ الموسيقية التي استحدثها ابن مِسجح وتلاميذه في مكة، وطُويس وسائب خاثر وتلاميذهما في المدينة، انتقل ذلك كله إلى العراق. وطبعاً انتقل الفن بكل ما رافقه من شعر. ورأينا آنفاً كيف أن مقطوعة لعمر بن أبى ربيعة توارد عليها مغنو مكة والمدينة أولاً ثم مغنو العراق من مثل إسحق وابن جامع.

وأظن في هذا كله ما يدل إلى أي حد عمل الغناء على شيوع الغزل وأغانيه وانتشارها، فقد كان المغنون الحجازيون أنفسهم ينقلونها إلى دمشق تارة وإلى اليمن أو العراق تارة أخرى، ونزل الأبجر المغنى المكي المعروف مصر وبها توفى[٢]،ومعنى ذلك أن هذا الشعر كان يحمله المغنون إلى كل بقعة في العالم الإسلامي.

وهناك ممر آخر غير ممر المغنيين عمل على ذيوع هذا الشعر وانتشاره في الأقاليم العربية، ونقصد الحج والحجاج الذين كانوا يفدون على مكة من مشارق الأرض ومغاربها، فأكبر الظن أن بعضهم كان يختلف إلى دور المغنين في مكة. على أن المغنين أنفسهم كانوا يتعرضون لهم وهم يؤدون مناسكهم، روى أبو الفرج أن ابن سريج كان عند بستان ابن عامر يغنّي:

---

[1] أغاني ٢/٣٩٨.

[2] أغاني ٣/٣٤٦.

لمن نار بأعلى الخَيـ. فـِ دون البئر ما تَخْبو

أَرِقْتُ لذكرِ موقعِها فَحن لذكرها القلب

إذا ما أُخمدتْ أُلقِي عليها المنْدلُ [١] الرطْب

فجعل الحاج يركب بعضهم بعضاً، حتى جاء إنسان من آخر القاطرات فقال: يا هذا قد قطعت على الحاج وحبستهم، والوقت قد ضاق، فاتق الله وقم عنهم، فقام عنهم وسار الناس[٢]. ومعه يزيد بن عبد الملك في بعض المواسم- كما مرت- فأعطاه حلته وخاتمه [٣] وروى أبو الفرج أنه رفع صوته مرة يغنى في موسم آخر فسمعه الركبان فجعلوا يصيحون به يا صاحب الصوت أما تتقى الله؟! قد حبست الناس عن مناسكهم؟ فيسكت قليلاً، حتى إذا مضوا رفع صوته، فيقف آخرون إلى أن مرت قطعة من الليل[٤] ومثل ابن سريج في ذلك الغريض فقد روى أبو الفرج أنه كان يعترض بصوته الحاج وأنه رجع صوته يوماً وغنّى في شعر ابن أبى ربيعة:

أيها الرائح المجِد ابتكارا قد قضى من تِهامةَ الأوطارا

فأصغى الحجاج إليه تعجباً من حسنه، وتكلم الناس، فقالوا: طائفة من الجن حجاج، استحساناً لما سمعوا[٥] ولم يكن مغنو مكة وحدهم الذين يعترضون الحجاج، فقد كان مغنو المدينة يصنعون صنيعهم[٦].

وهكذا كان المغنون الحجازيون يعترضون الحجاج بغنائهم وما يحمل من أغاني وكان يرافقهم في قوافلهم بعض هؤلاء المغنين إما في ترحالهم نحو المدينة أو فيما هو أبعد من المدينة. واشتهر في هذا العصر- كما مر بنا في كتاب المدينة- أحد أصحاب القوافل وهو دحمان بالغناء، وهو من المدينة، ولا بد أنه كان يغنى في قوافله هو وبعض جواريه، فقد استمع الوليد بن يزيد إلى جارية في إحدى قوافله، فاشتراها بعشرة آلاف دينار.

---

(1) المنند: العود.

(2) أغاني ٣١٦/١.

(3) أغاني ٢٥٨/١.

(4) أغاني ٢٦٢/١.

(5) أغاني ٣٦٢/٢.

(6) أغاني ٢٠٨/٢.

ولعل في هذا ما يدلنا إلى أي حد عمل الغناء على انتشار الأغاني وذيوعها. وكان لقرب موضوعها ومعانيها من نفوس الناس أثر في هذا الانتشار والذيوع لا يقل على أثر الغناء؟ إذ كان يتناول أصحابها قصة الحب الإنساني، هذه القصة التي تطرب لها قلوب البشرية في مختلف عصورها، ومختلف أمكنتها وأقاليمها.

واستطاع شعراء الأغاني في الحجاز وعلى رأسهم شعراء مكة أن ينهضوا بها نهضة واسعة من جميع الوجوه، وهي نهضة وسعت طاقة حملها في الصدور، فإنهم- كما قدمنا- بسطوا في أوزانها في موسيقاها، كما قربوا لغتها من لغة الناس العامة، فأصبحت أطوع على الألسنة وأكثر خفة على الأسماع والأفواه. ثم اقترنت بها هذه الطبول والآلات الوترية، فأضافت إليها شَجى إلى شَجى حيناً على نحو ما كان يصنع الغريض[١] أو فرحاً إلى فرح حيناً على نحو ما كان يصنع ابن سريج[٢].

والحق أن الغناء أحاط هذا الشعر بهالة من اللهب المستمر، فإذا هو يلهب القلوب والأفئدة في الأقاليم العربية، وإذا هذه الأقاليم تعنو له جباهها، ولا تلبث الشام أن تدخل في هالة اللهب عند الوليد بن يزيد، ثم تتبعها العراق التي زادت اللهب نيراناً، وأضافت إلى النور أنواراً. ونحن نقف لنعرض أهم من أشعلوا هذه النيران والأنوار في مكة، وهما عمر بن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات.

---

[1] أغاني ٣٦٢/٢.

[2] أغاني ٢٩٠/١.

الفصل الرابع

عمر بن أبى ربيعة

(١) نسب عمر وعشيرته وأهله

هو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة، ويغلب عليه أن ينسب إلى جده، فيقال ابن أبى ربيعة، كنيته المشهورة أبو الخطاب[١]. وينحدر عمر وآباؤه من عشيرة مهمة في مكة، هي عشيرة بنى مخزوم، وكانت أحد البطون العشرة التي تؤلف قريش البطاح، وكان صوتها مسموعاً بين هذه البطون، وفى مجلس شيوخها المسمى بالملأ[٢].

وما زال نجم المخزومين يصعد في أواخر العصر الجاهلي حتى أصبحت لهم شهرة مدوية في الجزيرة العربية، وخاصة هذا الفرع الذي نجم منه عمر، فقد كان أهم فروع المخزوميين، إذ كان آباؤه وأعمامه يعدون من سادة قريش الأولين.

وكان أحدهم وهو هشام بن المغيرة يلْقب برب قريش[٣]وكل من يقرأ السيرة النبوية يعرف اسم أخيه الوليد بن المغيرة. ويقول أبو الفرج إنه كان سيداً من سادات قريش وجواداً من أجوادها، وكان يعجب كيف ينزل القرآن الكريم على الرسول، ولا ينزل عليه أو على عمرو بن عمير الثقفى، وهما عظيما القريتين [٤]، وفيه نزل قوله تعالى: (وقَالُوا لَولا نُـزلَ هذَا الْقُرآن علَى رجلٍ مِن الْقَريتَينِ عظِيمٍ).

وبجانب الوليد وهشام ابنى المغيرة نجد أبا ربيعة جد عمر، وكان بطلاً من أبطال قريش، ولُقّب ذا الرمحين لأنه حارب يوم عكاظ برمحين[١].

---

[1] أغاني ٦١/١.

[2] دائرة المعارف الإسلامية في مادة مخزوم.

[3] ابن دريد ص ٦٣، ٩٤.

[4] بن هشام ٢٨٨/١ انظر تفسير الكشاف (طبع المطبعة البهية) ٣٥٠/٢.

[1] غانى طبع دار الكتب ٦١/١.

ويظهر أن المخزومين اشتهروا بالشجاعة في الجاهلية، ولعل ذلك ما جعل قريشاً تسند ليهم أمر القُبة والأعِنَّة، أما القُبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به جيش قريش، وأما الأَعِنَّة فيقصدون بها أنهم يكونون على خيلها في أثناء الحرب[٢].

وكما تقدم المخزوميون في قريش بالشجاعة، تقدموا أيضاً بالكرم وبذل المال، فقلما يتردد اسم شخص منهم ولا يتردد معه ذكر كرمه. وكانوا- على ما يظهر- من تجار مكة المثرين، ولهذا تتردد في أوصافهم كلمة السيادة، وهي لا تغنى في مكة التاجرة سوى الثراء العريض، وقد نزلت في الوليد بن المغيرة أيضاً الآيات الكريمة ®[٣] (ذَرنِي ومن خَلَقْتُ وحِيدا وجعلْتُ لَه مالا ممدودا وبنِين شُهودا ومهدتُ لَه تَمهِيدا ثُم يطْمع أَن أَزِيد كَلا إِنَّه كَان لآياتِنَا عنِيدا).

وفى هذه الأسرة يلمع اسم عبد الله بن أبى ربيعة، ولقول أبو الفرج: كان تاجراً موسراً، وكان متجره إلى اليمن، وكانت قريش تلقبه " العدل " لأنها كانت تكسو الكعبة في الجاهلية بأجمعها من أموالها سنة، ويكسوها هو من ماله سنة، فأرادوا أنه وحده عدل لهم جميعاً. وكان احمه بحيراً، فلما أسلم عام الفتح سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله.

ويقول أبو الفرج: إنه كان لعبد الله عبيد من الحبشة يتصرفون في جميع المهن، وكان عددهم كثيراً، وعرض على رسول الله أن يستخدمهم، ويستعين، بهم حين خرج إلى حنَين، فأبى [٤]واستعمله الرسول على الجند [٥]ومخاليفها في اليمن، فلم يزل عاملاً عليها حتى قتل عمر بن الخطاب، واستعمله عثمان ابن عفان أيضاً [٦]، وما زال والياً له حتى توفى في أثناء حصاره عام خمسة وثلاثين[٧]

وتزوج هذا السيد المثرى، الذي يقال إن رسول الله اقترض منه بضعة عشر ألفاً يستعين بها في حربه ضد ثقيف، من، امرأتين، أما أولاهما فحبشية نصرانية، جاء منها بالحارث وكان

---

[2] ابن عبد ربه ٤٥/٢.

[3] تفسير الكشاف ٥٠٢/٢.

[4] أغاني ٦٥/١.

[5] الجند: إحدى ولايات اليمن الثلاث وهي: الجند وصنعاء وحضرموت، والمخاليف: جمع مخلاف وهو الكورة.

[6] أغاني ٦٥/١ وما بعدها وانظر أسد الغابة ١٥٥/٣والطبرى ١/٣٠٥٧.

[7] الكامل لابن الأثير (طبع ليدن) ١٦١/٣ وشذرات الذهب لابن العماد (طبع القدسي) ٤٠/١.

صالحاً ديناً [١] وخيراً عفيفاً[٢]، واستعمله عبد الله بن الزبين على البصرة ثم عزله[٣]. وأما الثانية فأم ولد يقال لها مجد سبيت من حضرموت ويقال من حمير، وقد جاء منها بعمر[٤]

وإذن فعمر يمنى الأم قرشي الأب، وهو من سلالة أشراف قريش ونبلائها. كان أبوه أحد سادتها النابهين، وكان أخوه الحارث أيضاً من سادتها المقدمين [٥]، فهو ابن سيادة، وثراء، وشرف، وكرم، وعز شديد.

(٢) حياة عمر وأخلاقه وصفاته

نبت عمر في أسرة قرشية نبيلة، ويقال إنه ولد في العام الذي قُتل فيه عمر ابن الخطاب [٦] وإذن فقد ولد عام ٢٣ للهجرة ولم ينص المؤرخون على مسقط رأسه، وأكبر الظن أنه ولد في مكة، فالمؤرخون يسلكون أباه فيمن نزل مكة بعد الهجرة إلى الله ورسوله [٧] أو من هنا كنا نظن أن مكة أول أرض مش ترابها عمر، واستمر فيها في أثناء نشأته وحياته، يقول في بعض شعره[٨]:

وأنا امرؤٌ بقرارِ مكةَ مسكني ولها هواي فقد سبتْ قلبي

ولم يكد عمر يتجاوز الثالثة عشرة من عمره حتى توفى أبوه كما أسلفنا، وبذلك. بينه وبين أمه الغريبة، فنشَّأته كما تهوى، أو كما تنشِّئ أم سبية فتاها الثري ثراء مفرطاً، تترك له حبله على غاربه ليتناول من اللهو واللعب كل ما تصبو إليه نفسه.

وماذا نريد إلى شاب نُشِّئ في الحلية والزينة؟ إن مثل هذا الشاب لا بد أن ينشأ مفتوناً بدنياه وبما حوله من ملاهيها، وماذا ينقصه؟ إن داره تكتظ بالجوارى والسبايا،التي كانت تكتظ بها

---

[1] أغاني ٦٦/١.

[2] الشعر والشعراء ص ٣٥٢.

[3] طبري ٦٠٢/٢ وأغانى ١١٠/١ وهو الملقب بالقباع.

[4] أغاني ٦٦/١.

[5] أغاني ٦٦/١.

[6] أغاني ٧١/١.

[7] ابن سعد ٣٢٨/٥.

[8] ديوان عمر طبع ليبسك ١٧٦/٢.

دور نبلاء قريش حينئذ، وليس هناك طرفة يراها من طرف الدنيا إلا وهو يستطيع أن يقتنيها، وأن يلهو بها ما شاء له هواه.

وكان عمر جميلاً [١]، ولم يلبث أن تفجر في نفسه هذا الينبوع العذب، ينبوع الشعر، مع فتنة في الحديث ورقة شعور ومزاج، فأصبح حديث الشباب. وكانت موجة الغناء حادة كما قدمنا، وكان الشعر هو القطرات التي تعقدها في أسماع الناس، وكان عمر يحسن إرسال هذه القطرات النفسية، فتعنق به مجتمع مكة تعلقاً شديداً.

وانضاف إلى ذلك أن عمر كان ثريا عظيم الثراء، فحشد ثراءه لفنه، فهو يصنع المقطوعة من شعره، ثم يطلب لها أروع المغنين في عصره، ليغنوه فيها لحناً خالداً، ويجيزهم جوائز مختلفة، فهذا ابن سريج يعطيه في تلحينه لإحدى مقطوعاته ثلثمائة دينار [٢] وهذا الغريض يعطيه في تلحين مقطوعة أخرى خمسة آلاف درهم [٣]، وهذا الدلال يعطيه في تلحين مقطوعة ثالثة مائة دينار [٤]، وهذه جميلة يعطيها في تلحين مقطوعة رابعة عشرة آلاف درهم[٥]. ثم هاتان بغوم وأسماء في داره تغنيانه في كل ما ينظم [٦] وإنه ليعجب بصوت تغنيه جميلة في شعره، فيرسل لها بإحدى جواريه تطارحها أياماً حتى تتقنه[٧].

ويؤمن الإنسان بأن حياة عمر في مكة كانت شعراً وغناء خالصاً، ولم يكن للناس حينئذ من لهو سوى هذا الغناء وما يصاحبه من شعر، فدار ٣١ عمر على كل لسان.

وكان مجتمع مكة حينئذ تسوده ضروب من الحرية المهذبة في لقاء الرجال للنساء، وكانت بعض أحاديث هذا اللقاء تُملأ بالصبابة والغزل، وهل هناك حديث للشباب أمتع من هذا الحديث الذي تروى فيه قصص القلب الإنساني؟.

---

(1) خزانة الأدب للبغدادى (طبع بولاق) ٤٢٠/٢.

(2) أغاني ٣٥٩/١.

(3) أغاني ٣٢٢/٣.

(4) أغاني ٢٩٦/٤.

(5) أغاني ٢٠٨/٨.

(6) أغاني ١٦٥/١.

(7) أغاني ٢٢٢/٨.

ونعجب الآن إذ نسمع عن هذه الأحاديث وتلك المجالس لأننا نريد أن نتصور مكة في صورتها المتحضرة الجديدة قرية بدوية، وننسى أنه دانت لها وللمدينة قبيل هذا العصر كل دولة فارس كثير من دولة الروم، وأن مجتمعها تطور تحت تأثير العناصر الحضارية التي دخلتها. والمجتمع المتحضر هو المجتمع المتحضر في كل عصر وفى كل مكان.

تحضرت مكة أو قل أغرقت في الحضارة، ووجِدت فيها هذه الطبقة اللاهية من الشباب الذين يقضون أوقاتهم في المتعة بالفنون الجميلة، وكانت هذه الفنون في مكة لا تتعدى الشعر والغناء الذي يوقع عليه، فوجدت المجالس التي تتمتع بهذا الشعر وبذلك الغناء، وظهر- ككل مجتمع راق- كثير من السيدات اللائى تغنين بهذين الفنين وأصحابهما.

ولم تكتف بعض بيوتات مكة بالسماع من هؤلاء المغنين في الحفلات، فاقتنت طائفة منهم، على نحو ما نجد عند الثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث ابن أمية الأصغر، فقد اقتنت الغريض ويحيى قَيل وسمية. وطبيعي أن تُعنَى مثل هذه الفتاة بالشعر الذي كان يغنى فيه مواليها، وكان أكثره من شعر عمر. ولعل ذلك ما عجل بالصلة بينها وبينه وهي صلة فنية لا صلة شخصية. إذ كانت الثريا تحسن تذوق الشعر [1]، فطبيعي أن يشغف بها عمر وأن يتغنى باسمها.

وفى كل مكان من حياة عمر نجد ثُريات أخريات، فقد كانت مكة تحفل بالشريفات والنبيلات، كن جميعاً يحتفلن بالشعر والغناء، ويجلسن ليسمعن المغنين أو لينشدهن الشعراء. قال الحارث بن خالد المخزومي: " بلغنى أن الغريض المغنى خرج مع نسوة من أهل مكة من أهل الشرف ليلاً إلى بعض المتحدثات من نواحي مكة، وكانت ليلة مقمرة، فاشتقت إليهن وإلى مجالستهن وإلى حديثهن.. وكان عمر منى قريباً، فأتيته، فقلت له! إن فلانة وفلانة وفلانة- حتى سميتهن كلهن- قد بعثْنَي، وهن يقْرأْن عليك السلام، وقلن تشوقن إليك في ليلتنا هذه لصوت أنشدناه الغريض. وكان الغريض يغنى هذا الصوت فيجيده، وكان ابن أبى ربيعة به معجباً، وكان كثيراً ما يسأل الغريض أن يغنيه، وهو قولي[1]:

أمسى بأسماء هذا القلب معمودا إذا أقول صحا يعتاده عِيدا

---

[1] أغاني ١/٢١٢.

[1] معمودا: هذه العشق، والعيد: ما اعتاده من العشق والهيام.

فلما أخبرته الخبر، قال: لقد أزعجتنى في وقت كانت الدعة أحب فيه إلي، ولكن صوت الغريض ليس له متَّرك ولا عنه محِيص، فدعا بثيابه، فلبسها، وقال: امض، فمضينا نمشى العجل حتى قربنا منهن، فقال لي عمر: خفض عليك مشيك، ففعلت، حتى وقفنا عليهن، وهن في أطيب حديث وأحسن مجلس، فسلمنا، فتهيبنَنا، وتخفرن منا، فقال الغريض: لا عليكن! هذا ابن أبى ربيعة والحارث بن خالد جاءا متشوقين إلى حديثكن وغنائي، فقالت فلانة. وعليك السلام يا ابن أبى ربيعة. والله ما تم مجلسنا إلا بك، اجلسا، فجلسنا غير بعيد، وأخذن عليهن جلابيبهن، وتقنعن بأخمرتهن، وأقبلن علينا بوجوههن، وقلن لعمر: كيف أحسست بنا، وقد أخفينا أمرنا؟ فقال: هذا الفاسق جاءني برسالتكن، وكنت وقِيذًا [٢] من علة وجدتها، فأسرعت الإجابة، ورجوت منكن على ذلك حسن الإثابة، فرددن عليه: قد وجب أَجرك، ولم يخب سعيك، ووافق منا إرادة. فحدثهن بما قلت له من قصة غناء الغَرِيض، فقال النسوة: والله ما كان ذلك كذلك، ولقد نبهتنا على صوت حسن، يا غريض هاته. فاندفع الغريض يغنى الصوت حتى أتى على الشعر كله إلى آخره، فكل استحسنه. وأقبل على ابن أبى ربيعة فجزاني الخير، وكذلك النسوة. فيم نزل بأنعم ليلة وأطيبها حتى بدأ القمر يغيب، فقمنا جميعاً، وأخذ النسوة طريقاً ونحن طريقاً، وأخذ الغريض معنا[٣].

وهذه صورة من صور كانت تحدث في مكة كثيراً، فكان النساء الشريفات يطلبن الغريض وأمثاله ليغنوا في شعر عمر ونظرائه. وكثيراً ما أقام المكيون حفلات كهذه الحفلات التي تقام في عصرنا لكبار المغنين والمغنيات. ولست أقصد الحفلات العامة، وإنما أقصد الحفلات الخاصة. وبلغ من ثراء المكيين وترفهم ألا يقيموا هذه الحفلات كما نصنع الآن لمناسبة زواج أو عقد قران، فقد كانت حياة القوم كلها حفلات، فهم يقيمونها يوميا إذا أرادوا. وكاد المغنون والمغنيات حينئذ يملكون، فيكونون عند سادتهم، يقيمون لهم الحفلات الغنائية كلما شاءوا، وما أكثر ما كانوا يشاءون. فما كنت تسير في شعب من شيعاب مكة أو في ضاحية من ضواحيها إلا وتنطلق الأصوات من حولك. وعلى هذا النحو كاد أن يكون في كل شعب كل ضاحية مسرح. وكانت المسارح حينئذ متحركة، فهذا ابن سريج بعوده يغنى في أي مكان، وهذا

---

[2] وقِيذاً: مريضاً

[3] أغاني ٣٢٧/٦ وما بعدها.

الغريض بقضيبه يرتل أشجى الألحان، وهذا عمر وأمثاله من أصحاب الغزل ينظمون، والمغنون من حولهم يغنون ويلحنون.

وكان لعمر القدح المعلى بين شعراء عصره في. ذلك، فهو سيد من سادات مكة ونبيل من نبلائها، وهذة البيوت من حوله بيوت الشريفات والنبيلات قلما لا تكون هناك واشجة قرابة بينه وبين من فيها، ولذلك كثر اجتماعه بصواحبها كثرت مداخلته لأهلها، فهو يغشاهم الحين بعد الحين مع المغنين يستمع إلى الغناء في شعره والتلحين في نظمه. وأصبح عمر بدغ العصر، فهو طلبة كل بيت من بيوت أقربائه، وهو طلبة كل فتاة تريد أن تظهر في مرآة شعره وفنه. وما أكثر هؤلاء اللائى كن يرِدن الظهور في هذه المرآة الفنية الرشيقة، فقد كانت مرآة متحركة تدخل في كل بيت من بيوت مكة، بل لقد أخذت تدخل في بيوت المدينة وغيرها من بلدان العالم الإسلامي. وفننت السيدات في المدينة بهذه المرآة كما فتن سيدات مكة ونبيلاتها، فقد تعددت صورها وألوانها وتعددت أنغامها وألحانها. وكان يظهر ابن أبى ربيعة في أكثرها ومعه ابن سريج أو الغريض، بل معه أحيانة جميلة ومعبد وغيرهما من مغنى أهل المدينة.

وكل من يقرا في الأغاني يخيل إليه أن عمر أصبح شغل الشباب في المدينة ومكة جميعاً، ولم تكن المسألة مسألة عمر كما قد يتبادر، وإنما كانت مسألة شعره وابن سريج والغريض اللذين يلزمانه، ولا ينفصلان عنه. وكأنما كانت تتكون الفرقة الغنائية لهذا العصر من شاعر دائم هو عمر ومغن هو ابن سريج أو الغريض[1].

ولم يكن نساء مكة والمدينة وحدهن اللائى يعجبن بعمر. وشعره ومن يغنون في هذا الشعر، فقد كانت نساء بنى أمية في دمشق يعجبن بهذا الشعر أو بهذه المرآة، كن يطلبن الظهور فيها حتى أخت عبد الملك بن مروان وزوجة ابنه الوليد- كما مر بنا في غير هذا الموضع- فإنهما طلبتا أن تظهرا على صفحتها.

وكانت هناك مواسم تكثر فيها هذه الطلبات على عمر وغيره من شعراء مكة، ونقصد مواسم الحج، إذ كانت تحشد فيها نساء العرب وفتياتهم، وكان الذوق العربي العام لا يمنع أن يشيد شاعر بجمال امرأة، بل لعل في هذه الإشادة ما يعرف بها وبجمالها، ولذلك كانت تطلبها

---

[1] انظر في ذلك الأغاني ٢/٣٧٦.

المرأة العربية ولا تجد فيها غضاضة، بل على العكس كانت تجد فيها طرافة وإعلاناً عنها وتمهيداً لأن يطلبها الأزواج [٢]،

وهذا الذوق العام هو الذي أشاع الغزل في المرأة العربية الشريفة. وأخذ عمر ابن أبى ربيعة يستغله ويبعد في استغلاله لا في فتيات مكة ونسائها، بل في فتيات العرب جميعاً ونسائهم ممن يحججن إلى مكة وتقع عينه عليهن، وكأنما كانت عينه "عدسة " مكة في هذا العصر، فلا تمر بها سيدة تستحق أن تصور وأن ترسم في المرآة الفنية المكية إلا وتهب عين عمر وتهب عيون زملائه من الشعراء، فيسجلون صورتها. ومن هنا كنا نقرأ دائماً في أخباره أشعاراً وقصصاً عن جميلات الحواج. فهذه عائشة بنت طلحة تحج فتتعرض لها عين عمر أو عدسة عمر فترسمها [٣]، وهذه فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية تحج، فتتلقفها العين أو العدسة [٤]، وهذه زوجة شيخ النحو أبى الأسود الدولى تحج، فتأبى العين أو العدسة إلا أن تتبعها [٥]، وهذه ليلى بنت الحارث البكرية مع وقارها ترسمها العين أو العدسة [٦] وهذه رملة بنت عبد الله الخزاعية تلمحها العدسة أو العدسة فتصورها [١] وهذا باب يطول تعداد الأسماء والشخصيات فيه، فقدد أصبح شغل الشعراء المكيين وعلى رأسهم عمر–، وأصبحت مواسم الحج مواسم للشعر والفن ترسم فيه صور العذارى والسيدات الجميلات، وحتى أميرات بنى أمية كن يرسمن ويصورن وكن يطلبن ذلك– كما ذكر الرواة– ويبتغينه فهنا الشعر الجميل الذي يعرف كيف يصور جمال المرأة، وهنا الأداة البديعة التي تعرف كيف تذيع هذا الشعر، ونقصد أداة الغناء. فهذه الأغاني هي الشعر الذي ينتشر بسرعة على كل لسان، والذي يملأ به الحجاج حقائبهم وهم عائدون إلى أوطانهم وديارهم. فليس غريبا إذن أن يطلبه النساء، وأن يتحول عمرو مغنياه ابن سر يخ والغريض إلى ما يشبه المصور ين في صحافتنا الحديثة، فهم يتخللون الحجاج، وقد يخرجون لاستقبالهم كي يلتقطوا أخبار الفتيات والنساء الجميلات. وأظننا لا نعجب بعد ذلك إذ نقرأ في أخبار عمر– كما مر بنا في كتاب المدينة– أنه "كان يعتمر في

---

[2] أغاني ٢٥٣/١.

[3] أغاني ١٩٩/١ وما بعدها.

[4] أغاني ٨٤/١ وما بعدها.

[5] أغاني ١٤٧/١ وما بعدها.

[6] أغاني ١٥٦/١.

[1] أغاني ٢١٤/١.

ذى القعدة ويحل، ويلبس تلك الحلل والوشى، ويركب النجائب المخضوبة بالجناء، عليها القطوع والديباج، ويسئبل لمته، وتلفئ العراقيات فما بينه وبين ذات عرق محرمات، ويتلقى المدنيات إلى مر، ويتلقى الشاميات إلى الكديد ". أو نقرأ: " خرج عمر بن أبى ربيعة ومعه ابن سريج على نجيبين، رحالتاهما ملبستان بالديباج، وقد خضبا النجيبين ولبسا حلتين، فجعلا يتلقيان الحاج، ويتعرضان للنساء إلى أن أظلم الليل ".

وما يزال عمر وابن سريج صاحبه يستعرضان النساء في النهار على هذا النحو حتى إذا أظم النيل انطلقا إلى كثيب مشرف، فألقى عمر على صاحبه ما لقفته العين أو العدسة، وسرعان ما يضع له ابن سريج اللحن، ثم يغنيه، فيحبس الحجاج عن مناسكهم، ويكاد بعضهم يركب بعضاً– كما مر بنا– من شدة الزحام ومحاولة القرب من مسرح الغناء.

وأظن في هذا ما يصور كيف كان عمر بن أبى ربيعة يحيا في مكة، فهو يحيا حياة فنية قوامها الشعر والغناء، وأمده ثراؤه وترفه بكل ما يلزمه في هذه الحياة، فهؤلاء المغنون من حوله أمثال ابن سريج سماعون لشعره يغنون فيه ويلحنونه، ويرتفعون في هذا الغناء والتلحين إلى مدى واسع من الإحسان والتجويد. وما يزال مع هؤلاء المغنين يتغنى بفتيات مكة ونسائها حتى إذا دار العام وأتى موسم الحج تحول إلى جميلات الموسم يتبعهن ويصورهن. وكان يعيش كما يريد " مهيباً معظماً لا يقدر عليه سلطان ولا غيره [1] ". وأكبر الظن أنه كان أموي الهوى، فقد هجا مصعب بن الزبير حين قتل زوجة المختار الثقفي، ومما قاله في ذلك[٢]:

إن من أعظم الكبائر عندي ... قَتْلَ حسناء غادة عطْبولِ

كُتِب القَتْلُ والقتالُ علينا ... وعلى المحصنات جر الذيولِ

وطبيعي ألا يعجب عمر بمصعب وأخيه عبد الله، فقد كان الأخير خاصة متَزمتاً، ولم يكن يعجب بعمر ولا بشعره [٣] في حين كان يعجب بعمر عبد الملك[٤] "، وقد استصحبه الوليد معه، حين حج، إلى الطائف وغَنّاه الغريض في أشعاره [٥]

---

[1] أغاني ٣٢٧/٦.

[2] الديوان ص ٢٤١ وانظر أغاني ٢٢٩/٩. والعطبول: الجميلة الممتلئة

[3] أغاني ٧٣/١.

[4] أغاني (طبعة الساسى) ١٣٣/١٨ وانظر زهر الآداب للحصرى ١٢٠/١ والأمالى ٦٨/٣ وكذلك الأغاني ٧/١٥ وما بعدها.

ولسنا نعرف تفاصيل واضحة عن حياة عمر الشخصية في أسرته وبيته، كل ما ذكره المؤرخون في هذا الجانب لا يتعدى ذكرهم لزواجه من كلثم بنت سعد المخزومية، وأنها ولدت منه ولدين كان أحدهما يسمى جواناً وماتت عنده[٦]. ويذكرون أيضا أنه تزوج من جمحِية[٧]، ولا يذكرون اسمها، وأكبر الظن أنها زينب بنت موسى الجمحِية، وله فيها غزل كثير[٨] وكانت له بنت تسمى أَمةَ الواحد [٩]، وقد تسمى أمة الحميد أو أمة المجيد[١٠]

وهذا هو كل ما لدينا من معلومات عن حياة عمر الشخصية، وهي معلومات لا تكاد تُبِين عن شيء، إلا أنها على كل حال تدل على أنه لم يتزوج كثيراً. ولسنا ندرى هل تزوج الجمحية بعد وفاة كلثم أو في أثناء حياته معها. وأكبر الظن أن عمر لم يكن قلقاً في حياته الزوجية.

والرواة إنما يمدوننا في الواقع بقصص كثير عن غزليات عمر، أما حياته وتفاصيلها فقلما غنوا بها، وحتى موته نجدهم يضطربون فيه جداً فالمشهور أنه عاش سبعين سنة [١] فإذا كان قد ولد سنة ٢٣ فإنه يكون قد توفى سنة ٩٣ للهجرة. ومعنى ذلك أنه توفى في عصر الوليد بن عبد الملك وأنه لم يلحق عصر سليمان الذي تولى الخلافة سنة ٩٦ ولا عصر عمر بن عبد العزيز الذي ولى الخلافة سنة ٩٩. وهنا يبدو خلط الرواة فنحن نرى بعضهم يزعم أن سليمان- وكانت فيه شدة- نفى عمر إلى الطائف [٢]، وأكثر من ذلك نرى بعضهم يزعم أن عمر بن عبد العزيز نفاه كما نفى الأحوص شاعر المدينة إلى دهلك [٣]، وأبعد من ذلك أن

---

(5) أغاني ١١٢/١ وانظر ٣٩٥/٢ وكذلك ١١٩/١.

(6) أغاني ٢٠٤/١ وما بعدها.

(7) أغاني ٢٢٠/١ وما بعدها.

(8) انظر أغاني ٩٣/١ وما بعدها.

(9) أغاني ٧٠/١.

(10) أغاني ١٦٥/١.

(1) أغاني ٧١/١.

(2) أغاني ٦٧/٩.

(3) أغاني٦٤/٩ وانظر الشعر والشعراء ص ٣٤٩ ودهلك: جزيرة بالبحر الأحمر.

نرى بعضهم يقول إن عمر غزا بالبحر فأحرقوا سفينته فاحترق[٤]. وهناك رواية تزعم أنه تعرض لسيدة فتغزل بها وهي تحج، فدعت عليه، فمات[٥].

وكل هذه في رأينا فروض أملاها خيال الرواة، وخاصة من قالوا باحتراق عمر حتى يجعلوه شهيداً، ولعل أهم ما يدل على وراد ما يقال من أن سليمان نفاه إلى الطائف وأن عمر بن عبد العزيز نفاه إلى دهلك أنه لم يعش إلى عصرهما، فقد روى أبو الفرج في حديث بين الثريا والوليد بن عبد الملك عنه أنها قالت: يرحمه الله [٦] ونحن نعرف أن الغريض فر إلى اليمن حين تعقب نافع بن علقمة المغنين في عهد سليمان ولم يلبث أن توفى هناك، ولو أن ابن أبى ربيعة كان حيا لحمى الغريض من نافع. وفى أخبار الغريض قبل فراره إلى اليمن أن الثريا مولاته ماتت، وأنه أتى كثير بن كثير السهمى، فطلب إليه أن يصنع فيها أبياتاً لينوح بها على الثريا [٧]ومعنى ذلك أن الثريا تُوفِّيت إما في أواخر أيام الوليد أو في أوائل أيام سليمان، ولو أن ابن أبى ربيعة كان حيا لرثاها، ولطلب الغريض أبياته التي ينوح بها عليها من عمر لا من كثير السهمى. ومهما يكن فقد توفى عمر عن سن عالية.

(٣) غزل عمر

يكتظُّ كتاب "الأغاني بالأصوات أو الأدوار التي غُنِّيت في شعر عمر، والتي أشرك في غنائها كبار المغنين والمغنيات في مكة والمدينة في أثناء العصر الأموي. ويكاد الإنسان يؤمن بأن شعره كله قُصِد به إلى الغناء، فقد كانت تغنيه فيه الجواري في بيته، وكان يغني فيه المغنون والمغنيات في دور اللهو. وكان الحجاج كلما ألموا بمكة ملئوا حقائبهم بهذا الشعر وأخباره، وبماذا يقضون أوقاتهم ولياليهم الطويلة بعد انصرافهم من مناسك الحج سوى أن يسْمروا ويتحدثوا ويغنيهم من حين إلى حين مغن أو مغنية بشعر عمر وأصحابه المكيين؟ وما يكاد المغنى ينتهي من غنائه حتى يبدأ السمر، ويبدأ الحديث، ويبدأ القصص عن عمر وأمثاله من أصحاب ا لأغاني.

---

[4] الشعر والشعراء ص ٣٤٩.

[5] أغاني ٢٤٧/١ وما بعدها.

[6] غانى ٢٣٧/١.

[7] أغاني ٢٤٦/١.

ولعل هذا ما جعل القصص يكثر عن عمر، فمخيلة القُصاص لعبت منذ حياة عمر نفسه بأخباره. ومن يرجع إلى ترجمته في كتاب الأغاني يجد كل أغنية تروى له معها قصة. ومن هنا كثر القَصص عن عمر واختلطت صورته على الرواة القدماء أنفسهم كما اختلطت على الباحثين المحدثين، لسبب بسيط، وهو أن حياته امتدت أمام الناس لتتسع للتسلية والترفيه عنهم.

وربما كان أهم دليل على ما تزعم أننا إذا حاولنا أن نتبين خطوط أقاصيص حبه الذي عاناه، والذي ذهب يعبر عنها في أغانيه لم نكد نتبين منها شيئاً واضحاً سوى قصة شغفه بالثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس، وهي- على ما يظهر- إحدى السيدات القلائل اللائى تقدمن لحماية الفن في عصرهن، ولم يكن حينئذ إلا الغناء وهذه الأغاني عند عمر وأمثاله.

ولعلنا بذلك نفهم صلتها بالمغنين من جهة وعمر من جهة أخرى، فقي دارها تخرج الغريض ويحيى قَيل وسمية من المغنين، كما مر بنا، وفي دارها كانت تستقبل أحياناً عمر، وتستمع إلى أحاديثه، وكان لها ذوق أدبي، فكانت تصطنع الشعر [١] ولم تلبث أن تحول اللقاء بينها وبين عمر، وهو الآخر من أشراف قريش ومن أبناء عمها، إلى ضرب من الرضا والمودة، فكانت تكثر من لقائه واستقباله والتحدث إليه حديثاً بريئاً حين تكون في مكة وفى الطائف حين تصيف فيها [٢] وكانت لا تجد في ذلك حرجا، يقول عمر [٣]

لم تَر العين للثريا شبيهاً ... بِمسِيل الثّلاع يوم التقينا

أعملتْ طَرفها إلي وقالت ... حب بالسائرين زوراً ألينا

ثم قالت لأختها قد ظَلمنا ... إن رجعناه خائباً واعتدينا

وكانت الثريا في سعة من العيش [٤] وشُغف بها عمر، وله معها أخبار كثيرة يروى أبو الفرج أطرافا منها، فتارة ترضى عنه [٥]، وتارة تغضب عليه [٦]، وهي في الحالتين تمثل

---

[1] أغانى ١/٢٣٦.

[2] أغاني ١/٢١٢.

[3] أغاني ١/٢٢٨ وانظر الديوان ص ١٠٦.

[4] أغاني ١/٢١٢.

[5] أغاني ١/٢٣٢.

[6] أغاني ١/٢٣٠.

الإدلال والإعجاب بنفسها وبجمالها. وغضبت عليه ذات مرة، وامتنعت أن تلقاه، فتوله عمر، إذ رأى الفتاة الأول في مكة التي تعجب بفنه، :والتي تشتهر بذوقها المرهف انصرفت عنه، وإنه ليفكر فيهامن جهة وفي فنه من جهة أخرى، فنراه يقول[٧]:

من رسولي إلى الثريا فإني ... ضقتُ ذَرعاً بهجرها والكتابِ

سلبتني مجاجةُ المسك عقلي ... فسلُوها ماذا أحلّ اغتصابي

وهي مكْنُونَةٌ تحير منها ... في أَديم الخدينِ ماء الشباب

أبرزوها مثل المهاة تَهادى ... بين خمسٍ كواعبٍ أترابِ

ثم قالوا تحبها قلت بهراً ... عدد القَطْرِ والحصى والترابِ[١]

ويروى أبو الفرج أن ابن أبى عتيق " جمع هذه الأبيات في المدينة، فقال: إياى أراد وبي نوه لا جرم والله لا أذوق أكلاً حتى أشخص، فأصلح بينهما. ونهض، ونهض معه مولاه بلال، فجاء إلى قوم من بنى الدئل بن بكر لم تكن تفارقهم نجائب لهم يكرونها، فاكترى منهم راحلتين وأغلى لهم.. ثم ركب إحداهما وركب بلال الأخرى، فسار سيراً شديداً، فقال له مولاه: أبقِ على نفسك، فإن ما تريد ليس يفوتك، فقال له: ويلك (أبادر حبل الود أن يتقضبا) وما حلاوة الدنيا إن تم الصدع بين عمر والثريا. وقدم مكة غير محرم، فدق على عمر بابه فخرج إليه، وسلم عليه ولم ينزل عن"!راحلته، فقال له: اركب أصلح بينك وبير الثريا، فأنا رسولك الذي سألت عنه، فركب معه وقدما الطائف. وكان عمر أرضى أم نوفل، فكانت تطلب له الحيل لإصلاحها فلا يمكنها. فقال ابن أبى عتيق للثريا: هذا عمر قد جشمنى السفر من المدينة إليك، فجئتك به معترفاً لك بذنب لم يجنه، معتذراً لك من إساءته إليك، فدعيني من التعداد والترداد، فإنه من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون. فصالحته أحسن صلح وأتمه وأجمله [٢]". ورجع ابن أبى عتيق مع صاحبه إلى مكة، ثم تركه إلى المدينة.

وأظن في هذا الخبر ما يدل على حياة هذه الطبقة المترفة من أبناء قريش وبناتها، أو من رجالها ونسائها، فقد تحضر القوم وأصبح هناك الجواري اللائى يدخلن بين الرجال والنساء

---

[7] أغاني ١/٢٢٢.

[1] بهرا: عجباً.

[2] أغاني ١/٢٢٢ وما بعدها.

من أمثال أم نوفل، وأصبحت المرأة القرشية ذات شخصية في المجتمع الجديد. ولسنا ندرى فيم غضبت الثريا؟ هل غضبت لأن عمر تغزل في قرشيات غيرها، أو غضبت لأنه ذكر في غزله ما يشينها؟ أما الرواة فيقولون إنها غضبت عليه لأنه تغزل في رملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية حين حجت [٣] وأكبر الظن أنه لم يذهب عن الثريا أن مثل هذا الغزل غزل عابر، ولذلك كنا نميل إلى أنها غضبت عليه لإحدى اثنتين: إما لأنه لا يحتشم في غزله معها، وإما لأنه بدأ يدور حول فتاة أخرى في مكة لعلها كلثم المخزومية التي اقترن بها، ففي غزله أن الثريا كانت تود لو يكون لها بعلا[١]:

قد تمنيتِ أنني لكِ بعلٌ ... قلت بل ليتني بخدكِ خالا

ولسنا ندرى لماذا لم يحقق ابن أبى ربيعة للثريا أمنيتها، فحياة عمر وحياة الثريا ليست مكشوفة لنا تماماً في ديوانه، يقول[٢]:

خبروها بأننى قد تزوج . ... تُ فظلَّتْ تكاتم الغَيظَ سِراً

ثم قالتْ لأختها ولأخرى ... جزعاً ليته تزوج عشْرا

وأشارتْ إلى نساء لديها ... لا ترى دونهن للسر سِتْرا

ما لقلبي كأنه ليس منى ... وعظامي إخالُ فيهن فَتْرا

من حديث نمى إلي فظيعٍ ... خِلْتُ في القلب من تلَظّيه جمرا

فإذا صح أن هذه الأبيات قالها في الثريا بعد زواجه من كلثم، فإن عمر يكون حينئذ غير وفي لحبه. وفى أخباره أنه كان ملولا طرفاً. على انه ربما كانت الثريا هي التي امتنعت عليه، فإن الرواة يحدثوننا أنها تزوجت من سهيل [٣]ابن عبد العزيز بن مروان، وأكبر الظن أنها اختارته على عمر، ولعله من أجل ذلك تولى أسيفاً يقول [٤]

أيها المنكح الثُريا سهيلاً ... عمرك اللهَ كيف يلتقيان

هي شاميةٌ إذا ما استقلَّتْ ... وسهيلٌ إذا استقلَّ يماني

---

[3] أغاني ٢١٤/١ وما بعدها.

[1] الديوان ص ١٤٠.

[2] الديوان ص ٢٣٤.

[3] أغاني ٢٣٣/١.

[4] أغاني ٢٣٤/١.

ويستمر الرواة، فيقصون علينا لوعة عمر بعد زواج الثريا من سهيل وتدلهه، وحرقة قلبة وفؤاده. ويروون له فيها هذه الأبيات الطريفة التي كتب بها إليها، ينفث فيها شوقه[٥]:

كَتَبتُ إليكِ من بلدي ... كتاب مولّه كَمِدِ
كَئِيبٍ واكِف العيذ . ... ين بالحصرات منفرد
يورقُه لهيب الشّو ... قِ بين السحرِ والكبدِ [١]
فيمسك قلبه بيد ... ويمسح عينه بِيدِ

وبهذه الأبيات تنتهي قصة عمر مع الثريا في كتاب الأغاني وفى ديوانه. وهي القصة التي تتضح خطوطها بين قصصه. أما بعد ذلك فلا نكاد نجد له على ألسنة الرواة قصة تتكامل.

على أن من يرجع إلى أخبار عمر في الأغاني يجد اسم سيدة أخرى أكثر من الشعر فيها والتعلق بها، وهي زينب [٢] بنت موسى الجمحية التي اقترن بها كما مر بنا. وتدل أخبارها في الأغاني أنها من أهل المدينة، قابل أبى عتيق هو الذي عرفه بها وأثنى على حسنها وجمالها [٣] وتتردد في شعره بها أسماء المواضع بالمدينة مثل الصورين، وهو بالبقيع في المدينة. ويظهر أن أول لقاء بينهما كان في مكة، فإنها خرجت مع أخيها إلى الحج، فتعرض لها عمر وكفه أخوها قدامة أول الأمر [٤] ولكن أخته لم تلبث أن تعرضت له، مدلة بجمالها وما وهبته من إغراء وفتنة، يقول عمر[٥]:

مازال طَرفي يحار إذ برزتْ ... حتى رأيتُ النقصان في بصري
أبصرتُها ليلةً ونشْوتها ... يمشِين بين المقَامِ والحجرِ
قالت لتربٍ لها تُحدثها ... لنفسدن الطوافَ في عمرِ
قومى تصدي له ليعرفنا ... ثم اغمزيه يا أختَ في خَفَرِ

---

[5] أغاني ١/٢٣٥.

[1] السحر: الرئة.

[2] أغاني ١/٩٣.

[3] أغاني ١/٩٥ وانظر الديوان ص ٤٧- ٤٨.

[4] أغاني ١/١٠٥ وكذلك النعف، انظر أغاني ١/١٨١ وهوموضع بالقرب من المدينة.

[5] أغاني ١/٩٨.

قالتْ لها قد غمزته فأبى ثم اسبطَرتْ[٦] تسعى على أَثرى

من يسقَ بعد المنام ريقتَها يسقَ بمسك وبارد خَصِرِ[٨]

وانعقدت أواصر المودة بينهما فيما يظهر في أثناء الموم. فهي من شريفات قريش ونبيلاتهم اللائى يبرزن للرجال ويتحدثن معهم. وهي جميلة، يغرى جمالها كل من رآها بالنظم فيها. وقد أعجبj بعمر، كما أعجبت به من قبل فتاة مكة الثريا، فالتقت به وأكثرت من اللقاء، وكان المجتمع وما أصابه من تحضر يبيح ذلك، ولا يجد فيه ما يشين الفتاة. وأخذ عمر يستخدم أفاعيه أو بعبارة أخرى جواريه اللائى كان يرسل بهن إلى من يهواهن، يقول في بعض غزله بها[١]:

لقد أرسلتُ جاريتِي وقلتُ لها خُذِي حذَرا

وقولي في ملاطفة لزينب نَولى عمرا

فهزتْ رأسها عجباً وقالت من بِذا أمرا

أهذا سِحرك النسوا ن قد خَبرنني الخبرا

وفى أخبار الأغاني ما يدل بوضوح على أن أهل زينب لم يعجبوا بغزل عمر في فتاتهم، فطلبوا إليه من أول الأمر أن لا يتغزل بها. ولعل ذلك ما جعله يكنى عن اسمها كني مختلفة، فقد كنى عن اسمها بهند، وتنبه أبو الفرج أو تنبه الرواة لذلك، فأضافوا إلى أصواته في زينب أصواتاً نوه فيها بمن تسمى هنداً [٢] ومعنى ذلك أنهم لاحظوا أنه يريد بهند في غزله زينب الجمحية. ومن يتتبع الأخبار التي تقرن بزينب يجدها تقرن بهند، فعمر يذكر أنه أظل زينب في يوم ماطر معه بثوب مورد:

وما نلتُ منها محرماً غير أننا كلانا من الثوب المورد لابس

ونراه يكرر ذكر هذه الحادثة في غزله بهند [٣] وإذن فهند هي نفسها زينب الجمحية. وقد أكثر من الحديث عنها في ديوانه، وتردد اسمها في أصوات المغنين بمكة والمدينة. وربما كان

---

(6) أغاني ١٠٣/١.

(8) خصر: شديد البرودة.

1) أغانى ٩٣/١.

(2) أغاني ٩٩/١.

(3) أغاني ١٨٣/١.

مما يدل أيضاً على أن هندا هي نفسها زينب أننا نجد جارية تسمى " أسماء " تقترن في الغزل بهما جميعاً، وكانت جارية لزينب [٤]

وهى غير أسماء جارية[١] عمر. ومن الرسل أيضاً بينهما بشرة[٢]! وأَروى [٣] وسليمى [٤] وفى هذا ما يدل على أن الرواة لم يوفقوا حين زعموا أن عمر تغزل فيمن تسمى هنداً [٥] بنت الحارث المرية، فهو اسم لفقوه حين وجدوا اسم هند يشيع في شعره، ولم يجدوا أخباراً تكشفه لهم. ولسنا نشك في أنها هي نفسها التي أرادها عمر بقوله[٦]:

قال الخليطٌ غداً تصدعنا	أو بعده أفلا تُشَيعنا
لِتَشُوقنا هند وقد علمتْ	علماً بأن البين يفزِعنا
عجباً لموقفنا وموقفها	وبِسمعِ تِربيها تراجعنا
ومقالِها سِر ليلةً معنا	نَعهد فان البين فاجعنا
قلتُ العيون كثيرةٌ معكم	وأظن أن السير مانعنا
لا بل نزروكم بأرضكم	فيطاع قائلُكم وشافعنا

وهذه القطعة في رأينا قالها حين همت زينب بالمسير من مكة، أما ما يزعموه الرواة من أنه قالها في فتاة لمحمد بن الأشعث فهو غير صحيح. وأكبر الظن أنه يريد بالعيون التي معها أخاها قدامة الذي مر ذكره. وأتبعتها نفسه إلى المدينة، والتقيا في الصورين مراراً.

وليس اسم هند هو الاسم الوحيد الذي اصطنعه لزينب، وكناها به، فقد كناها على ما يظهركنى مختلفة. ولعل أهم كنية كناها بها بعد هند كنية نعم. واسم نعم هو الاسم الثاني بعد هند الذي يدور في ديوانه وشعره. وتنبه أبو الفرج إلى ان نعماً هذه جمحية [٧]، ولكنه لم يربط

---

(4) الديوان ص ١٥٣.

(1) أغاني ١/١٦٥.

(2) الديوان ص ٨٩.

(3) الديوان ص١٣٠

(4) الديوان ص ٥٥ ومن الرسل أيضا بينهما قريب أو قريبة. انظر الديوان ص ١١ ص ١٠٦، ص ١٣٢.

(5) غانى ١/١٥٤ وانظر ١/١٧٥.

(6) أغاني ١/٩٠.

(7) أغاني ١/١٥٤، ١/١٧٥ وانظر ١/١٠٥.

بينها وبين زينب، وكان ينبغي أن يلتفت إلى ذلك، فحديثه إلى نعم فيه نفس الصبابة التي نجدها في حديثه إلى هند أو قل إلى زينب. وأيضاً فإن بعض القصص الذي يروى عنه مع هند يروى له مع نغم [١] وتنبه أبو الفرج نفسه في موضع آخر من الأغاني إلى أن ايسم نعم اسم رمزي [٢]، وأن عمر قد يسمى صاحبة هذا الاسم باسم ذات الخال [٣] وأظننا لم ننس صلة ابن أبى عتيق بحب عمر لزينب، فهو الذي وصفها له. ومن هنا كان ابن أبى عتيق[٤] يتردد في غزل عمر بالثلاث، أو بالفتاة ذات الأسماء الثلاثة زينب وهند ونعم، بل ذات الأسماء والكنى الكثيرة، فهي تكنى هنداً ونعما وذات الخال وتكنى أيضاً أو تسمى جملا [٥] فهو يذكر مع جمل البلاط وهو من نواحي المدينة، وتكنى أيضاً أو تسمى رامة[٦]. وجاء في بعض الأصوات:

حبكم يا آلَ نُعمٍ قاتلي ظهر الحب بجسمي وبطَن

واستبدل الشطر الأول في بعض الروايات هكذا (إن حبى آل ليلى قاتلي[٧]. ولعل في هذا ما يكشف عن العلاقة بين نعم وليلى في الديوان، فليلى اسم آخر سميت به نعم أو سميت به زينب. وإذن فلسنا في حاجة إلى هذا القصص الذي يروى عنه وعمن تسمى ليلى بنت الحارث البكرية، فهي مثل صاحبتها هند بنت الحارث المرية، إنما اجتلبت لتفسر هذا الاسم ليلى الذي يدور في شعر عمر.

ومن يقف على مدى ما صنعه الرواة في أخبار عمر من تلفيق لأسماء فتيات ونساء تغزل فيهن يعرف إلى أي حد تصاب الرواية الأدبية في كتاب الأغافى بالاضطراب. ولعل هذا الاضطراب لا يظهر في أخبار ظهوره في أخبار عمر، فقد كثرت الأصوات التي غُنِّيت من شعره، وبالغ هو في الرمز عن صاحبته زينب فاضطرب الرواة، وأرادوا أن يثبتوا له فتيات ونساء تغزل فيهن، ولم يجدوا أمامهم سوى التلفيق، وأن يصطنعوا مثل هذه الأقاصيص.

---

(1) انظر أغاني ٤/٢١٣.

(2) أغاني ٩/٢٣٩ وما بعدها.

(3) أغاني٩/٢٣٩.

(4) انظر أغاني ١/٩٥ وما بعدها وكذلك ٩/٢٤٢ وهو يذكره تارة باسم بكر وتارة باسم عتيق. انظر أغاني ٩/٢٤٢ والكامل للمبرد (طبع رايت) ص ٣٧٣ وانظر الديوان ص ١٩.

(5) الديوان ص ١٠٧.

(6) انظر أغاني ٨/٢١٩. وقد كنى عمر عن الثريا كثيراً باسم الرباب. انظر الديوان ص ١٨٠ إذ تنظر الديولت في مقطوعة واحدة.

(7) أنظر أغاني ١/١٥٧ وانظر هنا الهامش.

وكانت زينب كالثريا مترفة غاية الترف، فبيتها يكتظ بالجوارى، ويكاد عمر لا يذكر لقاء بينه وبينها دون أن يذكر من كان معها من جواريها الحسان، وما تغرق فيه من زينةالحلي وما يلون حياتها من نعيم، حتى ليقول[١]:

لو دب ذَرٌّ فوق ضاحى جِلْدِها ... لأبان من آثارهن حدور

فهى منعمة مترفة مبالغة في النعيم والترف، حتى إن الذر لو علق بجسمها لبانت فيها من آثاره كلوم وحدور وجروح. وأظن في هذا التصوير منتهى النعيم والترف.

ويظهر أن زينب تعلقت بعمر وتعلق بها عمر تعلقاً شديدألم يكد يبق فيه لأحد دونها بقية من ود أو حب، حتى ليقول[٢]:

ما أرى ما بقيتُ أن أذكر المو ... قفَ منها بالخَيفِ[٣] إلاشجانى

لم تَدع للنساء عندي حظا ... غير ما قلتُ مازحاً بلساني

هي أهلُ الصفاء والود منى ... وإليها الهوى فلا تَعذُلانى

حين قالتْ لأختها ولأخرى ... من قطينٍ مولَّد: حدثانى

كيف لى اليوم أن أرى عمر المر ... سِلَ سِرا في القول أن يلقافى؟

قالتا نبتغى رسولاً إليه ... ونُمِيتُ الحديث بالكتمان

إن قلبي بعد الذي نلتُ منها ... كالمعمى عن سائر النسوان

وهذه اللهفة على زينب وأوقاتها ومجلسها نجدها دائما في غزله، وقد جذبته خيوط جمالها إلى موطنها المدينة، فذهب إليها واستطاع لقرابته منها، إذ يخاطبها دائما بابنة العم، أن يصل إليها وأن يظفر منها بمجالس مع صواحبها، واسمعه يقول[٤]:.

أيها الكاشح المعير بالصر ... م تزحزح فما لها الهِجران

لا مطاع في آل زينب فارجع ... أو تكلّم حتى يملَّ اللسان

نجعل الليلَ موعداً حين نُمسى ... ثم يخفى حديثَنا الكتمان

---

[1] لديوان ص ١٥ وانظر في حيها أغاني ٩٥/١.

[2] أغاني ٩٤/١.

[3] الخيف: موضع عند منى.

[4] أغاني ١٠٢/١.

كيف صبرى عن بعض نفسى وهل يصـ . بر عن بعض نفسه الإنسان

فعمر لا يخشى الكاشح في آل زينب، فإنهم لا يأبون على ابن عمهم لقاء فتاتهم، إذ كانت من شريفات المدينة اللائى من حقهن أن يلقين الرجال وأن يبرزن لهم. ومر أن مجتمع مكة ومجتمع المدينة حظيا بضروب من الحضارة أتاح للمرأة حظوظاً من الحرية، وأعطاها حقوقا في الحياة. ومهما يكن فقد أغرم بصاحبته وتدله، بها وذهب يروى قصة حبه لها والموضع الذي رآها فيه لأول مرة وهو الخيف،. واستمر يردد ذكره في شعره[١]

دِين هذا القلب من نُعمِ بسقامٍ ليس كالسقمِ [٢]

إن نُعماً أقصدتْ رجلاً آمناً بالخَيفِ إذ ترمى [٣]

وليس من ريب في أن السهم تعمق فؤاده حتى الشغاف، فإن عمر تبع صاحبته طويلاً في شعره وتبعه المغنون يغنون هذا الشعر الذي يحدثه عمر في زينب تارة باسمها الحقيقى، وتارة أخرى باسمها المستعار هند أو نُعم.

ومهما يكن فنحن نستطيع الآن أن نفهم أغاني عمر في صورة مقاربة، فقد دارت حول فتاتين قرشيتين، أو قل دار معظمها، وهما الثريا وزينب. وكان شغفه بالثانية أشد عنفاً فإنها استغرقته، استغرقت قلبه وفؤاده، وكادت تنسيه من عداها من بنات جنسها ونساء قومها من القرشيات.

ووراء هاتين الفتاتين في شعر عمر تأتى صور أخرى لقرشيات وغير قرشيات: ولكنها صور عابرة التقطتها مخيلة عمر في أثناء الحج. وفى ذلك يقول في بعض شعره[٤]:

ولم أَر كالتجمِير منظر ناظرٍ ولا كليالي الحج أَفلَتْن ذا هوى

فكم من قتيلٍ ما يباء [٥] به دم ومن غَلِق [٦] رهناً إذا لفّه منى

ومن مالئٍ عينيه من شيء غيرِه إذا راح نحو الجمرة البِيض كالدمى

---

[1] أغاني ٤/٢١٥.

[2] ين: جوزى وكوفئ.

[3] أقصد السهم: أصاب فقتل.

[4] أغاني ٩/٦٢.

[5] يباء به: يقتل به.

[6] غلق الرهن: لم يستطع الراهن افتكاكه.

ويظهر من شعر عمر ونظرائه أنهم كانوا يرصدون الحواج، وكانوا يفردون للجميلات منهن صفحات في دواوينهم. وأخذ الشاعر المكي في هذه العصور يشبه تمام الشبه صحفيى عصرنا الحديث، فكما أن هؤلاء يعنَون بأن يمثلوا في صحفهم صور المجتمع وأخباره بنسائه وفتياته، فكذلك كان شعراء مكة في العصر الأموي وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة، فقد كانوا يعنون بأن يذيعوا صور نبيلات قريش اللإئى يفدن على مكة وكذلك نبيلات العرب، وأصبح عمر يرى في الحج فرصة هائلة للاستعراض: استعراض الفتيات والنساء ممن اشتهرن بالجمال في بلدانهن أو في أنحاء العالم الإسلامي، وكان يجد في تتبعهن واستعراضهن لذة لاتقدر، ولعل ذلك ما جعله يقول[١]:

ليت ذا الدهر كان حتْماً علينا كلَّ يومين حِجةً واعتمارا

وعتب عليه عبد الله بن عمر حين أنشده هذا البيت، وقال له: أما تتقى الله؟ فقال له عمر: بأبى أنت وأمى، إنى وضعت ليتاً حيث لا تغنى. فعبد الله ابن عمر يغجب نه إذ يدعو أن تكون الأيام كلها حجا وعمرة، وهو لا يريد الحج والعمرة من حيث هما، وإنما يريد ما يحملان إليه من النسوة الجميلات. ومر في غير هذا الموضع أنه كان يخرج في طريق ذات عرق يتلقى العراقيات، وفى طريق الكديد يتلقى الشاميات وفى مر يتلقى المدنيات، ويعود معهن فيشترك في رمى الجمار والطواف ليطلع عليهن. يقول في بعض شعره [٢]

يقصد الناس للطَّواف احتساباً وذنوبى مجموعةٌ في الطوافِ

ويخيل إلى الإنسان أن عمر لم يترك قرشية جميلة تحج إلى مكة دون أن يتغنى بها، ويصف محاسنها وفتونها.

وهذا كله إنما كان يأتي في شعره عرضاً، وإن كان عمر على ما يظهر، قد بالغ في الوقوف عند الحواج وفي استعراضهن بنفس الشكل الذي قد نجده عند بعض الصحفين حين يعلن عن بعض النساء اللائى لايحببن الإعلان عن أنفسهن.

---

[1] أغاني ٦٣/٩.

[2] عيون الأخبار ١٠٧/٤.

ووراء فتاتى عمر وحواج قريش وبعض شريفات العرب، نجد في أغانيه غزلاً في جاريتيه بغوم وأسماء [١] وأكثر من ذكر الثانية والتشبيب بها واختلطت صورتها علي الرواة، فظنوا أنما سيدة حرة أحياناً[٢].

وعلى كل حال الصورة الأساسية في شعر عمر هي الغزل بالثريا وزينب وقد عبر عما كانا فيه من ترف ونعيم، وما تميز به المجتمع حينئذ من حرية تحت تأثير الحضارة الجديدة التي دخلت مكة والمدينة وما صاحبها من الجواري الأجنبيات.ولس من ريب في ان شعر عمر طريف من هذه الناحية إذ يصور تصويراً دقيقاً مبلغ ما أصاب المرأة القرشية في عصره من تحضر، وما طوى في هذا التحضر من ترف ونعيم. وكان ذوق عمر نفسه ذوقاً مترفاً غاية الترف، فيه دقة، وفيه حساسية شديدة، وفيه أدب وظرف، واستمع إليه يقول[٣]:

ليتَ حظّى كطَرفة العين منها ... وكثير منها القليلُ المهنَّا

أو حديثٌ على خلاء يسلّى ... ما يجن الفؤاد منها ومنّا

كَبرتْ رب نعمةً منك يوماً ... أن أَراها قبل الممات ومنّا

فهو يرق في أمانيه رقة شديدة هي رقة الرجل المتحضر الذي نشأ في الترف والزينة، بل الذي غرق فيهما، غرقت عينه وغرقت نفسه.

وارجع إلى هذا الشعر الذي أنشدناه كله لعمر، فإنك ترى فيه آثار هذا التحضر وهذا النعيم سواء في أحاديث المرأة التي يقص أحاديثها، أو في تصوير نفسيتها ووصف خواطرها. وعمر نفسه يتراءى شابا مترفاً غاية الترف، فيه إدلال المترفين وفيه تيههم وعجبهم. ولعل لنشأته آثرا في ذلك، فقد كان وحيد أمه، وكانت غريبة عن مكة، فكان كل شيء في حياتها. وورثاً معا ثراء عظيماً، فدللته، ونشأته على الإدلال والإعجاب با النفس، وتصادف أنه كان جميلاً. وليس بين أيدينا من الوثائق ما نعرف به إلى أي حد كانت أمه تغنى بملابسه وعطوره، ولكن تقدم أنه كان يغنى، هو كبير، بحلله وزينته وطيبه. وأكبر الظن أنه بدأ ذلك في حداثته واستمر معه في بقية حياته. وماذا تريد إلى أم مات زوجها، ولم يبق لها من دنياها

---

[1] أغاني ١/١٦٥.

[2] أنظر أغاني ١/١٣٤.

[3] أغاني ١/١٤١.

إلا هذا الطفل الصغير إنها لا بد تبالغ في زينته، وخاصة إذا كانت مثل أم عمر ورثت كثيراً من الذهب والفضة.

وهذه النشأة المترفة عند عمر، أو قل هذا الذوق المترف هو الذي طبع شعره بطابع الإدلال والإعجاب بالنفس مما جعله في كثير من جوانبه لا يصور فقط حبه للمرأة وما يلاقى فيه من عذاب وحرمان وما يتعطش إليه من وصل ولقاء، وإنما يصور أيضاً مشاعرها نحوه ورغبتها الشديدة في رؤيته ولقائه. ولاحظ القدماء ذلك، فقالوا إنه يتغزل بنفسه لحسنه وجماله [١] وفى أخباره أنه أنشد ابن أبى عتيق:

بينما ينْعتْنَنِى أَبصرنَنى ... دون قِيد الميلِ يعدو بى الأغَر

قالتِ الكبرى أتعرفن الفتى ... قالت الوسطى نعم هذا عمر

قالتِ الصغرى وقد تيمتُها ... قدعرفناه وهل يخْفَى القَمر

فقال له ابن أبى عتيق: أنت لم تنسب بها وإنما نَسبتَ بنفسك، كان ينبغي أن تقول: قلت لها فقالت لى، فوضعت خدى، فوطئت عليه [٢] والمسألة في الواقع لم تكن مسألة جمال عمر فحسب، وإنما كانت مسألة ذوق مترف أفسد الشعور الطبيعي عند عمر، فجعله يشعر بجماله أمام المرأة، أو قل بشخصيته، فإذا هو يجعل نفسه شغل الفتيات الشاغل، فهن ينعتنه ويصفنه وكأنه ليس في أذهانهن سواه، وما يلوح لهن على فرسه من بعيد حتى تسأل كبراهن عنه، فتجيب الوسطى هذا عمر، وتكتفى بذلك، فهو العلم الذي لا تجهله فتاة في مكة. وأما الصغرى فقد تيمها ونفذ حبه إلى قلبها، فأجابت: قد عرفناه وهل يخفى القمر، كأنها تلوم أختها على التساؤل، فهو الفتى الذي شغل فتيات مكة والذي يقول عنهن[٣]:

وكُن إذا أَبصرنَنى أو سمِعنَنى ... سعين فرقَّعن الكُوى بالمحاجرِ

وهن لا يكتفين بالنظر إليه من الكوى أو من وراء الحجاب، بل يسعين إليه، ويحاولن أن يشعرنه بوجودهن. وهن يستعملن في ذلك ضروب الإغراء المختلفة من ابتسامة أو إشارة، يقول في بعض غزله[١]:

---

[1] خزانة الأدب ٢/٤٢٠.

[2] أغاني ١/١١٨.

[3] الديوان ص ٢١٧.

[1] أغاني١/٩٢.

أليستْ بالتى قالتْ لمولاة لها ظُهرا

أشيرى بالسلام له إذا هونحونا خَطَرا

فهن اللائى يلْحقنه، وهن اللائى يتبعنه، وهن اللائى يسلمن عليه من بعيد، وهن اللائى يشرن إليه، أو يغمزنه في أثناء سيره. فعمر في كثير من غزله هو المتبوع لا التابع والمعشوق لا العاشق، قد تيم النساء وملأهن صبابة به وحباً، حتى الثريا وزينب فإنه يصف دائما إعجابهما به وطلبهما له وأخذهما الموعد منه[٢]. ومن الطريف في هذا الصدد أن نجده كثيرا يذكر الوشاة والواشين على عادة المحبيت ولكن لا ليشكو منهم، وإنما ليبث شكوى صواحبه، فهن اللائى يتحدثن بالشكوى منهم. يقول في بعض غزله بزينب[٣]:

ولما التقينا سلَّمتْ وتَبسمتْ وقالتْ كقول المعرِضِ المتَجنِّبِ

أمن أجلِ واشٍ كاشحٍ بنميمة مشَى بيننا صدقْتَه لم تكذِّب

قطعتَ وصال الحبلِ منا ومن يطِع بذى وده قولَ المحرشِ يعتِب

فهو لا يطلب الوصل من صواحبه، وإنما هن اللائى يطلبنه، ومن ثم هن اللائى يعلن الشكوى من الوشاة والواشين، ويظهرن الألم من سماع محبوبهن لهم وإيمانه بما يقولون. وتتكرر هذه الصورة كثيراً في شعر الثريا وزينب.

وعلى هذا النحو تطلبه المرأة دائما في غزله، فهي عاشقة له تتمنى قربه ولقاءه، وتفتن في ذلك فنوناً من اللهو البرىء، فترسل إليه بالرسل، يقول في بعض غزله لزينب[٤]:

إن هنداً قد ارسلتْ وأخو الشوقِ مرسِلُ

أرسلتْ تَستحثُنى وتقّدى وتَعذُلُ

والرسل في ديوانه بينه وبين محبوباته كثيرة كثرة مفرطة، وهو يصور في ثنايا ذلك كله تعلق النساء به وتساقطهن عليه من كل جانب. ولاريب في أنه يرضى بذلك دله وتيهه

---

[2] الديوان ص ٨٠- ٨١.

[3] الديوان ص ١٧٨.

[4] أغاني ١٨٣/١.

وغروره، وهذا الذوق المترف الجديد الذي يجعل الرجل يشعر بنفسه أمام المرأة، ويحس أنه المعشوق لا العاشق، حتى ليأخذ مواقف المرأة في حبها، فيطلب ألا تبوح باسمه):[١]

ألم تعلمى ما كنتُ آليتُ فيكم وأقسمتِ لا تَحكين ذاكرةً باسمى

فهو لا يريد أن يعرف اسمه، ولا أن يذيع سره[٢]. وفى أثناء ذلك كله يحكى صبابة المرأة به وجهدها في استرضائه [٣] واستطاع في خلال هذا أن يصور ما يدور بنفس المرأة من خلجات وترهات وأفكار مضطربة مختلطة حيناً ومتناقضة حيناً آخر. وليس من ريب في أن هذا الجانب وما يتصل به من وصف عشق المرأة له أهم شيء يميز غزل عمر وشعره من جميع الغزلين في العربية.

واتخذ عمر لذلك طريقة امتاز بها هي حديث صاحبته مع جواريها أو صديقاتها، وفي أثناء هذا الحديث يكشف لنا عن مشاعر صاحبته إزاءه، كما يكشف لنا عن أفكار المرأة في مجتمعه كل ما يميز هذه الأفكار من اختلاط واضطراب. وهذا لا شك يفيض على شعره حيوية، ففيه قرب من الواقع، وفيه هذا القصص عن النساء الذي يكشف عن نفسياتهن وما يضطربن فيه من أفكار وما تموج به أحاديثهن من متناقضات.

على أن عمر حين نزع هذا المنزع في غزله فأكسبه هذا الحوار. بين النساء الحجازيات في عصره أو قل هذا القصص غير المتكامل، فليست هناك عقدة، وليست هناك قصة بالمعنى المألوف، وإنما هناك حوار وضرب من القصص غير التام، حين نزع هذا المنزع، أصبح يشبه القصصيين من بعض الوجوه، فقل الغموض في غزله، لأنه كشف لنا عن كثير من الحقائق، وحاول أن يستخدم تجربته ومعرفته بمجتمعه وبالمرأة في عصره، وكأنما كان يحاول أن يزيل الحجاب عنهاوعن نفسها.

وفى رأينا أن هذه المحاولة لم تكن تامة، فإنه حاول ذلك من خلال الإعجاب بنافسه وما تميز به من دله وتيهه. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية اضطره هذا الاتجاه الجديد في غزله، اتجاه القصص، إلى أن يدخل بنا في تخيلات كعادة القصاصين، فهم يخرجوننا من عالمنا إلى

---

[1] الديوان ص ٧٨.

[2] الديوان ص ٨٥.

[3] انظر الديوان ص ٣٧.

عالم ملىء بتخيلاتهم. ومن هنا يكون من المبالغه أن نسمى بعض شعره غزلاً ماديااا، فلا مادية فيه، إنما فيه القصة وخيال القصاص. ولعل هذا غاب عن القدماء فقد اضطربوا في عمر: أعفيف هو أم غير عفيف [١] ونسوا أن ابن عباس كان يحفظ كثيراًمن شعره كما قدمنا في غير هذا الموضع، وكأنه عرف أن عمر إنما يقص ويحاول أن يبرز، كعادة القصاصين، العناصر العاطفية في المجتمع.

وهذه الروح القصصية التي أملت هذه الأغاني لعمر تعاونت مع طبيعة هذا الشعر لا في قربه من النفوس فحسب، بل في قربه أيضاً من الألسنة، فمن أهم ما يميز هذا الشعر الذي أنشدنا كثيراً منه أن لغته مألوفة، وأكبر الظن أنها كانت من نفس لغة الناس اليومية.

نستطيع إذن أن نقول إن الأغاني التي كانت تُغنّى هذا العصر في المجالس والنوادى ظفرت عند عمر بنوعين من التطور يتلاءمان والجمهور الذي يستمعه، أما النوع الأولي فهو هذه الروح القصصية التي تعبر عن مشاعرهم، وكأن عمر يريد أن يكون وسيطاً بينهم وبين أفكارهم وتخيلاتهم، وأما النوع الثاني فهو اتخاذ لغة هذا الشعر من لغة حياتهم اليومية. وبذلك أصبحت الأغان يعند عمر تعبر عن محيط المكيين تعبيراً دقيقاً، محيط مجتمعهم وما فيه من أفكار مضطربة متناقضة، ومحيط لغتهم في حياتهم التىتجرى تحت أعينهم.

وأتاحت طريقة الرمزالتي رأيناها عند عمر في زينب أن يتوسع في خياله وفى أقاصيصه. ومن يدرى لعله كان ينسى أحياناً في أثناء الرمز صاحبته، فيعمد إلى القصص الخيالى في نغم وهند ونحوهما من الرموز الكثيرة في ديوانه وشعره.

والذي نريد أن ننفذ إليه من هذا كله أن عمر توسع في قصصه، وأن هذا القصص دعاه إلى أن يستخدم اللغة المألوفة، كما تدعو إلى ذلك طبيعة القصص دائماً، وكان أكثر المغنين في شعره من الأجانب، فكان من الطبيعي لهذا كله أن تكون لغته قريبة دانية، إن لم تكن مماثلة لنفس اللغة اليومية.

وهذه الملاحظة في لغة الأغاني عند عمر تضاف إليها ملاحظة ثانية ولكنها لا تتصل بلغتها، وإنما تتصل بأوزانها وقوافيها، فإن من يقرأ ترجمة عمر في كتاب الأغاني ويستعرض الأصوات التي غَنَّى فيها المغنون يلاحظ أن أكثرها من الأصوات الخفيفة السهلة. وفرق بعيد

---

[1] أغاني ٧٤/١ وما بعدها وانظر الحيوان٨٣/٢.

جدا بين ديوان كديوان الفرزدق في هذا العصر وديوان عمر، فالأول يميل إلى الأوزان الضخمة، كما يميل أيضاً إلى الإغراب في لغته وتراكيبه، أما عمر فإنه يطلب الخفيف القريب في اللغة وفى الوزن جميعاً، وقلما نجده يميل إلى الأوزان الطويلة المعقدة.

وكان أهم المغنيين الذين يغنون في شعر عمر ابن سريج والغَريض وكلاهما كما قدمنا كان يميل إلى الغناء الخفيف، فطبيعي أن يوفر لهما ذلك الجانب الشاعر الذي يغنيان في شعره. ويمكن لتوضيح ذلك أن يقارن القارئ بين عمر وابن سريج والغريض من جهة وبين الأحوص في المدينة ومغنيه معبد من جهة أخرى، فقد كان معبد يميل إلى الأوزان الطويلة والصوت الضخم الممتلى، وكذلك كانت جميلة مغنية المدينة كما يظهر من استعراض الأصوات التي تغنت فيها، وكان لذلك أثره في الأحوص، فإن شعره يميل إلى الطول وقلما يعنى بالأوزان الخفيفة أو المجزوءة. وعلى العكس من ذلك كان عمر يعنى عناية شديدة بالأوزان الخفيفة السهلة القريبة التي تطير عن الشفاه طيراناً، والتي تكاد تنحل بنفسها غناء خالصاً. ومهما يكن فإن عمر استطاع أن يوفر لأغانيه ضروباً واسعة من التلاؤم بينها وبين حاجة المغنيين في عصره، وهي ضروب وقفت عند الوزن ولم تتعده إلى القافية، فإن التعديل في القوافى تحت تأثير الغناء انما تقوم به الأندلس على نحو ما هو معروف في الموشحات أما هنا وفى مكة في أثناء العصر الأموي فإن التعديل وقف عند اختيار الأوزان الخفيفة من مثل الهزج والوافر والمتقارب والرمل والسريع والخفيف، وإيثارها على الأوزان المعقدة الطويلة غالباً إلا أن تجزأ وتقصر وتقل كميتها على نحو ما هو معروف في مجزوء الكامل ومجزوء الرجز. على أن عمر لم يكتف بمجزوءات البحور الطويلة، فقد ذهب يجزىء في البحور الخفيفة نفسها. فكان كثيراً ما ينظم في مجزوء الوافر من مثل قوله[1]:

تَبِعتهم بطَرف العي ... نِ حتى قيل لي افتضحا

يودع بعضنا بعضاً ... وكلٌّ بالهوى جرِحا

---

[1] أغاني ٣١٢/١ وانظر ٢٣٥/١، ٣٠٣/١، ١٨٢/١.

وكذلك المجزؤات الأخرى من مثل مجزوء الخفيف[٢]ومجزوء [٣] الرمل. وعمر يتميز في هذا الجانب تميزاً واضحاً. وقد جاءه من الملاءمة بين أغانيه وبين الغناء الخفيف عند ابن سريج والغريض.

والحق أن ابن أبى ربيعة نهض بالأغانى في عصره نهضة واسعة سواء من حيث ما أشاع فيها من الروح القصصية، أو من حيث ملاءمته بين لغتها ولغة جمهور السامعين، أو من حيث ملاءمته بين أصواتها وألحان المغنين.

ومن أجل ذلك كله يعد عمر زعيم الأغاني في العصر الأموي غير مدافع

فقد أتاح لها ضروباً من التطور وفنوناً من الرقى في المعانى والأفكار.، وفى اللغة والألفاظ، وفى الأوزان والبحور.

(٤) الديوان

ترك عمر ديوان كبيراً في الشعر العربي يندمج كله في هذه الصورة التي وصفناها لأغانيه. ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعره كله أغان قصد بها إلى الغناء قبل أي شيء آخر. وماذا تريد من سيد شريف من أشراف مكة وثرى من أثريائها في العصر الأموي ينظم الشعر ويجيد نظمه؟ إنه لا شك إنما يقصد به إلى التعبير في حرية عن نفسه وعن مجتمعه، وقد تعلق بقصة الحب التي شغلت حياته فصورها لنا بجميع أطرافها المختلفة.

فعمر، كما رأيناه، كان يعنَى بوصف العناصر العاطفية لمجتمعه، وقد تعلق بطبيعة المرأة يرسمها في الشخصيات التي تعرف عليها، عن طريق هذا ا الحوار الذي امتد به في شعره والذي احتفظ به كتاب الأغاني، كما احتفظ به ديوانه. فلا فارق مطلقاً بين هذا وذاك، إذ الكل ينبع من معين واحد ويريد له المشاعر غاية واحدة، هي وصف المرأة في عصره وصفاً يطلعنا على جميع مشاعرها، بل لعله يطلعنا على القوى المحركة للمجتمع كلها، ونقصد قوى التحضر والحياة الاقتصادية حينئذ.

---

[2] أغاني ٥٨/١، وانظر ١٧٢/١، ١٨٣/١.

[3] أغاني ١٧٨/١.

ومن هنا تأتى أهمية ديوان عمر، فهو يصور لنا قصة القلب الإنساني كما كانت تُنْسج خيوطها في هذا العصر وأيضاً يصور لنا قصة المجتمع بجميع فصوها ورسومها كل ما يطْوى فيها من خصائص وسمات. واستعان عمر في ذلك بمخيلته كما رأينا وهذا الحوار المفتوح الذي لا يغلَقُ في ثنايا ديوانه.

وعقلية عمر من هذه الناحية تشبه عقلية القصتصيين الذين يقصون علينا فصول الحياة كما تقع في أخيلتهم، وهم لا يعزلونها عن الحياة الواقعية بل هم يستمدونها منها، وكذلك كان عمر يستمد حواره الذي فتحه في ديوانه من تجاربه وخبراته التي شاهدها في حياته.

ولم يستطيع عمر أن ينفذ إلى القصة.بمعناها الكامل من عقدة أو حبكة روائية، لأن فكرة القصة على ما يظهر لم تتكامل في نفسه لسبب بسيط، وهو أنه كان يريد بهذا الشعر، الذي يصنعه، الغناء، وأن يدور على ألسنة المغنيات والمغنين.

فشعر عمر كله الذي يحتويه ديوانه شعر ألف للغناء، وحقا لم يغن كله، فهناك مقطوعات كثيرة منه لا نجهدها في كتاب الأغاني. على أنه ينبغي أن نحذر هذا الحكم، لأن كتاب الأغاني إنما يسجل القطع التي لحنت تلحيناً ممتازاً لابن شريج والغريض وابن محرز وغيرهم من مغنى مكة، ومعبد ومالك بن أبى السمح وجميلة من مغنى المدينة. أما بعد ذلك فلا بد أن قطعاً كثيرة من شعر عمر غنيت ولم يصلنا غناؤها بين هذه القطع الممتازة التي سجلها الرواة. ونفس الرواة يقولون: إن عمر كانت عنده جاريتان تغنيانه في شعره على نحو ما تقدم في غير هذا الموضع، وكان ابن سريج والغريض يلزمانه لزوماً، ولا يكادان يفارقانه إلا لماماً.

ولهذا كله نظن أن المقطوعات الأخرى في ديوان عمر التى لم يصلنا غناء فيها، غنى كثير منها، ولحن، وخاصة أن عمر كما قدمنا كان ثريا ثراء مفرطاً ولم يكن له شغل إلا هذا الشعر. ومر بنا كيف كان يعطى المغنين في تلحين بعض مقطوعات من شعره ألوف الدراهم. وما أظن أن مثل عمر في ثرائه وغنائه يترك قطعة من شعره دون أن تغنى وتلحن وترتفع بها أصوات المغنين والمغنيات في داره وفى دور اللهو بمكة والمدينة.

وأكبر الظن أننا إذا قلنا بعد هذا كله: إن كل ما في ديوان عمر أغان بالمعنى الكامل لهذه الكلمة،أي أنه غنى، أو على الأقل ألف لكي يغنى فيه المغنون، لم نكن مبالغين ولا متجاوزين

للواقع في شيء، فقد كان صاحبه يعيش للشعر والغناء جميعاً، وكانت حياته تقوم على العناية بالفنين، أما عنايته بفن الشعر فعناية مباشرة، وأما عنايته بفن الغناء، فهي عناية مسببة أو معللة بالفن الأول الذي وهبه حياته وأصفاه نفسه.

وديوان عمر من هذه الناحية طريف في حياة الشعر العربي، فهو أول شاعر يرصد شعره كله للغناء، كما يرصد حياته كلها للمعيشة في أوساط المغنين، والائتلاف معهم ائتلافاً تتقطَّر نتائجه في فنه. ومن هنا لا يكون غريبا إذا قلنا: إنه شاعر أغان بالمعنى الكامل لهذه الكلمة في تاريخ لغتنا العربية.

ولعل أهتم ظاهرة سقطت في شعره وتجلت فيه تحت تأثير الغناء أنه ليس قصائد بالمعنى المألوف القديم الذي كنا نفهمه للقصيدة، فليس فيه مقدمات أطلال، وليس فيه شيء خارج عن غايته، إنما هو شعر يؤلف في الحب، وهو يؤلف في مقطوعات قصيرة، لأنه يراد به إلى الغناء لا إلى الإنشاد. وإذا استثنينا القصيدة الأولى في الديوان، لم نكد نجد بعدها قصيدة طويلة لعمر. وما لعمر وللطول، وهو لا يريد أن ينشد المنشدون شعره في المحافل والمجامع، وإنما يريد أن يغنيه المغنون، وهؤلاء لا يمتد نفسهم إلى أكثر من خمسة أو ستة أبيات إلا في القليل النادر، وكان ابن محرز يأبى أن يغنى في أكثر من بيتين.

وإذن فعمر لا يستطيع الإطالة في شعره، لأن المغنين لا يعطونه الفرصة، ولأن هذا الشعر نفسه الذي يقدمه إليهم بطبيعته شعر محدود يصف خواطر الحب عند الرجل أو عند المرأة أو عندهما جميعاً وهي في أصلها محدودة.

ومع ذلك فقد أتاح عمر لهذه المعاني أن تتسع وأن تطول قليلاً بفضل هذه الروح القصصية التي عممهافي ديوانه والتي ذهب يصور فيها عواطف المرأة المتحضرة حين تحدب، وما يكون بينها وبين جواريها من أحاديث عن صاحبها تارة، وعن صواحب أخرى يحسدنها عليه تارة أخرى، وكذلك ما يكون بينها وبين صديقاتها من فنون قول.

وعمر طريف في هذه الناحية طرافة بالغة في ديوانه، فكل من يقرؤه يحس أنه كان على علم دقيق بطبيعة المرأة وما يعتورها من ضعف في الحب. ومن هنا يعجب بعمر كل من يقرأ ديوانه، إذ يحس كأنه يقرأ لشاعر حديث من عصره، فقد استطاع أن ينفذ من شعره إلى رسم صورة حية للمرأة في عصره، وهي صورة تتطابق معها في كل عصر وكل زمن.

وعمر في الواقع تُرفَع الحواجز بينه وبيننا لهذا كله، فقد استطاع أن يضع تحت أعين الناس صورة تتجدد لهم في كل زمان ومكان، ونقصد صورة المرأة ومشاعرها، أو قل بعبارة أدق صورة الطبيعة البشرية وكل ما فيها من نقص وضعف.

على أنه ينبغي أن نشير دائما إلى وجوب الحذر من أقاصيص الرواة، فقد شؤهوا لنا عمر وشوهوا معه المرأة المكية والمرأة الحجازية بصفة عامة فيما قصوه عنه وعنها قصصاً يتجاوز الواقع في أغلب صوره. وهو قصص أريد به كما قلنا غير مرة إلى السمر في المجتمعات والنوادي الأدبية. وأتاحت طبيعة شعر عمر وأنه أغان تغنى في دور اللهو والسمر لحياة عمر وحياة المرأة في عصره كل هذا الخلط والتشويش اللذين نقرؤهما في كتاب الأغاني عن عمر وأخباره مع المرأة في زمنه.

ومهما يكن فعمر في ديوانه كما في الأصوات التي غُنِّيت من شعره متكامل الشخصية، أو قل متكامل الأسلوب. ولسنا نعرف شاعراً تتضح جميع خصائصه في مقطوعاته المأثورة عنه كما تتضح في عمر، فدائماً تقابلنا السمات نفسها والصفات نفسها، ودائماً تقابلنا الشخصية نفسها والأسلوب نفسه.

وعمر من هذه الناحية يصور لنا تطوراً حقيقتا أصاب الشعر العربي في عصره تحت تأثير الحضارة الجديدة، إذ ليس من شك في أن شعره لا يماثل الشعر القديم، شعر القصيد. وهذا شيء طبيعي لأن مكة تحضرت وسيطر أبناؤها على العالم، أو قل على أطراف كثيرة من العالم،وشعر كل قرشي بغير قليل من الزهو إزاء هذه السيطرة، وقد أخذت نفسه تتغير تحت تأثير الحضارات الأجنبية التي صبت في بلدته، وأصبح يتصور الحياة في صورة تغاير صورتها القديمة في عقل أجداده وذهن آبائه. ومن أجل ذلك كله أصبح من المحتم أن يتطور هذا القرشي لا في حياته، فقد تطورت، وإنما في فنه وشعره.

ولا ريب في أن عمر، أو قل ديوان عمر، يصور هذا التطور تصويراً طريفاً، فهو يقص علينا حبه، ولكن لا نقرأ هذا القصص حتى نحس أننا بإزاء مجتمع متحضر، تكاد تقطع الصلة بينه وبين مجتمعات البدو القديمة، ففيه للمرأة من الحرية ما لم تكن تتمتع به المرأة القديمة، كما أن لها من الطرف ومن الجواري اللائى يخدمنها ما لم تكن تتمتع به المرأة القديمة. وفيه بجانب ذلك دلال المرأة المترفة وغزلها ونفسيتها بكل ما فيها من اضطراب وتناقض، وفيه.

أيضا ما يصور حياة الشاب المترف، حياة عمر وما انطبع في نفسه لجماله وثرائه من زهو ودل وما تميز به من دقة الحس ورهافة الشعور.

فديوان عمر إذن أهم ما يميزه أنه ثمرة حياة متحضرة، استطاع أن يعبر عن جميع جوانبها في نفسه، كشاب متحضر، وفى نفس المرأة المعاصرة له التي أترف ذوقها وشعورها. ويحس قارئ عمر إحساساً تاما بأن الأسلوب القديم للشعر قد هجر، أو أصبح مهجوراً لسبب بسيط، وهو أن الحياة القديمة هجرت، فأصبح لابد أن ينشأ أسلوب جديد يتلاءم والحياة الجديدة، أو قل الحضارة الجديدة.

وفرق بين شعر يقال في بيوت مكة القديمة وشعر يقال في قصورها الإسلامية الحديثة وما تكتظ به من جوار وإماء وما تملأ به من ألوان حضارات فارسية أو رومية. ومن هنا كنا لا نقرن ديوان عمر إلى ديوان شاعر جاهلي قديم إلا نجد الفرق واضحاً جداً، وهو فرق الحياة وما أصابها من تبدل وما تم لها من تطور. وهل كان من الممكن أذ نجد في الشعر القديم مثل الثريا وزينب صاحبتي عمر وكل ما لهما من دلال، كل ما لهما من ثراء؟ وعمر نفسه هل كان من الممكن أن نجده في الشعر القديم بهذه الشخصية المتميزة التي تفرده عن أسلافه؟ لقد كانت الحياة القديمة راكدة، ولذلك كانت الصور الفنية راكدة أيضاً، فكان فيها هذا التكرار الذي يشعر به كل من يقرأ الشعر الجاهلي، وكان فيها هذا الجمود الذي يجعل أساليب الشعراء متشابهة.

وتد تبدل العرب في مكة وتبدلت حياتهم القديمة، وعاشوا معيشة جديدة، ونجم بينهم عمر ليعبر تعبيراً كاملاً عن هذا التبدل وهذه المعيشة، ومن هنا كان أسلوبه يخالف أساليب الشعر القديم، فهو أسلوب تكامل له تحت تأثير حياة متحضرة جديدة، فيها ترف بالغ، وفيها هذا الغناء الذي حوله المغنون إلى نظرية كاملة.

لم يعد عمر ينظم شعره بالأسلوب القديم، ولذلك نَفَر من القصيدة وهجرها في نماذجه، واختار مكانها هذه المقطوعات القصيرة التي تقال لا لتنشد كما كان الشأن في الحياة القديمة، وإنما تقال لتغنى ولتسمعها الطبقة المترفة التي نشأت في مكة وفى أختها المدينة.

وهذا هو معنى ما نقوله من أن الشعر العربي عند عمر تطور، فقد أصبح مقطوعات بعد أن كان قصائد، وأصبح يتخذ من لغة قريبة، لغة مألوفة للناس، ليس فيها هذا الإغراب الذي

نجده عند الشعراء القدماء، وليس فيها هذا التعقيد في التراكيب الذي نجده عندهم أيضاً. ومن يبحثون عن اللغة القديمة والتراكيب القديمة أو قل الأساليب القديمة ينبغي ألا يبحثوا عنها في مكة أو الحجاز، بل يبحثوا عنها في البصرة والعراق حيث كان جرير والفرزدق والناس من حولهما يجترون حياتهم القديمة. أما في الحجاز وفى مكة، فقد انصرف الناس عن حياة آبائهم القديمة وغرقوا في ألوان من الترف والنعيم، ولذلك أصبحت أساليب الشعر القديم لا تلائمهم، فإما أن يهجروا هذا الشعر كله، وإما أن يظهر لهم شاعر يعبر لهم عن حياتهم بأسلوب جديد. وكانت الحياة العربية من القوة بحيث لا يمكن أن يهجر الشعر، وأيضاً كانت من القوة بحيث لا بد أن يظهر الشاعر الذي يعبر للناس عن حياتهم الجديدة بأسلوب جديد.

وكان عمر بن إلى ربيعة هو الشاعر الذي استطاع أن يهجر أساليب الشعر القديمة، ويسوى للناس مكانها أساليب جديدة تقوم على القرب والدنو منهم ومن لغتهم اليومية، كما تقوم من طرف آخر على تصوير العناصر العاطفية التي يزخر بها مجتمعهم عن طريق تصوير حبه ومشاعر المرأة المعاصرة له، وما بث في هذا التصوير من حوار، كأنه استمده من قلب كل امرأة تتحدث عن فتاها. وهذا جانب في شعر عمر أعطاه قربا من النفوس في كل عصر، وهو من هذه الناحية لا يكاد قارئ يلم به حتى يحس كأن عمر قريب منه، فهو يدنو من جميع العصور ومن جميع النفوس. ويظهر أن ديوانه لم يصلنا كله، فطبعة ليبسك، وهي أهم طبعاته، نجدها تفرد ملحقاً لمقطوعات بلغت نحو المائة لم تكن في الديوان، وإنما كانت متناثرة في كتب الأدب وعلى رأساها كتاب الأغاني. ومعنى ذلك أن طرفاً من الأصوات أو الأدوار التي غنيت من شعره لم يسجل في ديوانه، ولاحظ الذين وقفوا على طبع الجزء الأول من كتاب الأغاني وهو الذي يحتوى ترجمة عمر في أكثر الأصوات التي غنيت من شعره اختلافاً كثيراً بين رواية الصوت ورواية الديوان [١]، كما لاحظوا أن ترتيب الأبيات في الصوت أو في الأغنية قد يختلف مع ترتيبها في مقطوعتها من الديوان [٢] ولاحظوا أيضاً أن أبيات اصوت قد تلفق من مقطوعتين[٣]، وأن الصوت قد يكون فيه بيت ليس لعمر[٤]" ومن قبل لاحظ أبو الفرج

---

[1] انظر مثلاً أغاني ٩٤/١، ١٠٤/١، ١٢٥/١، ١٥١/١، ٢٠١/١.

[2] انظر أغاني ١٨٠/١ وكذلك ١٨٣/١، ٢٣٧/١.

[3] انظر أغاني ١٨٧/١.

[4] أغاني ٩٥/١ وكذلك أغاني ١٧٠/١، ٢٤٢/١.

هذه الملاحظة[٥]. ولعل في هذا الجانب ما يدل على عمل المغنين في شعر عمر، وكيف أنهم كانوا يستبدلن أحياناً بعض الفاظه، وقد يضيفون إلى أبياته بيتاً جديداً، يتراءى لهم أنه يكمل المعنى أو يحدث فيه طرافة. ومهما يكن فإن ديوان عمر بن أبى ربيعة يشف عن شخصية صاحبه، وعن عصره ومجتمعه كل ما فيه. واستطاع عمر حقا أن يتميز من شعراء عصره والعصور التالية بهذه الروح القصصية النادرة التي قلما نصادفها في شعراء العربية. ومن الطريف أنه نفذ إليها من خلال هذه الأغاني القصيرة التي كان يتناولها منه ابن سريج والغريض وأمثالهما من المغنين، أو قل إن قِصر هذه المقطوعات لم يحلْ بينه وبين ما أراد من تصوير عصره عن طريق هذا الحوار الذي عقده تارة بينه وبين من شغف بهن، وتارة بين أنفسهن وبين أخواتهن أو صديقاتهن أو وصيفاتهن وجواريهن.

وما نعرف في العربية شاعرا استطاع أن يعيش حياته في تصوير قصة الحب على هذا النحو الذي نجده عند عمر. قد يوجد بعض الشعراء الذين قصروا أنفسهم أو كادوا على تصوير حبهم مثل العباس بن الأحنف، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يتحول بحبه إلى هذه الروح القصصية وما يطْوى فيها من حوار عند عمر.

ونحن نعيد ما قلناه من أن الرواة- كما يمثلهم كتاب الأغاني- أفسدوا هذه الروح عند عمر.مما أضافوا إليها من أقاصيص ماجنة، وكأنهم لم يفهموا عمر ولا فهموا روح عصره. والمسألة لم تكن أكثر من شاعر مجدد استجاب لنزعة الحضارة الجديدة في عصره، ونهض بتمثيل أمواجها بل بتمثيل ذرات هذه الأمواج أحياناً، ونقصد أمواج العواطف والوجدانات. ومثل عمر ذلك من خلال إحساساته وإحساس المرأة المكية والمدنية في عصره.

وكان عمر لذلك كله موضع إعجاب الناس من حوله، حتى الفقهاء من مثل ابن عباس كانوا يروون شعره ويتناقلونه، لأنهم لم يجدوا فيه ما حمله القصاصون بعد من عبث ومجون، وإنما وجدوا فيه صورة حية لعصرهم مجتمعهم، قد يكون فيها ظرف، وقد يكون فيها مبالغة بحكم أن الشاعر ينقلنا إلى عالم يعتمد على القصص والخيال، ولكن ليس فيها على كل حال ما ينافى العفة الثابتة[١].

---

[5] أغاني٤/٢١٣.

[1] أغاني ١١٩/١ وكذلك ٢٣٧/١ وزهر الآداب ٢٩٢/١.

الفصل الخامس

ابن قيس الرُّقيات

(١) اسم ابن قيس ولقبه وعشيرته

اختلف الرواة في اسم ابن قيس وهل هو عبد الله أو عبيد الله. وقد ذكره الجاحظ [١] والمبرد[٢] باسم عبد الله، وكذلك ذهب مذهبهما المسعودى [٣] والمرزبانى [٤] والجوهرى والصحاح والفير وزابادى، في القاموس " مادة رقى ". في الخزانة عن خط الشاطبى أن الأصمعى وافق ابن قتيبة على أن اسمه عبد الله [٥].

وذكره ابن سلام في كتابه طبقات [٦] الشعراء- وهو أقدم نص ورد اسمه فيه- باسم عبيد الله، وترجم له أبو الفرج في الأغاني بهذا الاسم[٧]. وفى الخزانة: أنه عبيد الله، ومن الرواة من يقول: الشاعر عبد الله وهو خطأ[٨]. وأجمعت نسخ الديوان المطبوعة والمخطوطة بدار الكتب المصرية على أن اسمه عبد الله.

وكما اختلف الرواة في اسم الشاعر اختلفوا في علة تلقيبه بالرقيات، أما ابن سلام فقال: إنه سمى بذلك لأدب جدات له توالين يسمين رقَية [٩] وقال ابن قتيبة: إنه لقب بذلك لأنه كان

---

(1) انظر الحيوان ١٥٤/٧.

(2) الكامل للمبرد ص ٣٩٧.

(3) مروج الذب ٢٥٠/٥.

(4) الموشح ص ١٥٠، ١٨٦، ٢٢١.

(5) خزانة الأدب للبغدادى طبع بولاق ٣/١٦٦.

(6) طبقات الشعراء ص ١٣٧.

(7) انظر الأغاني ٧٣/٥

(8) الخزانة ٢٦٧/٣ وانظر الولاة والقضاة للكندى ص ٥٢.

(9) طبقات الشعراء١٣٧.

يشَبب بثلاث نسوة يقال لهن كلهن رقية[٩] وقال أبو عبيدة في كتاب النسب سمي بذلك لأنه كان يشبب بامرأتين كل منهما تسمى رقية [١] وفى الخزانة قيل إن قيسا تزوج نسوة كل منهن اسمها رقية [٢] وفى الصحاح والقاموس إنما اضيف قيس إلى الرقيات لأنه تزوج عدة نسوة وافق أسماؤهن كلهن رقية.

ومن يرجع إلى أخبار الشاعر وشعره يؤمن بأنه اضيف إلى الرقيات لأن أكثر تشبيبه فيمن سمين رقَّية. ولعل فكرة أن أباه تزوج عدة نسوة يسمين رقية، وكذلك أن جدات له تتابعن يسمين رقية، لعل ذلك جاء من أن كلمة الرقيات اضيفت إلى قيس، فهو يشتهر بين الرواة باسم ابن قيس الرقيات.

وينسب الرواة الشاعر على هذا النحو: عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك بن ربيعة (وهو النُّويعم) بن أُهيب [٣] بن ضِباب بن حجير بن عبد بن معِيص بن عامر بن لُؤَي بن غالب [٤] فهو قرشي إلا أنه ليس من قريش البطاح، إنما هو من قريش الظواهر. وإذن فعشيرته ليست من العشائر الثرية التي كان لها شأن عظم في أمور مكة في أثناء العصر الجاهلي على نحو ماكان لقريش البطاح. ومع ذلك يظهر أنها كانت تشتهر بالبأس والشجاعة. فأبو الفرج يقول: كان يقال لبنى معيص بن عامر بن لؤى وبنى محارب بن فهر الأجربان، وكانا متحالفين، وإنما قيل لهما الأجربان من شدة بأسما، وغرهما من ناوأهما كما يعر الجرب[٥].

وتسمى عشيرة عبيد الله باسم جده الثامن، فيقال بنو معيص، وقد تنسب إلى جده السابع فيقال بنو عبد[٦]، وإلى جده الثالث ربيعة الملقب بالنُّويعم [٧] ويفتخر عبيد الله بعشيرته في ديوانه كما يفتخر بقرشيته، فيقول[٨]:

---

[9] الشعر والشعراء (طبع دي جويه) ص ٣٤٤.

[1] الخزانة ٣/٣٦٦.

[2] الخزانة ٣/٢٦٥.

[3] في الديوان (طبع فيينا) ص ٦٧: وهيب

[4] أغاني ٥/٧٣ وانظر الديوان ص ٦٧.

[5] أغاني ٥/٧٣.

[6] الديوان ص ١٨٧، ١٩٣.

[7] الديوان ص ١٩١.

نحن الصريِح إذا قريـ . ـشٌ قام منها الناسب[٩]

من سِرها وأَرومها إذ للأَرومِ مراتب [١٠]

وكما يذكر عشيرته الأقربين يذكر أبناء عمهم مالك [١]بن حسل بن عامر، وأيضاً فإنه يذكر بنى جابر بن وهب بن ضباب وبنى شبل بن عبيد بن منقذ بن عمرو ابن معيص[٢]، وهو شديد الاعتزاز بهم جميعاً.

وأم عبيد الله قتيلة بنت وهب بن عبد الله بن ربيعة من بنى ليث بن بكر بن عبد مناة، وقد افتخر بأخواله في ديوانه [٣] كما افتخر بأهله. وكان له أخ يسمى عبد الله [٤]، ولعل ذلك ما جعل الرواة يخلطون في اسمه، وأعقب عبد الله أبناء مختلفين، منهم سعد وأسامة وقد قتلا في موقعة الحرة مع طائفة من عشيرتهما، ورثى القتلى جميعاً عبيد الله رثاء حاراً[٥]. وفى أخباره أن اثيلة بنت مسافع زوج أسامة كان لها منه قيس وعقبة ومحمد، وقد لجأت بهم بعد موقعة الحرة إلى عبيد الله [٦] ولعل في هذا ما يدل على أن عبد الله كان قد فارق الحياة وإلا لجأت إليه زوج أسامة ولم تلجأ إلى عبيد الله.

وليس لدينا أخبار واضحة عن أزواج عبيد الله، وهو يذكر في ديوانه زوجة كنانية [٧] ولكنا لا نعرف شيئاً عن هذه الكنانية. وزعم صاحب الخزانة أنه لم يكن له عقب [٨] ومن يرجع إلى ديوانه يجد وصية له موجهة إلى شخصين يسميان شريحاً ومحصناً، وهي أشبه بأن تكون وصية أب لابنيه، إذ يقول[٩]:

---

[8] الديوان ص، ٢٥.

[9] يريد بالصريح أنهم من قريش في الصميم.

[10] لأروم: الأصول.

[1] الديوان ص ١٨٧، ٢١٣.

[2] الديوان ص ٢٤٧، ٢٤٨.

[3] الديوان ص ٢٤٤.

[4] اريخ دمشق لابن عساكر (المخطوطة التيمورية بدار الكتب المصرية) مجلد ٢٥ الورقة ٢٠٨.

[5] الديوان ص ١٨٤ وما بعدها.

[6] الديوان ١٩٢.

[7] الديوان ص ٢٠١- ٢٠٢.

[8] الخزانة ٣/٢٦٥.

[9] الديوان ص ٢٤٧.

أُوصى شُريحاً إن هلكتُ ومِحصناً بعونٍ على الجلَّى وتَركِ المحارمِ

وذب عن الجار الملبس حبلَه بحبليهما وبالحليفِ المقاسم

وإن حارب المولى فحارب بحربِه وإن سالَم المولى عليك فسالِم

وفىالأغاني أنه كان له بنون ثلاثة وبنات ثلاث وأنه زوج البنين الثلاثة ببنات أخ له ثلاث، كما زوج البنات الثلاث من بنى أخ له[١٠].

(٢) حياة ابن قيس وأخلاقه وصفاته

نشأ ابن قيس الرقيات في مكة، ولكن يظهر أنه تركها في مقتبل عمره إلى المدينة، ومع ذلك فقد ظل يتردد عليها وعلى منزله[١] فيها. وليس بين أيدينا معلومات واضحة عن هذه الفترة الأول من حياته إلا ما يرويه فعند المغنى وهومن مغنى المدينة في الصدر الأول [٢] قال: " حجت رقية... فكنت آتيها وأحدثها فتستظرف حديثى وتضحك منى، فطافت ليلة بالبيت، ثم أهوت لتستلم الركن الأسود وقبلته، وقد طفت مع عبيد الله بن قيس الرقيات، فصادف فراغنا فراغها، ولم أشعر بها، فأهوى ابن قيس يستلم الركن الأسود ويقبله، فصادفها قد سبقت إليه، فنفحته بردنها [٣]، فارتدع، وقال لى: من هذه؟ فقلت أولا تعرفها؟ هذه رقية بنت عبد الواحد ابن أبى سعد، فعند ذلك قال:

من عزيزِى ممن يضنِ بمبذو لٍ لغيرى علي عند الطوافِ" [٤]

ولا نجد بعد ذلك في أخبار ابن قيس حادثة تتصل بحياته في مكة. تركها، على ما يظهر، إلى المدينة مع جماعة من أهله، فإننا نجد هناك أولاد أخيه عبد الله وقد نيل منهم اثنان في موقعة الحرة كما أسلفنا. ولعل أكبر دليل على نزوله المدينة أننا لا نجد له أخباراً مع مغنى مكة من مثل ابن مِسجح وابن محرز وابن سريج والغريض، إنما تساق أخباره دائما مع مغنى

---

[10] أغاني ٥/٩٣- ٩٤.

[1] أغاني ٥/٧٧.

[2] ابن عبد ربه ٣/٢٤٥.

[3] أغاني ٥/٩٦.

[4] أغاني ٥/٩٦

المدينة من مثل فند، وسائب[٥] خاثر، وبديح[٦]. وأشار بعض شعره إلى دار له فجها، إذ يقول[٧]:

شب بالعال من كَثِيرةَ نار　　شوقَتْنا وأين منَّا المزار

تلك نار لها أضاء سناها　　لمحب له بيثرب دار

فهو يشير إلى دار اتخذها لنفسه في المدينة. وفي الأغاني ما يدل على أنه كان ينزل بها في أثناء حكم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص لها في خلافة معاوية، فقد كان معاوية يعقب بينهما يولى هذا سنة وهذا سنة [١]، وكانت في مروان شدة وغلظة، فلما ولى المدينة ولى مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري شرطته، وأعانه بمائتى رجل من أهل أيلة (العقبة) فضبطها ضبطاً شديداً، فقال ابن قيس [٢]

علِّلِ القوم يشربوا　　كى يلَدُّوا ويطْربوا

إنما ضلَّل الفؤا　　د غزالٌ مربب

فرشَتْه على النما　　رقِ سعدى وزينب

حالَ دون الهوى ودو　　ن سرى الليل مصعب

وسياطٌ على أكـ.　　فِّ رجالٍ تُقَلّب

فديوان ابن قيس يرتبط بحوادث المدينة في أثناء خلافة معاوية، وقد يكون في هذه القطعة ما يدل على أن ابن قيس كان يحيا من بعض الوجوه حياة لاهية، فهو يتبع المغنين، وهو يضج من صعوبة مصعب وسيده مروان، وهو يدعو إلى الطرب والشراب.

على أن اتصاله بسائب خاثر وبديح، وكانا موليين لعبد الله بن جعفر سيد بنى هاشم، يدل على أنه اتصل بسيدهما. وليست المسألة مسألة استنتاج، فديوانه ملىء بأشعار في مدح عبد الله، وسنراه يلجأ إليه ويلزم حماه فيما بعد. ونلاحظ هنا أن طبيعة حياة ابن قيس وشعره، إذ

---

(5) أغاني ٥/٨١.

(6) غانى٦/٢٢٠.

(7) الديوان ص ٩٤.

(1) ابن عبد ربه ٣/٢٤٥.

(2) أغانى ٥/٧٢- ٧٤.

كان يمدح به سادة قومه، تدل دلالة قاطعة على أنه اتصل بعبد الله بن جعفر، جواد الحجاز في هذا التاريخ. وزعم بعض الرواة أنه شبب برقية ابنته[٣].

غير أن الرواة على عادتهم شوشوا لنا في أخباره وجعلوه لايتصل بعبد الله في هذه الفترة من حياته، إنما يتصل به فيما بعد على ما سنرى. ويقول أبو الفرج: كان ابن قيس الرقيات منقطعاً إلى عبد الله بن جعفر وكان يصله ويقضى عنه دينه[١]

وما نمضي بعد خلافة معاوية إلى خلافة يزيد ابنه حتى نجد ابن قيس يترك المدينة إلى الجزيرة وإلى الرقة خاصة. يقول السكرى جامع ديوانه: " خرج الوليد ابن عقبة بن أبى معيط سنة سبع وثلاثين حتى نزل الرقة فكان بمها وكان معه العلاء ابن عبد بن اهبان بن جابر بن ضباب بن حجير بن عبد بن معيص. وكانت تحته هند بنت عقبة أخت الوليد في ناس من قومهم، فيهم عبد الواحد بن أبى سعد بن قيس بن وهب فأقاموا معه وأقبل عبيد الله بن قيس الرقيات... فأقام فيهم حتى كانت وقعة الحرة، فقتل فيها ناس من أهل بيته، وكان الذي كتب إليه بنعيهم ابن عم له يقال له يزيد بن على بن عبيد الله بن رحضة بن عامر بن رواحة بن منقذ ابن عمرو بن معيص، فنعى إليه اسامة وسعداً ابنى عبد الله بن قيس الرقيات [٢] ". ويمضى السكرى فيقول: "إن أثيلة بنت مسافع بن فصالة الخزاعية امرأة أسامة حملت أولادها قيساً وعقبة ومحمداً إلى الجزيرة حين قتل أبوهم وعمهم، فبقيت بها، فأقام عبيد الله بن قيس كذلك. ثم أغار عمير بن الحباب، على بنى عامر بن لؤى، وكانوا يحبون بنى أمية، وإنما سمى واديهم " وادي الأحرار " بيزيد بن معاوية، وكان نزل بهم في خلافته، وذلك لأن حرب بن عبد الواحد بن أبى سعد أصاب رجلا من بنى ذكوان (من سليم) فقتله، فآلى عمير بن الحباب ألا يدع بوادى الأحرار رجلاً إلا قتله به. وأغار عمير فأخذ عبيد الله بن قيس أسيراً، فلما قدمه ليقتله وثب عليه رجل من بنى قنفذ من رعل، فمنعه [٣] وذكر ذلك ابن قيس في شعره[٤]. ولحن نعرف أن عمير بن الحباب كان من زعماء القيسية في الموصل وأنه بايع مروان ابن الحكم بعد وقعة مرج راهط، ثم خرج عليه بعد قتل إبراهم ابن الأشتر لابن زياد

---

[3] انظر الورقة الأولى في ديوان ابن قيس (مخطوطة بدار الكتب) رقم ٨٨ ش.

[1] أغاني ٨٢/٥.

[2] الديوان ص١٨٤.

[3] الديوان ص ١٩٢.

[4] الديوان ص ١٩٤ وكذلك ص ١٩٧.

وهزيمة جيشه الذي وجهه عبد الملك لحرب المختار الثقفى والى ابن الزبير على الكوفة، وكان ذلك في أواخر سنة ٦٦ للهجرة.

ولجأ عمبر إلى زقر يقر قيسيا وأخذ يكيد لتغلب واليمنية وأنصار الأمويين [١]، فكانت من ذلك غارته على عشيرة ابن الرقيات، ونظن أن ذلك إما كان في أواخر سنة ٦٦ للهجرة أو أوائل سنة ٦٧. ويقول السكرى: إن ابن قيس ارتحل بعد ذلك سائراً إلى فلسطين [٢] ويظهرأنه لم تكن وجهته فلسطين، وإنما كانت وجهته الحجاز، فنحن لانجد في أخباره ما يدل على أنه اتصل حينئذ بعبد الملك، وقد صارت إليه الخلافة بعد أبيه مروان منذ سنة ٦٥ للهجرة. وإن كنا نلاحظ من طرف آخر أن ابن قيس حتى هذا التاريخ لم يكن زبيرياً، فقد كان بين عشيرته في الموصل، وكانوا يحطبون في حبل بنى أمية على الرغم من قتل منهم في موقعة الحرة.

وولَّى ابن قيس وجهه نحو الحجاز، ونزل بالمدينة، ولقى سعيد بن المسيب، فهش وقال: مرحبا بظفر من أظفار العشيرة، وكان سعيد مخاصماً للأمويين [٣]، ولعله هو الذي أملى على ابن قيس اتجاهه الجديد إلى الزبيرين. ويقول من حدثوا بهذا اللقاء إنه أنشد سعيداً:

أتلبثُ في تَكْرِيتَ لا في عشيرة ... شهود ولا السلطان منك قريب

وأنت امرؤ للحزم عندك منزلٌ ... وللدينِ والإسلامِ منك نصيب

فقال سعيد: لا مقام على ذلك، فاخرج منها، قال: قد فعلت، قال: قد أصبت، أصاب الله بك [٤] وصمم ابن قيس ألا يعود إلى تكريت في الموصل، وآزرذلك ووكده في نفس ابن قيس ما كان من قتل الأمويين وجنودهم لابنى أخيه في موقعة الحرة، فانصرف عنهم إلى آل الزبير.

ويظهر أنه نم يذهب إلى مكة، بل ذهب مباشرة إلى العراق حيث ولى مصعب ابن الزبير هناك على البصرة، وكان بحراً فياضة من بحور قريش، فلزمه منذ ولايته هذه، ورأى حربه مع المختار الثقفى والى الكوفة وقضائه عليه، وذكر ذلك في شعره[٥]

---

[1] الكامل في التاريخ لابن الأثير طبع أوروبا ٢٥٣/٤ وما بعدها.

[2] الديون ص ١٩٩.

[3] طبري ١١٦٩/٢.

[4] أغاني ٩١/٥.

[5] الديوان ص ١٧٥، ص ٢٧٣.

وعلى هذا النحو لا نصل إلى سنة ٦٧ للهجرة حتى يصبح ابن قيس زبيرى [١] الهوى. وعزل عبد الله بن الزبير أخاه عن العراق سنة ٦٧ بعد أن قتل المختار، ثم أعاده ثانية[٢]سنة ٦٨، واستمر معه ابن قيس هناك بل أصبح شاعر الز بينين الأول. وهو في الواقع كان شاعراً لمصعب نفسه قبل أن يكون شاعراً لأخيه، وقد ذهب يتغنى غناء خالدا بأعماله وحروبه مع المختار، والخوارج، والجيوش التي أرسلها عبد الملك، فباءت بالخيبة والفشل وما زال مع مصعب يغنيه أعماله حتى تحرك عبد الملك إللى حربه. ونحن ننقل ما ذكره بنفسه عما كان من شأنه معه: " قال: خرجت مع مصعب بن الزبير حين بلغه شخوص عبد الملك ابن مروان إليه، فلما نزل مصعب بن الزبير بمسكن [٣]، ورأى معالم الغدر ممن معه دعانى ودعا بمال ومناطق، فملأْ المناطق من ذلك المال، وألبسنى منها، وقال لى انطلق حيث شيءت فإنى مقتول، فقلت: لا والله ولا أريم [٤] حتى أرى سبيلك، فأقمت معه حتى قتل، ثم مضيت إلى الكوفة، فأول بيت صرت إليه دخلته، فإذا فيه امرأة لها ابنتان كأنهما ظبيتان، فرقيت في درجة لها إلى مشربة [٥]، فقعدت فيها، فأمرت لى المرأة بما أحتاج إليه من الطعام والشراب والفرش والماء للوضوء. فأقمت عندها أكثر من حول، تقيم لى ما يصلحنى، وتغدو على في كال صباح... وأنا في ذلك أسمع الصياح في والجعل. فلما طال بى المقام، وفقدت الصياح في وغرضت [٦] بمكانى غدت على، فعرفتها أفى قد غرضت، وأحببت الشخوص إلى أهلى، فقالت لى: نأتيك بما تحتاج إليه إن شاء الله تعالى، فلما أمسيت وضرب الليل بأرواقه رقيت إلى، وقالت إذا شيءت! فنزلت وقد أعدت راحلتين عليهما ما أحتاج إليه ومعهما عبد، وأعطت العبد نفقة الطريق، وقالت: العبد والراحلتان لك، فركبت، وركب العبد معى حتى طرقت أهلى بمكة، فدققت منزلى، فقالوا لى: من هذا؟ فقلت عبيد الله بن قيس الرقيات، فولولوا وبكوا، وقالوا ما فارقنا طلبك إلا في هذا الوقت. فأقمت عندهم حتى أسحرت، ثم نهضت ومعى العبد، حتى قدمت المدينة، فجئت عبد الله بن جعفر بن أبى طالب عند المساء، وهو يعشى أصحابه،

---

[1] أغانى ٧٦/٥.

[2] ابن الأثير ٢١٩/٤- ٢٣٨.

[3] مسكن: موضع قريب من دير الجاثليق على نهر دجيل.

[4] لا أريم: لا أبرح

[5] مشربة: غرفة

[6] غرض: ضجر.

فجلست معهم وجعلت أتعاجم، وأقول يا ريار ابن طيار، فلما خرج أصحابه كشفت له عن وجهى، فقال: ابن قيس؟ فقلت: ابن قيس، جئتك عائذاً بك، قال: ويحك ما أجدهم في طلبك وأحرصهم على الظفر بك! ولكنى سأكتب إلى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، فهي زوجة الوليد بن عبد الملك، وعبد الملك أرق شيء عليها، فكتب إليها يسألها أن تشفع له إلى عمها، كتب إلى أبيها يسأله أن يكتب إليها كتاباً يسألها الشفاعة، فدخل عليها عبد الملك كما كان يفعل وسألها: هل من حاجة؟ فقالت: نعم لى حاجة، فقال: قد قضيت كل حاجة لك إلا ابن قيس الرقيات، فقالت: لا تستثن على شيئاً، فنفخ [1] بيدها، فأصاب خدها، فوضعت يدها على خدها، فقال لها: يا ابنتى ارفعى يدك، فقد قضيت كل حاجة لك، وإن كانت ابن قيس الرقيات، فقالت: إن حاجتى ابن قيس الرقيات تؤمنه، فقد كتب إلى أبى يسألنى أن أسألك ذلك، قال: فهو آمن فمربه يحضر مجلس العشية، فحضر ابن قيس، وحضر الناس حين بلغهم مجلس عبد الملك، فأخر الإذن، ثم أذن للناس، وأخر إذن ابن قيس الرقيات، حتى أخذوا مجالسهم، ثم أذن له، فلما دخل عليه قال عبد الملك ياأهل الشام أتعرفون هذا؟ قالوا لا، فقال: هذا عبيد الله ابن قيس الرقيات الذي يقول:

كيف نَومى على الفِراش ولما ... تشملِ الشام غارةٌ شَعواء

تُذْهِلُ الشيخَ عن بنيه وتُبدى ... عن خِدامِ [2]العقيلةُ العذراء

فقالوا يا أمير المؤمنين: اسقنا دم هذا المنافق ! قال الآن وقد أمنته وصار في منزلى وعلى بساطى؟! قد أخرت الإذن له لتقتلوه، فلم تفعلوا. فاستأذنه ابن قيس أن ينشده مديحه، فأذن له، فأنشده قصيدتهالتييقول فيها:

عاد له من كثيرةَ الطّرب ... فعينُه بالدموع تنسكب

حتى قال فيها:

إن الأغر الذي أبوه أبو الـ ... ـعاصى عليه الوقار والحجب

يعتدل التاج فوق مفْرِقِهِ ... على جبينٍ كأنه الذهب

فقال له عبد الملك يا ابن قيس: تمدحنى بالتاج كأنى من العجم وتقول في مصعب:

---

[1] فح: ضرب ضربة خفيفة.

[2] خدام: على نية المضاف إليه أي خدامها وهو الخلخال

إنما مصعب شهاب من اللـ . ـهِ تجلّتْ عن وجهه الظلماء

ملْكُه ملْك عِزة ليس فيه جبروتٌ منه ولا كبرياء

أما الأمان فقد سبق لك، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً. وقال ابن قيس الرقيات لعبد الله بن جعفر: ما نفعنى أمانى، تركت حيا كميت لا آخذ مع الناس عطاء أبداً، فقال له عبد الله بن جعفر: كم بلغت من السن؟ قال ستين سنة، قال فعمر نفسك؟ قال عشرين سنة من ذى قبل [١] فذلك ثمانون سنة. قال: كم عطاؤك؟ قال ألفا درهم، فأمر له بأربعين ألف درهم، وقال: ذلك لك على إلى أن تموت على تعميرك نفسك[٢].

وإنما نقلنا ذلك الخبر على طوله مع أنه يشبه أن يكون قصة، لأنه يتضمن في ثناياه الحقيقة، فإن ابن قيس استمرملازماً لمصعب حتى قتل، فلما قتل فر، وأهدر عبد الملك دمه، فكان لابد له من الاختفاء. وهنا تلعب القصة دورها، فقد زعم الرواة أن المرأةالتياختفى عندها هي كثيرة [٠٣] التى شبب بها كثيراً في شعره.

ويبالغ الرواة ويعطون القصة لونها الذي رأيناه، فقد أمضى عند كثيرة هذه سنة تتعقبه شرطة عبد الملك ويتعقبه الصياح به وأن من وجده أو دل عليه فله ألف دينار [٤]ثم تخف الحملة عليه، ويفقد الصياح فيطلب من المرأة أو من كثيرة الخروج من دارها، فتأتيه تحت الليل براحلتين وعبد معهما، وتعطيه نفقة الطريق.

وربما كانت كثيرة هي المفتاح الذي نعرف عن طريقه كل هذه القصة، فابن خلكان يذكر أن كثيرة هذه تزوجت على[١] بن عبد الله بن العباس، وفى الطبري أنه لما دخل عبد الملك الكوفة بعد مقتل مصعب سأل عن بعض أنصاره ممن أوغروا الشام عليه وأفسدوا العراق، فقيل قد أجارهم روساء عشائرهم، قال وهل يجير علي أحد؟ وكان عبد الله بن يزيد بن أسد

---

[1] نذى قبل: يريد في المستقبل.

[2] أغاني ٥/٧٦.

[03] أغاني ٥/٨٤.

[4] اريخ دمشق المجلد ٢٥ الورقة ٢٠٩.

[1] وفيات الأعيان (طبع أوربا) ص ١٢

لجأ إلى على بن عبد الله بن العباس ولجأ إليه أيضاً يحيى بن معيوف الهمدانى، فأمنهما عبد الملك وظهر [٢]

ونستطيع أن نصل الآن بين كثيرة وزوجها الذي كان يلجأ إليه من يطلبهم عبد الملك بعد مقتل مصعب، وأن نظن أن ابن قيس إنما لجأ إلى على بن عبد الله لا إلى كثيرة نفسها كما ظن الرواة، ولم يستطع على فيما يبدو أن يستصدر له أمراً بالعفو من عبد الملك، لأنه سبق إلى إعلان إهدار دمه، أو لأن ذنب ابن قيس كان عظيما، فقد كان يدعو إلى حربه، وكان يؤلب عليه، مع مصعب، بشعره. وأخفاه على بن عبد الله عنده حتى إذا ضعف طلبه أعانه على الفرار إلى ابن عمه عبد الله بن جعفر، فقد كان قريبا من نفس الأمويين وكان محببا إليهم، وأصهر إليه عبد الملك. على أن ابن جعفر نفسه لم يستطع أن يطلب له الأمان من عبد الملك مباشرة، بل أرسل إلى عبد العزيز بمصر، واتخذ له وسيطاً بنته عند أم البنين، فشفعت فيه على ماجاء في القصة

ولجؤ ابن قيس إلى عبد الله بن جعفر تضافرت به الروايات[٣] وفى شعره ما يؤكده، بل ما يثبته من نحو قوله[٤]:

تداركَنى عبد الإله وقد بدتْ لذى الحقد والشّنْآن منّي مقاتلى

فأنقَذنى من غَمرة الموت بعدما رأيتُ حِياض الموت جم المناهل

ومعنى ذلك أن استجارة ابن قيس بابن جعفر ثابتة، ولكن بقيت في القصة بقية، فهل شفع له ابن جعفر عند عبد الملك مباشرة، أو شفع له بواسطة أم البنين؟

أنشده يوماً قصيدة يقول فيها:

يا بشر يا ابن الجعفَريةِ ما خَلَقَ الإله يديك للبخلِ

فقال له بشر: احتكم، قال: أعطنى عشرين ألف درهم، فقال بشر: قبحك الله، لك عشرون وعشرون وعشرون وعشرون وعشرون، فأعطاه مائة ألف درهم[١]. ونحن نعرف أن بشراً

---

[2] الطبري ٨١٧/٢ وانظر اليعقوبي ٣٢٧/٢.

[3] نظر الشعر والشعراء ص ٣٤٤ والكامل للمبرد ص ٣٩٨ والخزانة ٢٦٨/٣.

[4] أغاني ٨٢/٥.

[1] انظر أنساب الأشراف للبلاذرى ١٧٥/٥.

وافته المنية سريعاً فسرعان ما توفى وخلفه الحجاج سنة ٧٥ للهجرة. وليس في ديوان ابن قيس ولا في أخبار؟ ما يدل على أنه وفد على العراق بعد وفاة بشر، ولعله لم يذهب مخافة الحجاج على نفسه، أو لعله لم يذهب لأنه اتصل بعبد العزيز بن مروان والى مصر. ومر بنا ما يقال من أنه كان أحد شفعائه عند عبد الملك، ولا نعرف لماذا لم يذهب إليه مباشرة وذهب إلى العراق، ولعله إنما ذهب إلى العراق لأنه ترك هناك بعض أهله، وكان كثير من عشيرته في الموصل.

ونحن نظن أن ابن قيس لم يستمر في العراق حتى وفاة بشر وأنه عاد قبل ذلك، فقد اتخذ على ما يظهر مكة مقاماً [٢] له، وكان يرحل منها إلى المدينة لمديح ابن جعفر وأخذ نواله، كما كان يرحل منها إلى مصر لمديح عبد العزيز وحمل جوائزه وعطاياه. وفي ديوانه قصائد كثيرة في مديح عبد العزيز وابن جعفر. ويروى أبو الفرج أن صلةً جاءت ابن جعفر من لدن عبد الملك وابن قيس غائب، فأمر عبد الله خازنه، فخَبا له صلته، فلما قدم دفعها إليه، وأعطاه جارية حسناء، فقال ابن قيس[٣]:

إذا زرتُ عبد الله، نفسى فداؤه رجعتُ بفضلٍ من نَداه ونائل

حبانَى لما جئته بعطية وجارية حسناء ذاتِ خلاخِل

وما زال يأخذ صلات ابن جعفر حتى توفى سنة ٨٠ للهجرة، وقيل بل سنة أربع وثمانين أو خمس وثمانين[٤] وأكبر الظن أن صلات عبد العزيز بن مروان لم تنقطع حتى توفى هو الآخر سنة ٨٥ للهجرة [١]، فقد لزمه وكاد أن يكون شاعره.

ولا نجد ذكراً لابن قيس الرقيات بعد هذا التاريخ إلا ما يذكره الرواة من أن أم البنين حجت في خلافة زوجها الوليد بن عبد الملك (٨٦- ٩٦هـ.) فنظم الشعراء فيها وفى جواريها. وروى أبو الفرج لابن قيس شعراً قاله حينئذ في أم البنير [٢] ومعنى ذلك أن ابن قيس عاش إلى ما بعد وفاة ابن جعفر وابنى مروان: عبد العزيز وعبد الملك، ولكن ليس في ديوانه ما

---

[2] انظر أغاني ٩٣/٥.

[3] أغاني ٨٢/٥.

[4] أسد الغابة ١٣٥/٣.

[1] طبري١١٦٥/٢وابن الأثير ٤٠٩/٤.

[2] أغاني٢٢٠/٦.

يدل على أنه مدح الوليد. وأكبر الظن أنه لم يعش حتى آخر عهده بل لم يستمر في خلافته طويلاً، فإن عمر بن عبد العزيز ولى المدينة سنة ٨٧ للهجرة، وليس في ديوان ابن قيس مديح له، ولو لحقه ابن قيس لمدحه كما مدح أباه ول نعمته، وكان يتعصب لبيته على بيت عبد الملك تعصباً شديداً. ويروى أن ابن جعفر قال له سنة ٧٣ للهجرة حين طلب له العفو من عبد الملك: عمر نفسك، فعمرها ستين، وإذن فعبد العزيز بن مروان توفى وعمره اثنتان وسبعون سنة، ويغلب على الظن أنه لم يعش طويلاً بعد ذلك.

ونرى مما قدمنا أن ابن قيس عاش حياة طويلة، وقد لونت في أوائلها وفى أثناء مقامه في مكة والمدينة بألوان من اللهو[٣] إذ كان يجرى في أثر المغنين والمغنيات، وكان يتبعهم، ويعقد الصداقة بينه وبينهم. على أنه سرعان ما اصطدم بالحوادث بعد ذلك، فانتقل إلى الرقة، وأسره عمير بن الحباب، ثم افتك أسره، وقد أخذ يكثر من بكاء شبابه[٤] منذ أن جاءته أخبار وقعة الحرة وموت ابنى أخيه: أسامة وسعد فيها، وتعلو شعره من حين إلى آخر مسحة من الحزن والتفكير في الحياة والموت كقوله[٥]:

هل ترى من مخلَّد غير أن الله ... يبقى وتذهب الأشياء

يأمل الناس في غد رغَب الده ... رِ ألا في غد يكون القضاء

وطبيعي أن ترتفع هذه النغمة الحزينة في شعر ابن قيس من وقت إلى آخر، فقد ألمت به حوادث كثيرة، وأوشك عبد الملك أن يطير به طيرة بطيئاً سقوطها، ومن قبله أوشك عمير بن الحباب أن يقضى عليه. ومن هنا لا يكون غريباً أن تغمر شعره ظلال حزينة أحياناً.

وقد يكون لهذه النزعة في طوايا نفسه أثر في إقباله على الشراب، ومرت بنا قطعة قالها في أيامه الأول بالمدينة حين وليها مروان بن الحكم وضبطها مصعب بن عبد الرحمن بن عوف برجال من أيلَةَ تتحرك السياط في ايديهم ويخاف الناس من مغنين وغير مغنين بطشهم. ونراه في هذه القطعة يدعو إلى الشراب. ويظهر أنه عنى بعد مفارقته المدينة به، فعن يونس أنه شغل نفسه بالشراب بتكريت [١] وربما كان يونس مبالغاً. وفى ديوانه [٢]

---

[3] أغاني طبع بولاق ٥٩/١٦.

[4] لديوان ص ٦٨، ١٣٥، ١٤١، ٢٠١.

[5] الديوان ص ١٧٣.

[1] أغاني ٨٨/٥.

وسلاف مما يعتَّقُ حِلٍّ زاد في طِيبها ابن عبدِ كُلالِ

وأكبر الظن أنه يقصد نبيذ التمر الذي كانوا يحلونه في المدينة[٣]، ولذلك نعته بأنه حل. ولكن على كل حال هذا بيت عابر في الديوان، ومثله بيت القطعةالتيأشرنا إليها:

علّلِ القوم يشربوا كى يلدُّوا ويطْربوا

أما بعد ذلك، فليس هناك ما يدل على ما زعمه يونس من أنه شغل نفسه بالشراب، فأكبر الظن أنه إنما صنع ذلك في فترات متقطعة، وقد تكون حياة اللهو والبهجة في المدينة هيالتيدفعته أولا إلى شراب الخمر، ثم أخذ يشربها بعد وقعة الحرة في تكريت وغرها لينفس عن نفسه وما أصابها من حزن وحسرة، غير أن ذلك كان عارضاً في حياته كما عرض البيتان السابقان في ديوانه.

وأهم صفة تميز ابن قيس هي صفة الوفاء، فقد كان وفيا لآله وأصدقائه أما وفاؤه لآله فيتضح في تأثره الشديد بقتلاهم في موقعة الحرة، وما صاغه من شعر عقب ذلك. وأما وفاءه لأصدقائه فيتضح في رثائه لمصعب وقد بكاه طويلاً في ديوانه.وفىالأغانيأنه " كان عند عبد الملك، فأقبل غلمان له معهم عساس[١] خلنج، فيها لبن البخت [٢]، فقال عبد الملك يا بن قيس أين هذا من عساس مصعب اك تقول فيها:

ملك يطعم الطعام ويسقى لَبن البخْتِ في عِساسِ الخَلَنْجِ

فقال: لا أين يا أمير المؤمنين لو طرحت عساسك هذه في عسن من عساس مصعب لوسعها وتغلغلت في جوفه. فضحك عبد الملك ثم قال قاتلك الله يا ابن قيس! فإنك تأبى إلا كرماً ووفاء" وهذه شهادة عظيمة، من خصم مصعب، بوفائه وحرصه البالغ على الوفاء.[٣]

---

[2] الديوان ص ٢٠٦.

[3] أغاني ١٥/١٥ وانظر أغافى طبع دار الكتب ٣٥١/٢ وما بعدها.

[1] العساس جمع عس وهو القدح. والخلنج نوع من الخشب.

[2] البخت: جمع بختية وهي الناقة الخراسانية.

[3] أغاني ١٧١٦٧.

(٣) غزل ابن قيس وشعره

احتفظ لنا كتاب الأغاني بطائفة من أغاني ابن قيس، وأكثرها يدور حول الحب الذي شغلت أقاصيصه الناس في هذا العصر، فقد كان العصر عصر فراغ وتعطل. لم تعد هناك هذه الحروب المدوية في أطراف العالمالإسلامي، وعاد الناس أو عاد كثير منهم إلى مسقط رأسه في مكة والمدينة، وامتلأت حجورهم بالمال الذي جلبوه من الخارج، وأخذوا يعيشون على نمط جديد، فيه فراغ من جهة، وفيه ترف ودعة من جهة أخرى، فظهر الغناء، ولم يلبث أن ارتفع به المغنون إلى الأوج أو إلى القمة، وكاد أن يكون في كل بيت من بيوت أشراف قريش مغن أو مغنية أو مغنون ومغنيات، كبيت الثريا في مكة، وقد تحدثنا عنه مراراً، وكبيت عبد الله بن جعفر في المدينة، وكان فيه سائب خاثر وبديح ونشيط، وعلى أيديهم تخرج أكثر المغنين والمغنيات في المدينة.

وكانت الحياة في مكة والمدينة هذا العصر تدفع كل شاعر هناك للاتصال بالمغنين حتى يروج اسمه، وتشيع شهرته بين النبلاء والأشراف، الذين لم يكن لهم عمل سوى الاستماع إلى الغناء وآخر ما أحدثه أصحابه من أغنيات.

ولم تقف المسألة عند الرجال فإن المرأة القرشية الشريفة أخذت تغنئ بهذا الجانب وما يتصل به من الشعر على نحو ما كانت السيدة ثريا تصنع في مكة، وفيها يقول ابن قيس الرقيات[1]:

يا سليمان إن تُلاق الثُريا	تلقَ عيشَ الخلود قبل الهلالِ
حبذا الحج والثُريا ومن بالْ.	خَيفِ من أجلها وملْقَى الرحال
درةٌ من عقائل البحر بِكْر	لم تنلها مثاقب اللأّلِ

وهل هناك من شاعر يعيش في مكة، ويستمر له العيش فيها أو يفارقها، إلا وهو يذكر الثريا صاحبة الغريفى ويحيى قيل وسمية، وكانت تستقبل في منزلها الشعراء وعلى رأسهم عمر بن أبى ر بيعة. إنها سيدة مكة، سيدة شريفاتها اللائى أظهرن ذوقاً بديعاً في العناية بفن الغناء الجديد وأصحابه من المغنين ومن يصنع لهم الأغاني من الشعراء. لهذا كله يكون من

---

[1] الديوان ص ٢٠٦ وانظر أغاني ٢١٣/١.

الطبيعي أن يذكرها ابن قيس، فهي الزهرة الغضة الناضرة بمكة، وهي صاحبة الذوق الفنى السليم في تقدير الشعر والشعراء والغناء والمغنين.

ونحن لا بد أن نلاحظ الأيام التي مرت على الناس وعلى المرأة خاصة في مكة في عصر الفتوح وبعده. فقد هاجر كثير من الشباب إلى الفتوح والبلاد المفتوحة كثير منهم عاد ومعه غنائم الفتوح من أموال ورقيق وجوار. وسرعان ما رأت المرأة القرشية نفسها تخرج من حياتها القديمة الخشنة إلى حياة جديدة مترفة زاخرة بألوان من الحضارات الأجنبية وبصنوف من الجواري الأجنبيات، فكان من الطبيعي أن تندفع في هذه الحياة وأن تأخذ منها بحظ بل بحظوظ، فتساهم في المتاع بفن الغناء الجديد، وتهئ بمالها من مكانة رفيعة في مجتمعها لهذا الفن جوا من استحسانه والعناية البالغة به.

وأعد ذلك لنهضة حقيقية في الغناء وفي الشعر الذي يتخذه هذا الغناء، وكان ابن قيسى ثانى اثنين ينهضان بهذا الشعر: هو من طرف، وابن أبى ربيعة من طرف آخر، غير أن ابن كيس لم تهدأ له الحياة هدوءها لعمر. ومعنى ذلك أن الأسباب لم تكفل له، حتى يخصص نفسه لهذا الشعر الذي كانت تطلبه مجالس الأشراف والشريفات في مكة والمدينة ونوادى الغناء فيهما، ونقصد شعر الحب أو كما يسمى شعر التشبيب والغزل، فقد ألهته أحداث الدنيا عن هذا التخصص، ولم يكن ثيريا ثراء عمر، فانقسمت نفسه بين المديح والغزل.

ومع ذلك فشعر ابن قيس في الغزل والتشبيب يحلق في أجواء الفن العليا من حيث الصفاء وشفافية التعبير، ومن حيث القيم الغنائية الخالصة، فقد توفرت له المعيشة في مكة، هذه البيئة المترفة حيث الثريا ومغنوها ومغنياتها، حيث ابن سريج وابن مِسجح وابن محرز. ثم انتقل ابن قيس إلى المدينة، وانعقدت في أثناء مقامه بها الصداقة بينه وبيت فند ثم بينه وبين سائب خاثر وبديح على ما مر في غير هذا الموضع. وكما صحب هناك المغنين صحب المغنيات وعلى رأسهن سلامة القس التي فتنت قس مكة المشهور عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمي وفيها في أختها ريا يقول بيتيه اللذين أنشدناهما في ترجمة سلامة بكتاب المدينة:

لقد فتنتْ ريا وسلاَّمةُ القَسا ... ذفلم تتركا للقَس عقْلاً ولا نَفْسا

فتاتان أما منهما فشبيهةُ الـ ... ـهلالِ وأخرى منهما تشبه الشمسا

وفىالأغاني أنه كان يجلس إليهما يستمع إلى غنائهما في شعره وشعر غيره [١]وحياة ابن قيس من هذه الناحية حياة شاعر أغان بالمعنى الكامل، فهو يلزم المغنين والمغنيات ويستمع إلى ألحانهم وأنغامهم، ويقف على ما يريدون من تجديد في الشعر تحت. تأثير هذه الأنغام والألحان. وفى أثناء ذلك كان يقدم لهم ما يحدث من طرائف الأغافي، فيذيعونها على قيثاراتهم.

وكل من يطلع على الأغاني التي كان يلحنها المغنون والمغنيات في شعره يعجب بمقدرته على النظم في هذا الشعر الذي يقطر فيه ابن قيس عواطف الناس من حوله، وهي عواطف كان يعبق بها جو مكة والمدينة، وكان ابن قيس يجمع لنفسه منها كل ما يستطيع من قطرات نفسية!وحبات وجدانية، ويرسلها في الناس عن طريق المغنين والمغنيات، فيضجون بالإعجاب والاستحسان الشديد[١].

وتنوعت الأسماء التي احتواها شعر ابن قيس، والتي تغنى بها في ديوانه، فنحن نجد هذه الأسماء عنده: أمة الغفار وتكتم وأم مساحق واثلة وقسيمة وليلى وأسماء (أم بشر) وريا وسلامة وسعده وسعدى وسلمى وسليمى ومريم بنت الحواري وعاتكة وسلمة ورقية (نعما، أم عمرو) وأم الوليد وأم البنين و كثيرة والثريا وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين.

وأكثر هذه الأسماء جاء في شعره عابراً ولم يعن به الرواة، وهي كما نرى أسماء تختلط فيها الجواري من مثل ريا وسلامة بالشريفات من مثل الثريا وأم الوليد بن عبد الملك وأم البنين زوجته وعاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك وبنت الحوارى ولعلها أخت مصعب بن الزبير فهو يسميه كثيراً ابن الحوارئ [٢]، كما تختلط فيها أسماء قريباته من مثل ليلى وأسماء [٣](أم بشر) وأثلة[٤]بغيرهن من غير قريباته.

---

[1] أغاني ٣٣٧/٨.

[1] أغانيى ٩٩/٥.

[2] لديوان ص ٢٨٧ وأغاني طبع بولاق ١٦٥/١٧.

[3] الديوان ص ١٨٨ انظر ص ٢٣٧ وص ٢٥٣ أنظر ص ٢١٣.

[4] الديوان ص ٢٦٣ وانظر ص ١٩٢.

والنساء اللائى تعلق بهن واللائى قال فيهن ما يمكن أن نسميه غزلاً هن رقية بنت عبد الواحد ابن عمه وأختها سعدة، وكثيرة، ثم نساء بنى أمية وعائشة وسكينة زوجتا مصعب بن الزبير.

ولابد أن نميز بين غزل ابن قيس في رقية وأختها وغزله في نساء مصعب وبنى أمية، فهو في غزله الأول يحكى عاطفة حقيقية، أما في غزله الثاني فيحاول أن يرضى السياسة أحياناً وأن يرضى عواطف الناس وعواطف هؤلاء اللائى تغزل بهن أحياناً أخرى "

وتتقدم النساء اللائى تغزل بهن جميعاً رقية ابنة عمه عبد الواحد، وكان لتسمية معاصريه له بابن قيس الرقيات أثر بعيد في اختلاط الأمر على الرواة كما تقدم في حديثنا عن تلقيبه، فقالوا إنهن ثلاث: رقية ابنة عمه، ورقية ابنة عم لها، ورقية ثالثة اختلفوا فيها، فقال قوم: هي أموية، وقال آخرون: هي ابنة عبد الله ابن جعفر، ورأى أبو عبيدة أنهن اثنتان لا ثلاث.

وكل هذا يدل على اضطراب الرواة، في رأينا أنها لم تكن إلا رقية واحدة هي ابنة عمه عبد الواحد. ويقول السكرى جامع ديوانه- كما مز بنا- إن عبد الله أقبل على الرفة فأقام في جماعة من قومه فيهم عبد الواحد بن أبى سعد ابن عمه وإنما في عليه " الرقيات " لأنه كان يشبب برقية وسلمة ابنتى عبد الواحد[١]، ومعنى ذلك أن معرفته برقية جاءت بعد نزوله في أهلها بالرقة. فيالأغانيأنه رآها في أثناء حجها مع أهلها كما قدمنا. وربما كان هذا الرأى أوجه من الرأى الأول، فإننا!بد لابن قيس قطعة في رقية تجرى على الألسنة في المدينة، ويروجها مروان ابن الحكم في أثناء عزله عن المدينة زمن معاوية [٢]، فمعرفة ابن قيس برقية قديمة. ومن يطير على ديوان ابن قيس يجده يكثر من حادث رؤيته لصاحبته في الحج، ولذلك كنا نظن بل نقطع بأنها صحبت أباها في أثناء حج له. وهناك رآها ابن عمها فشغفت قلبه حباً، وحاول أن يسلو عنها بانتقاله إلى المدينة، ولكن مرضه بها كان يعاوده، وكان أقوى في نفسه من أن ينصرف عنه؟ فذهب يتغنى بها منذ فارق ركبها مكة [٣]إلى أن لقيها في الرقة.

---

[1] الديوان ص ١٨٥.

[2] ابن عبد ربه ٣/٢٤٥.

[3] الديوان ص٢٦١ وص ٢٨٩ حيث يذكر سلمة أخت رقية.

رقية إذن هي المرأة الأولي حياة ابن قيس، وقد ذهب يملأ باعها جميع أركان مكة، والمدينة ونواديهما، يحاول أن يجد في ذلك مايخففف من لواعج الحب في نفسه، بل لعله كان يريد أن يذكيها، وأن يشعل بها جنبات نفسه حنبات المدينتين الكبيرتين من حوله. إنها ابنة عمه، وهي أول من غيرها بشعره، إنها لاتقصر عن هؤلاء النبيلات اللائى يتغنى بهن ابن أبي ربيعة. ويظهر أن ابن عمه عبد الواحد كان يعجب بذلك منه وكان يرضى عنه، فتيات بنى معيص بن عامر ابن لؤى لسن أقل جمالاً ولا تأثيراً في نفوس الشعراء من فتيات الأمويين وغيرهم من نبلاء قريش، فلما تبع ابن قيس هواه في الرقة وجد هناك قلوباً تنتظره وأفئدة تصبو إليه، فطاب له المقام هناك ترعاه عن رقية من بعيد وعن أختها سلمة وعيون قومه وعشيرته.

وتمتاز مقطوعات ابن قيس في رقية بصدق العاطفة وحرارة الوجدان ودقة المشاعر والإحساسات ورهافتها رهافة بالغة، هي رهافة المحب الذي يترجم عما في قلبه ويعبر عما في جوانحه على نحو ما نرى في مثل قوله[١]:

رقَى يعيشكم لا تهجرينا ومنِّينا المنَى ثم امطُلينا

عِدينا في غد ما شئتِ إنا نحب وإن مطلتِ الواعدينا

فإما تُنجزى عِدتى وإما نعيش بما نؤمل منك حينا

أغركِ أننى لا صبر عندى على هجرٍ وأنكِ تَصبرينا

وهو هنا يعلن أنه تبعها إلى الرقة وترك أهله في المدينة أو في مكة، وأظننا الآن أدركنا حلاوة صوت ابن قيس. في أغانيه التي ينظمها في رقية، ونراه يعبر عن ذوق حضرى في تدليل محبوبته والتذلال لها والضراعة والتوسل فهو يطلب منها نائلاً قليلاً أن تعده فهذا حسبه، وسواء بعد ذلك أوفت بوعدها أو لم توف، فإن ذلك يكفيه منها هناءة ومسرة، واستمع إليه يقول فيها [٢]".

حب ذاك الدلُّ[٣]والغُنُج والتى في عينها دعج

---

[1] أغاني ٥/٩٤- ٩٦.

[2] أغاني ٥/٩٧.

[3] الدل: التدليل. الغنج: حسن الدل.

والتى إن حدثتْ كذبتْ ... والتى في وعدها خَلَج[٤]

وترى في البيت صورتَها ... مثلما في البِيعة [٥] السرج

خبرونى هل على رجلٍ ... عاشق في قُبلة حرج

فإنك تحس في هذا الشعر أن قلب صاحبه يختلج بالفرح، فهو يعبر في سرور وخفة روح عن حبه، وليس من ريب في أن هذه الأبيات تمثل ذوقاً جديداً هو ذوق الشباب الحجازى في عصر ابن قيس الذين. رق شعورهم، وصفا إحساسهم، وأصبحوا أرواحاً خالصة. وما أظننا نبعد إذا قلنا إننا هنا أمام ذوق جديد وشعور جديد بالمرأة، فرجل البادية لم يكن يدق شعوره كل هذه الدقة، ولم يكن له هذه الخفة في غزله، ولم يكن ينفذ به إلى قلوبنا كل هذا النفوذ الذي نجده عند ابن قيس، واستمع إليه يقول[١]:

رقَيةُ تَيمتْ قلبى ... فواكبدِى من الحب

وقالوا داؤه طِبٌّ ... ألا بل حبها طِبى

نهانى إخواتى عنها ... وما للقلب من ذَنْب

وما أقبل نُصح النّا ... صِحى من شدة الكربِ

فإنك تجد في هذه الأبيات شفافية عن القلب والفؤاد، فليس هناك شىء يحجب بيننا وبين الشاعر فقد صهره الحب، وأشعل قلبه، فعبر عنه هذه التعبيرات الرقيقة.

واستمر ابن قيس متعلقاً برقية يقول الشعر فيها ينفث فيه ما يختلج في قلبه من عواطف وا حساسات حتى اضطرته الحوادث إلى مفارقة الرقة على نحو ما قدنا. وفى ديوانه قطعة في رثاء عبد الواحد[٢]، ولسنا ندرى أتوفى قبل مفارقته الرقة أو بعد ذلك، إلا إننا نلاحظ أنه انقطع عن ذكر رقية بعد هجرته من ديارها هناك، أما القطعةالتيجاء اسمها فيها وظن السكرى أنه وجهها في مديح عبد الله بن الزبير لقوله في أثنائها،[٣]:

---

[4] الخلج: ألاضطراب وعدم الثبات.

[5] البيعة: متعبد النصارى.

[1] أغاني ٥/٩٥ والديوان ص ١٤٠- ١٤١.

[2] الديوان ص ١٥٩.

[3] الديوان ص ٢٦٣.

وابن أسماء خير من مسح الركْـ ... ـن فَعالاً وخَيرهم بنْيانا

فأظنه وهماُ منه، إذ ابن جعفر ممدوحه ابن أسماء أيضاً، وقد دعاه بأمه في قطعة أخرى بالديوان[٤]. وليس من شك في أن صلته بابن جعفر كانت أقدم من صلته بعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب، وشعره في رقية إنما كان قبل اتصاله بهما، وقد فارقها وهو يردد في نفسه[٥]:

أَمستْ رقَية دونَها البِشْر ... فالرقَّةُ السوداء فالغَمر [١]

وانطلق ابن قيس كما قدمنا إلى فلسطين فالحجاز فالعراق حيث مصعب، وهناك رأيناه يتغزل أو يشبب بزوجتى مصعب: عائشة وسكينة غزلاً أو تشبيباً لا يراد به إلى إعلان حبه لهما، وإنما يراد به إلى إعلان جمالهما، وما يمتلك مصعب من دنيا المرأة، وإنه لأولي بدنيا الرجال أن تزحف وراءه زحفاً، ومن قوله في عائشة [٢]

جنِّيةٌ برزتْ لتقتلنى ... مطليةُ الأصداغ بالمسكِ

عجباً لمثلكِ لا يكون له ... خَرج العراق ومِنْبر الملك

فهو يخلط غزلها بالسياسة، أو هو غزل أريد به إلى السياسة وبيان حق عائشة وزوجها مصعب في الملك والحكومة.

وعلى هذا النحو كان ابن قيس الرقيات يشبب بعائشة أو بسكينة، ليشهرهما من جهة، وليثبت حقهما قى الملك والحكومة، وإن لم يصرح بذلك كما صرح في البيتين السابقين [٣]، فغرضه على كل حال الدعاية لمصعب ولأهل بيته، عن طريق الغزل. ولا نسميه غزلاً بل نسميه مديحاً لزوجتيه: عائشة وسكينة، فالغزل حينما يصبح الغرض منه التعبير عن جمال المرأة والدعاية لها دعاية سياسية أو غير سياسية يخرج من بابه إلى باب المديح، وفطن ا لقدماء لذلك، فعبروا كثيراً بقولهم: قال يمدح فلانة، وهو إنما يشبب بها وماذا نريد في مديح المرأة؟ أنريد وصفها بالفروسية والشجاعة إن هذا إن حدث يعتبر هجاء، فالمرأة في كل عصر

---

[4] الديوان ص ٢٤٩.

[5] أغاني ٩٤/٥ والديوان ص ٢٨٥.

[1] البشر: جبل يمتد من الشام إلى الفرات.

[2] أغاني (طبع بولاق) ٥٤/١٠.

[3] الديوان ص ١٣٠.

هي نفسها، ثروتها كلها جماها، ولذلك كانت تعجب دائماً بمن يصور هذا الجمال للناس من الشعراء، ويريهم أو يسمعهم ما امتازت به من حسن وفتنة.

وهذا الغزل الذي يمكن أن نسميه مديحاً في عهده الجديد، عهد ملازمته لمصعب، اقترن به غزل آخر يمكن أن نسميه هجاء، واختص به ابن قيس عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك وأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة الوليد بن عبد الملك، فنراه يتغزل بالأولى في إحدى قصائده لمصعب غزلاً فيه حرية، فهو يخاطبها، وهي تخاطبه، وإنها لتأسى على ما صارت إليه قريش من أضغان، تجعلها لاتستطيع لقاءه، يقول على لسانها[1]:

وقالتْ لو انَّا نستطيع لزركم ... طبيبان منا عالمانِ بدائكا

ولكن قومى أحدثوا بعد عهدنا ... وعهدك أَضغانا كَلَفْن بشانكا

فابن قيس يشبب بعاتكة هنا كما نرى ليؤذ يها، ويؤذى وقارها ووقار زوجها، فهو غزل لا يراد به إلى مديح المرأة، وإنما يراد به إلى هجائها إن صح هذا التعبير. فهو غزل لا تجد فيه المرأة ما يرضيها، وإنما. تجد ما يؤلمها، فهو إلى الهجاء أقرب منه إلىأي شىءآخر، وحاول أن يبلغ من هذا الهجاء كل ما يريد من إقذاع ولكن لامع عاتكة، وإنما مع أم البنين إذ يتغزل بها في إحدى قصائدة لمصعب على هذه الشاكلة[2]:

ألا هزئتْ بنا قُريشيـ ... ـةٌ يهتز موكبها

رأتْ بى شيبةً في الرأ ... س منى ما أُغيبها

فقالتْ أَبن قيسٍ ذا ... وغير الشيبِ يعجبها

رأتْنى قد مضىمنى ... وغَضاًت صواحبها

ومثلِك قد لهوتُ بها ... تمام الحسن أعيبها

لها بعلٌ غيور قا ... عد بالباب يحجبها

يرانى هكذا أمشى ... فيوعدها ويضربها

ظللتُ على نَمارقها ... أفديها وأخْلُبها

---

[1] الديوان ص ٢١٨.

[2] الديوان ص ٢٢٦.

فاصدقها وأكذبها آحدثها فتؤمن لى

قد كنت أطلبها فدغ هذا ولكن حاجة

يقربهامقربها إلى أم البنين متى

هذا حين اعقبها أتتنى في المنام فقلت

مال على أعذبها فلما أن فرحت بها

نهلت وبت آشربها شربت بريقهاحتى

تعجبنى وأعجبها وبت ضجيعهاجذلان

وألبسها وأسلبها واضحكها وآبكيها

أعالجها فتصرعنى فارضيها وأغضبها

فكانت ليلة في النوم نسمرها ونلعبها

فأيقظنا مناد في صلاة الصبح يرقبها

وواضح في هذه المقدمة الغزلية أن ابن قيس أرإد السخرية من أم البنين، حتى يخفض من تيهها ويطأطى من كبريائها، وإنه ليبتذلها في غزله، ويجعلها وكأنها مثل هؤلاء الجواري اللائى يبعن، واللائى تقرب منهن كل الأيدى وإنه ليبتذل معها زوجها فيرميه بالغيرة والغفلة. ثم ما يلبث أن يرسم هذه الصورة المفرطة في الابتذال، فيتصور أنها جاءته في الحلم، وأنها لم تمنع منه شيئاً. كل ذلك يريد به ابن قيس إلى الامتهان وإيذاء نفس أم البنين وزوجها الوليد وعمها عبد الملك، وما نظن إلا أن عبد الملك كان يضطغن على ابن قيس هذه المقدمة الغزلية بأكثر مما كان يضطغن عليه هجاءه له مباشرة، فتلك صورة ليس فيها هتك للحرمات، أما صورة أم البنين فصورة بشعة تؤذى النفس العربية الحرة. وهذا ما كان يريد. ابن قيس بغزله في الأمويات حين كان يعيش في ظل مصعب،وحين كانت تزين له نفسه أن مصعباً سينتصروسيتحول الأمر إليه وإلى أخيه عبد الله لا في الحجاز والعراق فحسب، بل أيضاً في الشام ومصر.

ولم تلبث آمال ابن قيس أن تحطمت فقتل مصعب وعبد الله وأصبح الأمر كله لعبد الملك، ولجأ صاحبنا إلى ابن جعفر يشفع له، فقد كان ذنبه عظيماً، وقيل إن عبد العزيز بن مروان وابنته أم البنين شفعا له مع ابن جعفر، فتحول ابن قيس إلى مديح الرجلين وأرإد أن يمدح أم

البنين فلجأ إلى الغزل والتشبيب بها، ولكن في صورة جديدة تقف عند تصوير حسنها وما يميزها من فتنة وإغراء، ويظهر أنها أوتيت من الجمال حظا بعيداً، وقد ذهب يغنيها ويملأ بسامها جميع الأرجاء من الحجاز والشام إلى العراق ومصر، ومن قوله فيها[١]:

أُم البنين سلَبتِنى حلْمى ... وقتَلْتِنى فتحملى إثمى

وتَركْتِنى أدعو الطبيب وما ... لطبيبكم بالداء من عِلْمِ

بالله يا أم البنين ألم ... تَخشَي عليكِ عواقب الظلمِ

خافى إلهكِ في ابن عمك قد ... زودتِه سقْماً على سقْمِ

وتَركْتِه يمشى وليس له ... عقْلٌ يعيش به مع الحزم

وابن قيس لا يريد حقا أن يعلن عن تولهه بأم البنين، أو أم الوليد زوج عبد الملك كما جاء في بعض الروايات[١]؟ وإنما يريد أن يعلن عن جمال المرأة، أوقل بعبارة أدق إنه يريد أن يمدحها، والمرأة إنما تمدح بجمالها وبفتنة الناس بها، وكأن ابن قيس يريد أن يبلغ من ذلك كل ما تريده أم البنين. ولعل من الطريف أن نجده يقدم إحدى قصائده لعبد الملك بتشبيبه فيها، فيقول [٢]

بين وذكرِها وعنائها ... أصحوتَ عن أم البنـ.

لم يقْلِ صفْو صفائها ... وهجرتها هجر امرىء

رقَ نورها ببهائها ... قرشيةٌ كالشمس أشْـ.

نٍ بحسنها ونقائها ... زادتْ على البيض الحسا

ب وقُنّعتْ بردائها [٣] ... لما اسبكرت للشبا

ومضتْ على غُلَوائها ... لم تلتفتْ لِداتها

.ين لمدحتى وثنائها ... اسمع أمير المؤمنـ.

أنت ابن عائشة التى ... فضلتْ أُروم نسائها

---

[1] الديوان ص ٢٥١.

[1] انظر الأغاني ٦/٢٦٠.

[2] أغاني طبع بولاق ١١/٤٩.

[3] اسبكرت: اعتدلت واستوت.

ولدتْ أغر مباركاً كالبدر وسطَ سمائها

وعائشة: أم عبد الملك وهي بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية [٤] فهر يجمع في القصيدة بين مديح أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك وعاتشة أم عبد الملك. ولعل في هذا ما يرينا كيف أن الخلفاء في هذا العصر لم يكونوا يكرهون أن يشبب الشعراء بنسائهم، لأن الشعراء لم يكونوا يشببون في الواقع، وإنما كانوا يمدحون، وهل يمكن أن يقبل عبد الملك غزلاً أو تشبيباً خالصاً من ابن قيس في زوج ابنه إلا أن يفهمه على أنه مديح، وأن الشاعر قسم القصيدة بين زوج ابنه وأمه. وكان ابن قيس متصلاً أيضاً بعبد العزيز بن مروان بل كان شاعره إن أمكن أن نجعل له شاعراً، فلا يعقل أن يشبب بابنته وهو يريد التشبيب من حيث هو، وإنما كان يريد أن يمدحها، وقد عرف عبد العزيز بأنه كان يطلب من الشعراء أن يشيدوا باسم أمه ليلى في مدائحهم له، وذكرها ابن قيس في قصائده التي قدمها إليه مراراً [١]

ولعله شبب بكثيرة اعترافاً منه بفضلها وفضل زوجها، وقد أسلفنا أنها تزوجت على بن عبد الله بن العباس وأنه أجار على عبد الملك بعض الخارجين عليه مع مصعب. فإذا كان ابن قيس قد عاد بكثيرة فلعله عاذ: فيالواقع بزوجها، فاختفى عنده ولم يستطع أن يستصدر له عفواً من لدن عبد الملك، وأكرمته كثيرة في أثناء ذلك، فذهب يتغزل بها، وإن كنا نلاحظ أنه ليس في شعره ما يشير إلى أنه اختفى عندها أو لجأ إليها، بل كل ما فيه أنها مترفة ونراه يلقبهما بالأميرة [٢] ويطنب في وصف عطرها وملابسها [٣]، ويقول إنها خززجية [٤] :قد شبب بها: في القصيدة الأولىالتيلقى بها، عبد الملك سنة ٧٣ للهجرة إذ يقول [٥]

عاد له من كثيرةَ الطَّرب فَعينُه بالدموع تَنْسكب

كوفية نازح محلّتُها لا أَمم دارها ولا صقَب [٦]

والله ما إن صبت إلي ولا إن كان بيني وبينها سبب

---

[4] انظر الطبري ١١٧٣/٢.

[1] الديوان ص ٨٣، ٢٥٥، ٢٦٦.

[2] الديوان ص ١٨٩ وما بعدها.

[3] الديوان ص ١١٥ وانظر ص ٩٤.

[4] أغاني ٩١/٥.

[5] الديوان ص ٦٧ وأغاني ٧٩/٥.

[6] أمم: قريب. صقب : ملاصق.

إلا الذي أورثتْ كثيرةُ في الـ . قلب وللحب سورة عجب

وهو هنا يؤكد أنه ليس بينه وبينها صلة إلا الذي أورثته قلبه من هذا الحب الذي لا تخمد نيرانه، وهوحب من طرف واحد. ويحس كل من يقرأ أغانيه فيها أنه بث في غزله بها حنينه إلى العراق وإلى ما فاته هناك من نجم الحياة، وكأنه يتخذها رمز دنياه ونعيمها الذي طرد منه، ولذلك كان شعره فيها يطبع بطابع من الحنين والأسف على دنيا زائلة.

وهذا الجانب في ابن قيس يلفتنا إلى مقدرة رمزية كامنة فيه، فهو يتخذ من كثيرة رمزاً لأيامه في العراق ولذلك يكثر من بكائه ودموعه في غزله بها. وفي ديوانه ما يدل على أن هذا الاتجاه انطوى في نفسه مبكراً، فنحن نجده يرمز لرقية باسم نعم [١]تارة واسم أم عمرو [٢]تارة أخرى، وقد رمز لأم البنين باسم سليمى [٣] ولا ندرى لماذا رمز لها ولا لماذا رمز لرقية إلا أن يكون هذا جانباً في نفسه، كان كامناً، وكان يظهر بن الحين والحين.

ولعل من الطريف في هذا الصدد أنه حين رضى عنه عبد الملك وقابل إساءته بالصفح وولى وجهه نحو العراق حيث بشر بن مروان، حين أصابته كل هذه السعادة وجدناه يمدح بشراً فيقدم لمدحه بغزل لمن تسمى سعدى، وهو يتخذ من اسمها رمزاً لكل ما في نفسه، ولكل ما أصاب من تحقيق آماله، يقول[٤]:

قد أتانا من آل سعدى رسولُ حبذا ما يقول لى وأقولُ

من فتاة كأنها قَرن شمسٍ ضاق عنها دمالج [٥] وحجولُ

حبذا ليلتى بِمزةِ كَلْبٍ غال عنى بها الكَوانين غولُ

ووزة كلب: قرية كبيرة في وسط بساتين دمشق، وواضح أنه يعلن بذلك سروره، فقد عفا عنه عبد الملك، وطابت بذلك أيامه ولياليه، فالدنيا من حوله كلها بشر وسلام، بل فرح ومسرة، وهو يبث كل ما في نفسه من ذلك في اسم سعدى صاحبته التي أرسلت إليه رسولها، فقد دنت منه السعادة، بل مست قلبه وفؤاده. وهذه هي أول قطعة غنى فيها باسم سعدى،

---

[1] الديوان ص ١٠٨.

[2] لديوان ص ١٠٨، ٢٣٦.

[3] لديوان ص ٢٤٥ وأغانى (طبع بولاق) ٥٠/١١.

[4] الديوان ص ٢٤٥، أغاني (طبع دار الكتب). ٩٩/٥.

[5] الدمالج: جمع دملج وهو حلية تلبس في العضد. والحجول: جمع حجل وهو الخخال.

وخليق به أن يغنى بهذا الاسم وقد ابتسمت له الدنيا من حوله. وعاد إلى ذكره مرة ثانية، ولكن بعد أن توفى بشر ولزم عبد العزيز بن مروان وأصبح شاعره الذي يتكلم باسمه. وحدث أن فكر

عبد الملك في تحويل عهد أبيه بالخلافة من بعده إلى أخيه عبد العزيز، وجعلها لابنه الوليد، فغضب عبد العزيز وغضب شاعره ابن قيس، وقال في ذلك شعراً أغضب عبد الملك مما جعله يتهدده. حينئذ نظم ابن قيس قصيدة رمزية يذم فيها الذين يغتابونه عند الناس ويأكلون لحمه، وبدأها بذكر سعدى ولكنه أضاف إليها ما يعبر تعبيراً رمزياً بديعة عن كل ما في نفسه إذ يقول[١]:

مرحباً بالذى يقول الغُراب ... بشَّر الظَّبي والغُراب بسعدى

قد أَنَى أن يكون منه اقتراب ... قال لى إن خَير سعدى قريب

وعليها الحصون والأبواب ... قلتُ أَنّى تكون سعدى قريباً

.صر الذي لا يناله الأتراب [٢] ... حبذا الرئْم ذو الوِشاحين والقَ.

موصداً مصفَقاً عليه الحِجاب ... إن في القصر لو دخلت غزالاً

شُرطةً ها هنا، عليك غِضاب ... أرسلتْ أن فَدتْك نفسي فاحذر

ء وهم حين يقْدرون ذِئاب ... أقسموا إن رأوك لا تطعم الما

شُرطَةٌ أو يحين منها انقلاب ... قُلت قد يغفل الرقيب وتُغْفِى

أو عسى اللهُ أن يؤَتّى أمراً ... ليس فيه على المحب ارتِقاب

ارجعِى فاقرئى السلام عليها ... ثم ردى جوابنا يا رباب

حديثها بما لقيتُ وقولى ... حقَّ للعاشق الكريم ثواب

رجلٌ أنتِ همه حين يمسِى ... خامرته من أجلك الأوصاب

لا أشم الريحان إلا بعينى ... كرماً إنما تَشُم الكلاب

---

[1] الديوان ص ١٦٥ وأغانى طبع بولاق ٥٧/١٦.

[2] الرئم: الظبى.

ثم استطرد ابن قيس يحتقر المغتاب والمنافق ويذمهما ذما بليغاً، وهو في ذلك كله يريد أن ينفس عن نفسه. وأظن أن المقدمة الغزلية اتضحت لنا الآن، فقد حملها ابن قيس كل ما يريد من خوف عبد الملك على نفسه، ومن بيان أن أبوابه أوصدت دونه ثانية، فقد عاد ابن قيس يرسف في أغلال الوجل التي خلعها من يديه ابن جعفر وأم البنين. وهو هذه المرة مضطرب اضطراباً شديداً فهولا يدرى من ينقذه من عبد الملك، وربما كان ابن جعفر قد مات، وهذا عبد العزيز لا يستطيع الآن أن يدفع عنه. إن الحياة قد أظلمت في وجهه، وإن الفأل ليبشر بسعدى وأنها سترضى عنه، ولكن الشؤم يتبعه ويلازمه. ولا نشك في أن ابن قيس وفق في هذه المقدمة التي تصف حركات نفسه الباطنة توفيقاً بعيداً، وقد ذهب يرمز في البيت الأخير إلى عفته، وأنه مهما تغزل برقية أو كثيرة أو أم البنين إنما يعبر عما رأت عيناه، وعما يتولاه عن طريقهما من دهشة وحيرة. أما بعد ذلك فنفسه طاهرة وروحة طاهرة وجميع أفكاره طاهرة، وكأنه يريد أن يعبر عن طهر عام في أخلاقه، فهو لا تدنسه لعبد الملك ولا لغيره أمنية سيئة ولا نية شريرة.

وإن هذه المقدمة الرمزية لتدل دلالة واضحة على تقدم الحياة وتقدم الذوق الفنى عند العرب، فقد كان الشاعر القديم لا يرمز ولا ينطوى على نفسه، فالحياة صريحة وليس فيها تعقيد، أما في هذا العصر الأموي فقد تغيرت الحياة تحت تأثير الحضارات التي عرفها العرب، وأصبحت صلة الفرد بالحاكم معقدة، لم تعد كالصلة القديمة بين شيخ القبيلة وأفرادها، بل أصبحت على هيئة جديدة، هيئة معقدة، فيها شرطة وفيها عقاب قاس حين يريد الحاكم العقاب.

والحق أن ديوان ابن قيس يعبر عن ذوق جديد لا في هذه الناحية فحسب، بل كما قدمنا في ناحية التشبيب والغزل أيضاً، فالأفكار التي يؤلف ابن قيس منها غزلياته أفكار رجل متحضر، فيها خفة، وفيها دقة متناهية في الحس، ودقة بالغة في الشعور.

وأظن الفرق واضحاً جداً بين غزليات ابن قيس السابقة ومطالع القصائد في الجاهلية، تلك المطالع التي كانوا يقفون فيها عند الأطلال والديار يتحدثون عن النوى والأثافى والأوتاد والآرام والظباء وبقر الوحش وهذه الحيوانات التي تجوس خلال الديار، حتى إذا فرغوا من ذلك انتقلوا إلى وصف إبلهم ورحلاتهم في الصحراء، وقلما نجد في أثناء ذلك وصفاً معنوياً للمرأة. وقد يذكر ابن قيس الديار ولكن في بيت أو بيتين أو أبيات قليلة، ثم يتركها إلى وصف

خواطره نحو المرأة والتعبير عما لحبيبته في نفسه، في تذلل وتوسل وضراعة، وهو في أكثر حالاته يعمد إلى ذلك دون مقدمة الأطلال والديار، فهي لا تأتى إلا قليلاً جداً، وحينما يكون قد رحل حقا إلى ممدوحه من الحجاز إلى مصر مثلاً، ومع ذلك فإنه يتركها توأ ليسرد لنا أفكاره وخواطره، ويصف لنا عشقه وحبه.

وهذا هو معنى أن الحياة تغيرت في الحجاز، فقد أخذ الشعراء يعمدون إلى أساليب جديدة في تعبيرهم ولم يعودوا يتمسكون بالأساليب القديمة، فالحياة تغيرت تحت أعينهم، ولم تعد الأساليب القديمة تصلح لهم كل الصلاحية إلا ما يمكن الاحتفاظ به من عناصرها كفكرة رحيل الأحبة وبكاء ديارهم ومنازلهمالتينزلوها كرحيل رقية وأهلها عن مكة. فالفكرة تستمر ويستمر معها بعض الأساليب القديمة التي كانت تعبر عنها، ولكن بعد أن تعدل، وبعد ألا يكون وصف الأطلال والديار غاية للشاعر، وإنما تكون غايته التعبر عن دخائل نفسه.

وقد يكون في هذا ضرب من شعور الفرد بنفسه أكثر مما كان الشأن في القديم، فقد أصبح العربي، والعربى القرشى بصفة خاصة، يرى نفسه يملك من بقاع الأرض ما يريد، ويستخدم من سادة الشعوب المجاورة من يريد، ويكتظ بيته بالرقيق وبضروب من الحضارة وحظوظ مختلفة من المتعة بالحياة، فطبيعي أن يسود في هذا العصر التعبير عن النفس وخاصة في الحجاز وفى مكة وبين القرشين. ولعل هذا أحد الأسباب المهمة في شيوع شعر الحب، فالشاعر يغنى نفسه، ويعبر عنها، بأسلوب فنى جديد.

وهذا التغيير الطارئ في أساليب الفن والشعر في الحجاز عند ابن قيس وأمثاله لا نلاحظه فقط في هجر بعض الأساليب القديمة، وهجر بعض المعانى التي كانت تعالجها، وإنما نلاحظه أيضاً في اللغة نفسها، فلغة ابن قيس ليست هي اللغة القديمة الزاخرة بالغريب التي نعرفها عند لبيد مثلاً، بل ليست هي اللغة التي نعرفها عد شعراء العراق المعاصرين له من أمثال جرير والفرزدق، فإن تيار الشعر كان يستمد هناك من الصورة القديمة بشكل أعنف وأقوى مما كان عليه الشأن في الحجاز. وفرق بعيد جداً بين ديوان الفرزدق مثلاً وديوان ابن قيس، فعند الأول نجد الألفاظ الغريبة تنصب علينا انصباباً كما تنصب علينا العبارات الملتوية المعقدة، بينما عند الثاني لا نجد نتوءاً في التعبير ولا لفظاً مهجوراً، فالأساليب الفنية أصبحت سهلة مستساغة تحت تأثير ما أصاب النفوس في الحجاز من تغير أساليب الحياة وتعمق ألوان الحضارات التي غرقوا فيها إلى آذانهم.

وليس من ريب في أن للغناء أثراً بعيداً في هذا التطور الذي أصاب لغة الشعر في الحجاز، فإن المغنين كانوا من الأجانب غالباً، وكان ذوتهم متحضراً يأبى الأسلوب المعقد المكتظ بالغريب، فجاراهم الشعراء في المقطوعات التي ألفوها. ولا بد أن الشعراء أنفسهم كانوا يسعون إلى أن يكون شعرهم شعبيا يشيع في الناس، ويدور على ألسنتهم، ولذلك التمسوا له الأساليب الخفيفة السهلة، ولم يقفوا بهذه الأساليب عند الغزل بل أشاعوها في كل ما نظموا من موضوعات. وهل من ريب في أن مدائح ابن قيس لمصعب وعبد الملك وعبد العزيز وابن جعفر هي من ذوق جديد في اللغة غير ذوق الفرزدق ومن لف لفه ممن كانوا يأتمون قليلاً أو كثيراً بالشعراء القدماء. واستمع إلى ابن قيس يقول في عبد الملك[1]:

ما نَقموا من بنى أمية إلا ... أنهم يحلمون إن غَضِبوا

وأنهم معدن الملوك فلا ... تصلُح إلا عليهم العرب

إن الأغر الذي أبوه أبو الـ ... ـعاصي عليه الوقار والحجب

خليفةُ الله فوق منْبره ... جقَّت بذاك الأقلام والكتب

يعتدل التاج فوق مفرِقه ... على جبينٍ كأنّه الذهب

فهذا مديح بلغة سهلة خفيفة وبذوق حضرى جديد، وليس من ريب في أن الرواة أخطأوا حين زعموا- كما مر بنا- أن عبد الملك لم يعجبه هذا الشعر وأنه قال لابن قيس: تمتدحنى بالتاج كأنى من العجم، ونسوا أن الحياة العربية تغيرت، وأنها استعجمت في بعض جوانبها، فلا بأس ان يمدح الشاعر الخليفة بالتاج.

وهذا التغيير الذي نلاحظه عند ابن قيس في لغة المديح وأساليبه نلاحظه أيضاً في رثائه، فهو ليس رثاء ضخماً مطولاًعلى نحو ما نعرف في الرثاء القديم، وإنما هو مقطوعات قصيرة تسيل فيها النفس ويسيل فيها الحزن سيلانا. واستمع إليه يرق مصعباً، فيقول: [9]

إن الرزيةَ يوم مسـ ... ـكِن والمصِيبة والفَجيعه

بِابنِ الحواري الذي ... لم يعده يوم الوقيعه

غَدرتْ بهِ مضر العرا ... قِ وأمكنتْ منه ربيعه

---

[1] الديوان ص ٧٠ وأغاني ٥/٧٩- ٨٤.

[9] الديوان ص ٢٨٧ وأغاني (طبع بولاق) ١٧/١٦٥.

فأصبتِ وِتْرك ياربيـ. ع وكنتِ سامعةً مطيعه

يا لهفَ لو كانت له بالديرِ يوم الديرِ شِيعه

وواضح أن هذا الرثاء مكتوب بلغة دانية قريبة من مألوف الناس، وكأنه نظم ليغنى، كشعر الحب الذي ينظمه ابن قيس. وغنيت هذه القطعة فعلاً فإنها ألفت في الواقع لا لتنشد وإنما ليغنى فيها المغنون، وليصنعوا فيها الألحان والأنغام. فشعر ابن قيس كله شعر يراد به إلى الغناء لا إلى الإنشاد، ومن هنا تأقى جملة الخلافات التي بينه وبين أصحاب الشعر التقليدي، فهو يؤلف أغاني في الحب في المديح وفي الرثاء، واشتهرت له هذه الأغنية التي قالها في رثاء أهله بعد موقعة الحرة وهي تجرى على هذا النمط[1]:

ورأى الغَوانى شيب لِمتِيه ذهب الصبا وتركت غِيتِيه

غَنِيتْ كرائمها يطُفْن بِيه وهجرنِنى وهجرتهن وقد

وضح ولم أُفْجع بإخْوتِيه إذ لِمتى سوداء ليس بها

والذائدين وراء عورتِية الحاملين لواء قومهم

أُوجعنَنى وقرعن مروتِيه إن الحوادثَ بالمدينة قد

يتركن ريشاً في مناكبِيه وجببنَنَى جب السنَام فلم

شُد الحزام بسرج بغْلتيه وأتى كتاب من يزيدوقد

حلّ الهلاك على أقاربيه ينْعِى بنى عبد وإخوتَهم

ونَعي أسامةَ لى وإخوته فظللت مستَكا مسامعيه

كيف الرقاد وكلما هجعتْ عينى ألم خيالُ إخوتيه

تبكى لهم أسماء معولةً وتقول لَيلَى وارزِيتيه

تاللهِ أَبرح في مقدمة أُهدى الجيوشَ علي شِكّتيه

حتى أفجعهم بإخوتهم وأسوقَ نِسوتهم بنسوتيه

وليس من ريب في أن هذه قطعة رائعة وأنها تدل على ذوق جديد في الرثاء، فقد استطاع الشاعر أن يذيب نفسه كل ما فيها من حسرة وتلهف على أقاربه في هذه الأبيات الطريفة التي

---

[1] الديوان ص١٨٦.

هى أقرب إلى أن تكون أنشودة حزينة أو نواحاً وندباً منها إلىأي شىءآخر، فهي قطعة قيلت لينوح بها بنو عبد، أو بنو معيص أو بنو عامر ابن لؤى، قتلاهم، وليرسلوا فيها كل ما يريدون من تنهدات وزفرات.

وموسيقى القطعة متكاملة لكي تتيح لها كل ما يمكن من نواح بها وندب، فقد اختار ابن قيس وزن الكامل الذي تكثر حركاته لكي يبطى النائح بالكلمات وحروفها كما يريد، وختمها بالهاء الساكنة ليقف الصوت عندها ويأخذ النائح الفرصة لإخراج آهاته، فيعلو بالصوت ثم ينخفض به عند القافية، وقد انسابت حركة الىاء، وختمت بالهاء، ليتم له كل ما يريد من انطلاق بالصوت وانخفاض به شأن النائحين النادبين. ويقول الرواة إنه أنشد هذه القطعة عبد الملك، فقال ا،[1]: " أحسنت لولا ما خنثت به شعرك، أو لولا أنك خنثت في قوافيه، فقال ابن قيس والله ما عدوت قول الله عزوجل: (ما أَغْنَى عنِّي مالِيه هلَك عنِّي سلْطَانِيه). ونحم نشك أن يصدر. ذلك من عبد الملك، وكان قارئا للقرآن الكريم محدثا قبل اعتلائه عرشى الخلافة، وأكبر الظن أن الرواة نسبوا ذلك إليه. وعلى كل فالقطعة تغذ شذوذاً في الرثاء على ذوق الرواة، وقد يكون عبد الملك أحس هذا الإحساس لأنه لم يتعود أن يستمع إلى هذه الموسيقى وهذه القافية في الرثاء.

وليس في القطعة تخنث كما زعم الرواة، وإنما فيها هذا التكامل الموسيقى لتؤدى غرضها، وأظنها تدل أبلغ الدلالة على هذا الذوق الجديد في صنع الشعر، وهل من الممكن أن يصل شاعر إلى هذا التعبير الشفاف عن حزنه دون أن يدعم ذوقه بأسباب حضارية؟ إن الحياة المتحضرة الجديدة التي أبدلت ذوق الناس في الحجاز، جعلتهم أرقي شعوراً وأدق إحساساً هي التي هيأت للتبديل والتغيير في ذوق الفنانين وبالتالى في أساليبهم.

وكان للغناء أثر عميق في ذلك كله، فالشعراء أخذوا يتأثرون بألحان المغنين وأنغامهم، وأخذوا يحاولون أن يكملوا لأشعارهم كل ما يمكن من قيم صوتية. ومن المعروف أن المغنى يهمس أو يجهر في بعض الحروف وبعض الحركات، أو بعبارة أخرى يطيل أو يحذف في بعض الحروف وبعض الحركات. وكان الشعراء يلاحظون ذلك، ومن غير شك كان ابن قيس وأمثاله من أصحابالأغاني يحاولون أن يقيسوا شعرهم على أسس النظرية الجديدة للغناء التي

---

[1] الشعر والشعراء ص ١١٣.

سبق أن وصفناها وألحانها من ثقيل أول أو ثان وخفيف رمل أو هزج ونحو ذلك، وكان الشعراء على اتصال دائم بالمغنين والمغنيات. وقدمنا أن ابن قيس كان صديقاً لفند وسائب خاثر وبديح سلامة. ومعنى ذلك أنه كان على اتصال دائم بالمغنين والمغنيات وما يطلبونه من الشعر.

وليست المسألة مسألة إثبات نظرى، فهذا ديوان ابن قيس أمامنا نستطيع إذا رجعنا إلى ما فيه من أوزان ثم قابلنا بين أوزانه وأوزان أصحاب الشعر التقليدي أن نلاحظ الأوزان الخفيفة في شعره، فهو يكثر من المديد والكامل والوافر والمتقارب والرمل والهزج، وإن استعمل الأوزان المعقدة مثل الطويل أحسسنا كأن الوزن يتغير تحت تأثير ذوقه واختيار، لألفاظه. ونراه بجانب ذلك يكثر من مجزوءات الأوزان كمجزوء الكامل ومجزوء الوافر. كل ذلك إنما تم عنده وعند نظرائه من أصحابالأغاني تحت تأثير نظرية الغناء الجديدة وما يطلبه المغنون. ويستطيع القارئ أن يرجع إلى ما أنشدناه من شعره ليرى التجزئة في الأوزان، بل ليرجع إلى ما لم يجزئ فيه ليرى آية ما نقول من أن الشعر عند ابن قيس تأثر بالغناء الجديد، فكثير من القطع يكاد ينحل إلى أصوات خالصة.

والحق أن شعر ابن قيس قيل ليغنى، ولم يقَلْ لينشد، ومن هنا يأتي الخلاف الشديد في موسيقاه وموسيقى الشعر التقليدي، فالفرزدق وجرير ونظراؤهما لم يكونوا يفكرون في الغناء، ولذلك كانوا يصنعون مطولات، أما ابن قيس وأضرابه، فكانوا يفكرون في الغناء قبل كل شيء، ولذلك كانوا يصنعون مقطوعات، أو كما يسميها أبو الفرج نفسه أغاني، فهم يصنعون قطعا لتغنى، وهم يرتبطون بحياة الغناء الجديدة وذوق المغنين وما يريدون من ألحان وأنغام. وهذا هو معنى أن شعر ابن قيس أغان بينما شعر جرير والفرزدق وأمثالهما شعر تقليدي. ولعل هذا هو السر في أننا لا نجد عند ابن قيس ولا عند ابن أبى ربيعة عناية بالصور الشعرية، فالأخيلة قليلة والاحتفال لعمل الصور في الشعر قليل، وقد تأتى بعض الصور في شعرهم ولكنها قليلة ونادرة، فهم مشغولون عنها بالاهتمام بالموسيقى، فهي كل همهم كل شغلهم، وكل عنايتهم مقصورة عليها قصراً.

على كل حال الصور نادرة عند ابن قيس، ولكن الموسيقى والقيم الصوتية متوفرة، وهو يرتفع في هذا الجانب ويحلق فيه إلى الغاية التي يمكن أن تنشد من مثله، فقد تحفق للشعر عنده كل مايمكن من صفاء في موسيقاه ونقاء في ألفاظه، وكأنما وضعت اللغة بين يديه ليختار منها

ما يريد من كلمات داخلية في الأبيات وقواف خارجية، يختم بها هذه الكلمات، ولعل ذلك ما جعل حماداً الراوية يقول: " إن أردت أن تقول الشعر فارو شعر ابن قيس الرقيات فإنه أرق الناس حواشى شعر[١] ". فهو شعر يموج بالخفة والرقة حتى في الموضوعات الكئيبة المحزنة، وهو شعر يكتمل له الصوت المفرح حين يكون صاحبه فرحاً مسروراً، ويكتمل له الصوت المحزن حين يكون مكتئباً محزوناً.

(٤) الديوان

تنطبق الصورة العامة التي صورنا بها أغاني ابن قيس على ديوانه انطباقاً تاماً، فهو كله يخضع لفكرة صنع الشعر من أجل الغناء لا من أجل الإنشاد. وأول ما يلاحظ من ذلك أنه مقطوعات، وقد توجد فيه القصيدة من أجل المديح ولكنها لا تطول، ولا يحتفل صاحبها بمقدمات المديح الطويلة. هي في الواقع أنشودة تكتب وأغنية تنظم.

وهذه الأغاني التي يتضمنها ديوان ابن قيس، تطبعها كلها طوابع أسلوب واحد، فالمرونة والقرب من لغة الناس وقلوبهم والشفافية الشديدة التي تشف عن الحركات النفسية للشاعر كل ذلك يتجلى في صفحات الديوان، لا فارق بين صفحة وصفحة، ولا بين مقطوعة وقصيدة.

ولعل هذا أهم خلاف يفرق بين دواوين أصحاب الأغاني ودواوين أصحاب الشعر التقليدي، فالأولون فرديون أكثر من الثانين، يشعرون بذاتهم وشخصياتهم أكثر مما يشعر زملاؤهم، وهذا هو الذي يجعل شعرهم قريبة من نفوسنا، فهم يخاطبوننا مباشرة دون أساليب ملتوية تحشد من القديم، فهم الشاعر ليس حشد الأساليب القديمة، وإنما همه حشد نفسه وحشد وقائع الحياة من حوله، وهو لذلك لا يتخذ الأسلوب القديم، فهو لا ينهض. بما يعبر عنه، وإنما يتخذ أسلوبه في اللغة من الحياة اليومية، ومن الوقائع النفسية لمعاصريه، فهو يؤمن بنفسه وبعصره وبمجتمعه وبالحياة التي تجرى تحت عينه. ومن أجل ذلك يتصل بهذا كله ويحاول التعبير عنه، فيضطر اضطراراً إلى استخدام أسلوب جديد، ليس هو الأسلوب القديم. قد يستمد منه كما هو الشأن عند ابن قيس ولكنه لايطغى عليه، فمثلا قد يذكر الأطلال والديار، ولكن في بيت أو أبيات قليلة جداً. وليس هذا كل ما يدخله من تعديل فهو يضيف إليه خواطر حبه

---

[1] شرح شواهد المغنى للسيوطي طبعة الخانجى ص ٤٧ وتاريخ دمشق المجلد ٢٥ الورقة ٢٠٨.

وتولهه بمحبوبته، ثم هو لا يذهب بعيداً في الغريب على عادة القدماء، فالقديم قد يأقى في شعره، ولكن بعد أن يحوّر ويعدل ويطْبع بطابع جديد.

وأكثر منظومات ابن قيس والجمهور من شعره لا يكاد يستمد من القديم.فهو مقطوعات تقال في الحب، تحكى عواطفه وعواطف الناس من حوله في أبيات قليلة قلما تجاوزت عدد أصابع الىدين. وكل من يقرأ هذه الأبيات يحس الفرق الواضح جداً ببن أسلوبها والأسلوب القديم. ولم لا؟ لقد تغيرت الحياة العربية تحت تأثير حضارات جديدة جلبتها الفتوح العربية إلى الحجاز، وأصبح من الضروري أن يحطم الفنان الأسلوب القديم، أو على الأقل يحطم إطاره في بعض جوانبه، ليعبر عن الحياة الجديدة.

ومن غير شك نهض ابن قيس نهوضاً حسناً بصنع هذا الأسلوب الذي يتراءى في المقطوعات السابقة التي أنشدناها من شعره، وكانت لديه مقدرة رائعة في ذلك، فم يبذل فقط في أسلوب الغزل والتشبيب، بل بدل أيضاً في أسلوب المديح، وظهر التبديل أوضح في أسلوب الرثاء ط إذ جعله على نحو ما قدمنا غناء خالصا" فغنى فيه المغنيات والمغنون.

وليس هذا كل ما نجده عند ابن قيس في ديوانه من جديد، فنحن نجد جديداً آخر، ولكن هذه المرة لا نلاحظه في صورة الشعر، وإنما نلاحظه في جوهره، فمن أهم ما يميز شعره في ديوانه رقة حس بالغة، وهي رقة تعبر عن كل ما أصاب القوم في شعورهم وأذواقهم تحت تأثير الحضارة الجديدة، رقة نشاهدها عند الرجال المهذب في الأمة حين تتحضر فنرى جماعة يدق إحساسم دقة بالغة. ولعل من أهم ما يصور هذا الجانب في ديوان ابن قيس أننا لا نجد فيه هجاء إلا قطعة واحدة قيلت في عبد العزيز بن عبد الله بن خالد الذي فشل في حرب الخوارج وفر مهزوماً أمامهم وترك لهم زوجته، وهي قطعة لا تعد هجاء بالمعنى الكامل، بل هي أقرب إلى أن تكون عتاباً له، فإنه لم يحارب مع جيشه بل تركه ولا أمير عليه ونسى عِرسه فسباها الخوارج، فقال ابن قيس[١]

عبد العزيز فضحتَ جيشك كلَّهم ... وتركتَهم صرعى بكل سبيلِ

من بين ذى عطَشٍ يجود بنفسه ... وملَحبٍ بين الرجال قتيلِ [٢]

---

[1] الديوان ص ٢٩٣ وانظر الطبري٨٢٨/٢ وابن الأثير ٢٧٩/٤.

[2] ملحب: ممزق بالسيف.

وتركتَ جيشك لا أمير عليهم فارجع بعارٍ في الحياة طويل

ونسيتَ عِرسك إذ تُقاد سبِيةً تُبكى العيون برنَّة وعوِيلِ

فابن قيس لا يهجو حقا، وإنما يعتب. وفرق بعيد بين هذا العتاب وبين أهاجى جرير والفرزدق المعروفة التي تقوم على القدح والإقذاع في الهجاء إقذاعا يؤلم الذوق المتحضر في أكثر الأحيان. ولم تصح نسبة قطع في الهجاء لابن قيس سوى هذه القطعة. وهذا لا شك غريب على ذوق من يقرءون الدواوين العربية إذ يجدون دائماً باباً فيها للهجاء، أما عند ابن قيس فهذا الباب أوصد أمام القارئ، بل أوصد أمام نفسية الشاعر بسبب هذه الرقة في الشعور التي وصفناها، وهي رقة تمنع الرجل المهذب من أن يخوض في أعراض الناس أو يذكرهم أو يصفهم بما يسؤهم.

ديوان ابن قيس إذن ديوان شخص متحضر أثرت الحياة الحضارية الجديدة التي عاشها في ذوقه وفى حسه وفى فنه. ومن هنا كان قارئه يشعر بأنه صاحب أسلوب جديد، وأنه يعبر عن حياة جديدة ضهر فيها صهراً وذاب فيها ذوباناً. وقليل هم الذين يستجيبون للحياة الجديدة على نحو ما يستجيب ابن قيس للحياة في عصره. وكأنما هو قيثارة وهتها الطبيعة للحجاز حين تحضر، لنسمع فيها كل التغيرات التي أصابته تحت تأثير الحضارة من جهة، وتحت تأثير الغناء والتعبير عن عواطف الناس من جهة أخرى.

وشعر ابن قيس من هذه الناحية ينسجم انسجاماً تاماً مع عصره، ولعل هذا هو أهم سبب يتيح له هذه الرشاقة التي تميز أسلوبه والتي تجعلنا نسحر به كلما قرأنا فيه، فهو أسلوب تام من جهة الألفاظ وانتخابها ومن جهة العواطف والتعبير عنها تعبيراً حاراً حينما تطلب الحرارة، وهادئاً حينما يطلب الهدؤ. كل ذلك يعلوه تموج رشيق، كما تعلوه هذه الجدة في الحس وهذه الرهافة في الشعور التي تميز ابن قيس في كل ماينظم كل مايقول.

ولقد مرت به أوقات كان فيها متحزباً لمصعب وأخيه عبد الله ضد عبد الملك وأسرته، ومع ذلك فقلما نجد عنده الكلمة النابية، بل إننا نجده دائما محزوناً أسفاً على ما أصاب قريشآ من تفرق كلمة أبنائها، وإنه ليذيع ذلك في قصائده التي يمدح بها مصعباً، يقول في بعض مدحه [1]:

---

[1] الديوان ص ٢٢٨.

فقُطِّع أرحام وفُضتْ، جماعةٌ وعادتْ روايا الحِلْم بعد ركائكا [٢]

وفى جميع جوانب مدحه لمصعب نجده يأسى على هذا النحو لما صار. إليه أمر قريش من تقاطع وتنابذ وانقسام كلمة، واستمع إليه يقول في بعض مدائحه له [٣]

حبذَا العيشُ حين قومي جميع لم تُفَرقْ أمورها الأهواء

قبل أن تطمع القبائلُ في ملْ . كِ قُريشٍ وتَشْمتَ الأعداء

أيها المشْتَهِى فَنَاء قريش بِيدِ الله عمرها والفَنَاء

إن تُودع من البلاد قريشٌ لا يكن بعدهم لحي بقاء

لو نُعقّى ونترك الناس كانوا غنم الذئب غاب عنها الرعاء[١]

فابن قيس يؤذيه اختلاف قريش إيذاء الشخص المهذب رقيق الحس. وهذا جانب يتردد في مدائح مصعب مما يدل! على أنه يصدر عن شعور صادق. وقد يظن أن هذا يدل على بعد نظره وأنه يوطى لنفسه حين يتحول الأمر إلى الأمويين إن تحول، ولكن هذا في الواقع تعليل سطحى لا يتفق ونفسية ابن قيس، إنما التعليل الصحيح هو رقة حسه حين رأى قريشاً تنقسم هذه الانقسامات، فيقتل الحسين، ويقتل عثمان وعلى والزبير وطلحة من قبل، ويقتتل عبد الملك ومصعب أخيراً، وتذهب أثناء ذلك في ذمة الله ضحايا الحرة، لقد كان ذلك يؤذيه في ضميره كما يؤذى القرشى في عصره رقيق الشعور. وبلغ من رقة شعوره أن أشاد بعثمان في أثناء مدحه لمصعب بعد الأبيات السابقة فقال[٢]:

الذى أُشرِبتْ قريشٌ له الحب عليه مما يحب رداء

لعل هذه الرقة هي التي جعلته يفى لمصعب بعد موته على نحو ما أسلفنا، فقا كان من رهافة ا لشعور ودقة الحس بحيث لا يستطيع أن ينكر ماضيه ولا أن يكون كنوداً لمن أحسنوا إليه.

---

[2] روايا الحلم: الحلماء. ركائك: جمع ركيك وهو الضعيف.

[3] الديوان ص ١٧٢.

[1] الرعاة. ونعفى: نذهب.

[2] الديوان ص ١٧٩.

الوفاء إذن عند ابن قيس خيط من الخيوط التي تتصل برهافة الشعور ورقة الحس ودقته عند الرجل المتحضر المهذب. وهناك خيط ثان يتضح في شعره لمصعب وعبد العزيز بن مروان، فكل من يقرأ الديوان يلاحظ أن ابن قيس لزم مصعباً دون أخيه عبد الله الخليفة، كما لزم عبد العزيز أيضاً دون أخيه عبد الملك. وكان لذلك أثره في شعره، فعبد الله بن الزبير لا يكاد يظهر إلا في قصيدتين يتضح بمجرد قرائتمها زيف القول بأنهما في مدحه، فإحداهما في مدح. مصعب والثانية_كما مر بنا – في مدح ابن جعفر. أما عبد الملك فقد مدحه في الديوان مراراً لأنه عفا عنه وأكرمه [٣]

والخيط الذى نشير إ اجه هو خيط المبالغة في الشعور فإن عطايا. صعب وعبد العزيز تأسرة، فنرى اندفاعاً شديداً في مدحهما، حتى ليخئل إلى الإنسان أنه كان يعطى مصعبا صفات الخليفة، فهو الخليفة الحقيقى في حسه، يقول في بعض مدحه [١]

على بيعةِ الإسلام بايعن مصعباً　　كَراديس من خَيلٍ وجمعاً مباركاً

وكأنه كان يؤمن بأن مصعباً خليفة أخيه عبد الله وأن بيعته بالخلافة تتضمن بيعة أخيه، وذهب يبالغ في مدحه وكأنه يعتبر نفسه داعية له. وهذا الجانب نجده في مدائحه لعبد العزيز وكان ولي عهد فعلاً لأخيه عبد الملك، فلما فكر عبد الملك في خلعه وتولية ابنه الوليد مكانه رأيناه يثور معه وفاء له وعرفاناً بجميله، فيقول [٢]

لِتَهنِهِ مصر والعراقُ وما　　بالشام مِن بزهِ ومن ذهبه
يخْلُفُك البيض من بنيك كما　　يخلف عود النُّضارِ فى شُعبه[٠٣]
نحن على بيعة الرسولِ وما　　أُعطِي من عجمِهِ ومن عربِه

ومما من ريب في أن هذا اندفاع وتهور جلبتهما رقة حسى ابن قيس ورهافة شعوره، فكان إذا أخلص بالغ في إخلاصه وباع نفسه لصديقه.

---

[3] الديوان ص ٧٦.

[1] لديوان ص ٢٣٠ وانظر الأغاني (طبع بولاق) ٧٥/١٦.

[2] الديوان ص ٨٢– ٨٤ وآنظرالأغاني٥٧/١٦.

[03] يخلف: ينبت عودا بعد عود.

على كل حال ابن قيس في ديوانه مثال للرجل المتحضر الراقى الذي لا تخدشه العيوب الخلقية، وهو في شعره مثال لشاعرالأغاني المتحضر الذي لا تخدش شعره عيوب فنية. وأظن أننا لا نبالغ بعد كل ما قدمناه إذا قلنا إن ابن قيس ماهر في الضرب على قيثارة الأغاني الجديدة، وانه استطاع أن يستخرج منها أصواتاً رائعة تدل على إحسانه في فنه وإتقانه لفهمه، أصواتاً نجد فيها صورة عصره وما اضطرب فيه من أحداث، بل صورة نفسه وما اضطرم فيها من وقائع سياسية وعاطفية. وقد لا نبالغ إذا قلنا إنه شد إلى القيثارة المعاصرة وتراً جديداً، فكل من يقرؤه يستطيع أن يميز شعره وأن يميز أسلوبه بما يجرى فوق سطحه وفى داخله من أمواج نفسية تشف عنه، وكأن شعره مرآة صافية لعصره ولنفسه، ولما تأثرت به هذه النفس من ألوان حضارة وأصباغ حياة.

ابن قيس إذن صاحب أسلوب واضح في تاريخ الأغاني عند العرب، وهو أسلوب يميزه من نظرائه، وقد استطاع أن يعمم هذا الأسلوب في موضوعات الشعر التقليدي، وكأنه خلق ليكون شاعراً، وكأن روحه كانت تحوى قبساً لا يمس شيئا إلا تحول! إلى غناء. وطبعاً إنما تم هذا كله تحت تأثير حياة جديدة شفعت بنظرية للغناء كما شفعت بألوان حضارية مختلفة. وانطلق ابن قيس يعبر عن ذلك في أساليب جديدة، وهي أساليب حية، كانت تستمد من مألوف الناس في اختهم وعواطفهم، كما كانت تستمد من التهذيب الهائل الذي حصل لفن الغناء نفسه، وأيضاً فإنها كانت تستمد من الذوق المتحضر الجديد. كل ذلك نهض به ابن قيس، واستطاع أن يوقعه على قيثارة الشعر العربي، بل استطاع أن يشد أوتار هذه القيثارة شداً جديداً، بل كاد أن يضيف إلى أوتارها وتراً، حتى تصبح أكثر بساطة وأكثر ألفة للناس وقرباً من نفوسهم وأكثر صدقا وصراحة في التعبير عن عواطفهم.